



محلى رسول الله
والذين معه



Bibliotheca Alexandrina

0130353



١٧

مخزونه تبتوك

عبد احمد جوده السخار

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

نخزوة تبوك

عبد الحميد جوده النجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله
ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا
لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا
لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

(صدق الله العظيم)

كان قسطنطين يجوس خلال بيزنطة وقد لفها سواد الليل ، وراح النسيم يهب رخاء فينعش الأفئدة ويحرك الأخيـلة ، وساد الصمت لحظات شرد فيها الخيال ، ثم ما لبث الإمبراطور أن التفت إلى رجال حاشيته وقال :

— إن ربة المدينة أوحى إليّ أن أبني هنا مدينة عظيمة تتوارى روما منها خجلا .

وقامت الاحتفالات بمولد مدينة القسطنطينية ، وعملت السواعد القوية وأنفقت الأموال وصدرت الأوامر إلى الحكام في أقصى الولايات لإنشاء المعاهد الفنية لتخريج صناع مهرة ينهضون بالأعمال الهندسية التى تحتاج إليها مدينة الآمال . وارتفع البناء وأقيمت أقواس النصر ، وجلبت النفائس من مدن اليونان وآسيا ، ونصب تمثال أبوللو في وسط الميدان . ودعا الإمبراطور أعضاء السيناتو للإقامة في مدينته العظيمة فلبى بعضهم الدعوة وهجروا روما ، وشد أغنياء الولايات الرحال إلى مدينة الإمبراطور .

وراح قسطنطين يزين معابد الآلهة ، وأصدرت دار السك الإمبراطورى ميداليات تزدان بصور جوبيتر وأبوللو ومارس وهرقل . وكان قسطنطين يتהלل بالفرح عندما يمثلونه برموز أبوللو إله النور والشعر ؛ وقد زحرت مذابح أبوللو بما قدم من قرابين ونذور .

وكانت المسيحية تتسلل إلى قلوب الرومان فإذا ما اكتشف أمرها أنزل

الأباطرة بمعتقداتها أقسى أنواع العذاب ، ونجح قسطنطين في فتح إيطاليا . ومال قلبه إلى الدين الجديد فأصدر مرسوم ميلان ، مرسوم التسامح مع رعاياه المسيحيين ، فأعاد السلام إلى الكنيسة الكاثوليكية وأقر الحرية الدينية ، فأصبح حبيب السماء ونائب الله في الأرض .

وأجل قسطنطين تعميده فالتعميد قضاء مبرم على الذنوب وعودة النفس إلى طهارتها الكاملة وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . إنه شعيرة لا تتكرر فراح يشبع شهواته في حرية مطلقة وإن تظاهر بالبحث عن جوهر الحقيقة . حتى إذا ما تمدد على فراش مرضه الأخير دعا الأساقفة إلى قصر نيقيوميديا لتعميده ، ثم زعم أنه سيقضى بقية حياته في نسك يليق بتلميذ للسيد المسيح . لم تدنس عاصمة الشرق الجديدة بعبادة الأوثان فقد رفع قسطنطين المسيحية على عرش العالم الروماني ، فراح روما تحاكي القسطنطينية فعمد فيها اثنا عشر ألف رجل في سنة واحدة ، وكان الإمبراطور يمنح كل من يتحول إلى المسيحية رداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . وسار الإنجيل في ركاب الجيوش وفي قوافل التجارة وفي السفن فانتشر فيما وراء حدود الولايات الرومانية . ورحب المتبربرون بالدين الجديد الذي اعتنقه أعظم ملك وأعظم إمبراطورية على وجه الأرض . وأصبح الصليب مقدسا بين القوط والألمان الذين انضموا تحت لواء روما .

أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة بين المسيحيين ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين العالم المسيحي ، ففي الإسكندرية قام آريوس بقول إن « كلمة الله » كان خلقا تلقائيا معتمدا على غيره ، خلقتة إرادة الآب من العدم . وهذا الابن الذي صنع كل شيء قد ولد قبل العوالم ، وأن أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة إذا قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود

لم يكن أزلما بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق « كلمة الله » ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . ولقد نفخ الآب سبحانه في ابنه الوحيد من روحه وغمره في فيض من نور مجده وعظمته ، ولقد رأى هذا الابن — وهو صورة منظورة لكمال غير منظور — على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش ألمع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذي كان يشعه كان منعكسا عليه ، وكان يحكم العالم خضوعا لإرادة أبيه ومليكه شأنه في ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس . ولم يعجب ذلك الرأي كنيسة القسطنطينية فقام معارضون لآريوس يقولون إن « كلمة الله » يمتلك كل الكمال الكامن الذي لا يمكن أن ينتقل إلى غيره ، وأن الجوهر الإلهي يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهى كائنات تشترك في أنها متساوية وأبدية ، وإنه لمن التناقض أن يقال إن أيها منها لم يكن له وجود أو أن وجودها سوف ينتهى يوما ، ولقد حاول أنصار هذا الفرض الذى يبدو أنه يشكل ثلاثة آلهة مستقلة ، أن ييقوا على وحدة « خالق الكل » الذى يبرز دوره الملهم فى شكل الدنيا ونظامها بقولهم إن هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقا دائما فى عملها وفى التطابق الجوهرى لمشيئتها .

وظهر رأى ثالث يقول بوجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الإلهية فى أسمى درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة أبدية فى زمانها لانهاية فى مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض وفى الكون كله . ومن ثم فهى تفرض نفسها على العقل الحائر باعتبارها كائنا واحدا وحيدا يستطيع فى نطاق الكياسة وفى نظام الطبيعة أن يتجلى فى أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر إليه من جوانب مختلفة . وبمقتضى هذا الفرض يسمو الثلاث المادى الحقيقى ويصبح تثليثا من حيث الأسماء ومن حيث الصفات

المجردة التى لا تبقى إلا فى العقل الذى يفهمها . وهكذا لا يعود « كلمة الله » شخصا بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق إلا مجازا على العقل الأزلى الذى كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذى صنع كل شيء . ويغدو تجسيد « كلمة الله » مجرد وحى من الحكمة الإلهية هبط على الإنسان « يسوع » فملأ جوانب نفسه وهدى كل أعماله .

وأخذ الناس يدورون فى الدائرة اللاهوتية . وانقسمت إمبراطورية الرومان والولايات الخاضعة لها حول التثليث فرأى قسطنطين أن يضع حدا لذلك الانقسام الذى يهدد إمبراطوريته بالتصدع ، فابتدع بدعة المجمع الدينية لحسم الخلافات بين المذاهب المتناحرة ، فاجتمع مجمع نيقية وأقر المجمع مبدأ أن الآب والابن من جوهر واحد ، ووافقت على ذلك الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت . ثم تتابعت المجمع فمجمع نينوى مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم يأتى مجمع آخر فيقبله ، ومجمع يصف أتباع آريوس بالمروق ، ومجمع آخر يكيل لهم المديح .

وجاء قسطنطينوس بعد أبيه قسطنطين فلم يستخدم سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب بل شجع الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف ، وأجج نيران المهارات الكلامية ، فامتألت الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج إلى اجتماعات المجالس الكنيسية ، ويعملون جاهدين على إخضاع الطائفة كلها إلى آرائهم الخاصة ، فكاد الخراب يحل بكنائسهم العامة نتيجة رحلاتهم التى كانت تستهدف البحث عن العقيدة الصحيحة .

كان قسطنطينوس معارضا للعقيدة التى أقرها مجمع نيقية ، فكان يمت مذهب الطبيعة الواحدة فشهر سيفه لمحاربة تلك العقيدة وفرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون الإشارة إلى أنهما من مادة واحدة .

ومرت الأيام والعداوة تشتد ضراوة بين المسيحيين ، ومزقت مملكة الله الخلاقات وسمت طائفة نفسها الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على من عداها اسم الهرطقة . واستمرت الخلاقات بين الشرق والغرب واتسعت الهوة بين المذاهب المتنافرة المتطاحنة ، وتشعبت حتى أصبح التوفيق بينها ضربا من المحال .

وفى ذلك الوقت كانت الحنيفية التى جاء بها إبراهيم خليل الرحمن قد فسدت فى جزيرة العرب فعبد الناس الأصنام ، وقد أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل ، وحجوا إلى الأصنام ونحروا لها القرابين وقربوا الهدايا ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر ، وأحلوا وحرموا ، وكانوا يعتقدون بعبادة الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه لكن بطرق مختلفة : فرقة قالت ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا وساطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه ، وفرقة قالت : الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله . وفرقة قالت جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته ، وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاننا موكلا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

واعتنق فريق من العرب المجوسية أخذوها عن الحيرة ، فقالوا الصانع اثنان ، ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة ، وهما قديمان لم يزاالا ولن يزاالا قوين حساسين مدركين سميعين بصيرين . وهما مختلفان فى النفس والصورة متضادان فى الفعل والتدبير ، فالنور فاضل حسن نقى طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعه منها الخيرات والمسرات والصالح وليس فيها شئ من الضرر ، والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص وتتن الريح وقبح

المنظر ، ونفسها نفس شريرة بخيلة سفية متنتة مضرة منها الشر والفساد .
 وكانت اليهودية في يثرب وقد انتشرت منها إلى اليمن . وكانت النصرانية في
 ربيعة وغسان وبعض قضاة ، وقد اجتمع على النصرانية في الحيرة قبائل شتى
 من العرب ودخلت الحبشة في المسيحية . وأراد نصارى الحبشة أن يتصلوا
 بنصارى الشام وأن يرفعوا الصليب على جزيرة العرب فبعث النجاشي قائده
 أبرهة ليقوض الكعبة بيت العرب المقدس الذى تجمع حوله كل القبائل العربية
 وإن اختلفت مذاهبها ، فانطلق أصحاب الفيل ليزيلوا من الوجود أول بيت
 وضع للناس ليكون منارة التوحيد فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم
 بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

أباد الله أصحاب الفيل لأن إرادته شاءت أن يفيض نور الهداية مرة ثانية من
 بيته العتيق على العالمين ، فما إن اندحر جيش المعتدين حتى ولد الهدى في البلد
 الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وانقضت أربعون سنة وأوحى الله إلى
 عبده ما أوحى ، فقام محمد بن عبد الله يدعو قومه إلى سبيل ربه بالموعظة
 الحسنة .

وآلت مقاليد الإمبراطورية الرومانية إلى هرقل . وقد جاءه المنجمون
 والعرافون ليقريوا له طوابع عصره فقالوا له في حزن عميق إن ملكه سيزول
 على يد شعب مختون . وفكر هرقل ودبر فلم يجد شعبا مختونا غير اليهود يمكن
 أن يهدد ملكه ، فصب عليهم سوط عذاب وأذاقهم من الاضطهاد ألوانا .

وقام محمد — ﷺ — ينذر قومه ويبلغهم رسالة ربه ، فكان صراع بين
 الهدى والضلال ، وكانت الهجرة وكانت الحروب بين الأنصار والمهاجرين
 وبين كفار مكة ، وكانت انتصارات الإسلام الباهرة ، حتى إذا ما وقع صلح
 الحديبية بين المسلمين وقريش أرسل — ﷺ — الرسل إلى ملوك الأرض

يدعوهم إلى الإسلام .

وذهب دحية الكلبي إلى الشام يحمل كتاب رسول الله ﷺ — إلى هرقل عظيم الروم يدعو فيه إلى الإسلام ، فقابل هرقل دحية بالترحيب وبعث معه هدايا لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن ما إن غاب دحية عن عينيه حتى عادت النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيستل منه الملك ثورقه ، فالعرب الذين بعث الله فيهم رسولا منهم شعب مختون ، وإن النبوءة لقادرة على أن تجمع أشتات هذا الشعب ، وهي قادرة على أن تحمله إلى غزو العالم وتقويض الإمبراطوريات التي نخر فيها سوس الفساد . فبيت هرقل النية على مناصبة الأمة التي بدأت تلتف حول رسولها العداء ، وعزم على أن يطعن طعنة قاضية قبل أن يشتد ساعدها .

وجمع هرقل الجموع ، وبلغ رسول الله ﷺ — أن إمبراطور الروم يتأهب لغزو بلاده . إنه عليه الصلاة والسلام يمقت أن يبدأ بالعدوان وهو محب للسلام ، ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى يدهمه عدوه في عقر داره ، فأرسل جيشا بقيادة زيد بن حارثة للقاء هرقل وكانت غزوة مؤتة ، وحارب جيش الأمراء حربا لا هوادة فيها ولم تكن القوى متكافئة ، فانصرف خالد بن الوليد بالناس . فلما أقبل بهم قافلا جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : — يا فرار ، فررت في سبيل الله .

فيقول رسول الله ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وكان فتح مكة ، واتفقت كلمة العرب لأول مرة منذ أن نشأ المجتمع المكي حول بئر زمزم ، وكانت الوحدة فعادت مخاوف هرقل تقلقه ، فهذا هو ذا شعب مختون فتى يرفع رأسه ويتأهب ليزحف ليحتل مكانه بين العالمين . إنه الشعب

— ١١ —

الذى تنبأ المنجمون بأن نهاية ملكه ستكون على يديه ، فراح يجمع الجموع
ليطيح بذلك الشعب قبل أن تثبت أقدامه على الأرض .
وبلغ رسول الله — ﷺ — أن هرقل يتأهب ليعاود الكرة ويسير إلى يثرب
ليطعن قلب الإسلام فعقد — ﷺ — العزم على أن يخرج بنفسه لتحطيم غرور
الرومان وليرشد أتباعه إلى طريق الانطلاق .

٢

الحر شديد والعرق يتفصد من الأجسام ، والناس في عسرة فقد انتشر الجذب في البلاد . وبرقت في النفوس بارقة أمل فقد أينعت البساتين وطابت الثمار ، فهوت أنفوس الناس إلى المقام في ثمارهم وظلالهم . وراح — ﷺ — يأقئ القوم ويقول لهم إن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وإن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وإن لخم و جذام وعاملة و غسان قد خرجت معه وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء .

ونذب رسول الله — ﷺ — الناس إلى الخروج وكان عليه السلام قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا ما كان من هذه الغزوة لبعد الشقة وشدة الزمن وكثرة العدو وليأخذ الناس أهبتهم ، وأمر الناس بالجهاز فراحوا يتجهزون وقد عادت غزوة مؤتة إلى الذاكرة ؛ لقد قتل فيها زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب أمراء الجيش ، وقد استطاع خالد بن الوليد أن يقفل راجعا بجيش المسلمين بعد خدعة بارعة خدع بها جيوش الرومان .

كان المؤمنون يتحرقون شوقا للقاء الأعداء ليثأروا مقتل إخوانهم ، وكان المنافقون يجاهدون لبث روح الهزيمة في صفوف المسلمين . وبعث عليه السلام إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ، فإذا بالرجال الذين أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين يتدفقون على

— ١٣ —

المدينة من كل حذب ، وإذا بالصدقات تحمل من مكة ومن القبائل إلى مدينة الرسول ، وإذا بأناس يتشاقلون إلى الأرض .

وذاث يوم وبيننا رسول الله ﷺ — يتجهز لغزو الروم ، قابل الجد بن قيس — أحد بنى سلمة — فقال له :

— يا جد هل لك العام في جلال بنى الأصفر ؟

— يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني . وإني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه — ﷺ — وقال :

— قد أذنت لك .

ولامه ولده عبد الله وقال له :

— والله ما يمنعك إلا النفاق . سينزل الله فيك قرآنا .

فأخذ نعله وضرب به وجه ولده .

فأنزل الله في الجد بن قيس : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » (١) .

فقال له ولده :

— ألم أقل لك ؟

— اسكت يا لكع (٢) ، فوالله لأنت أشد علي من محمد .

وراح المنافقون يثنون سموهم ويفحون (٣) للناس فحيح الأفاعى

(٢) اللكع : الليم .

(١) التوبة ٤٩ .

(٣) الفحيح : صوت الأفعى

ويقولون هامسين :

— لا تنفروا في الحر .

كانوا ينسلون في حذر ويتهايمسون وهم يتلفتون حتى لا يصل همسهم إلى مسامع الرسول عليه السلام أو مسامع أصحابه المخلصين . كانوا يرجون أن ينجحوا في إلقاء بذور الزهادة في الجهاد في قلوب المؤمنين دون أن يفتضح أمرهم ، ولكن الله كشفهم وأنزل فيهم : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ﴾ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴿ (١) .

وبلغ رسول الله — ﷺ — أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله — ﷺ — ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم . وانطلق طلحة والذين معه إلى الدار وأشعل فيها النار ، فانخلعت قلوب من فيها وهبوا مفزوعين يريدون النجاة فاقترحم الضحاك بن خليفة من البيت فانكسرت رجله ، واقترحم أصحابه فأفلتوا ، فقال الضحاك في ذلك :

كادت وبيت الله نار محمد

يشيط بها الضحاك وابن أبيرق

وظلت وقد طبقت (٢) كبس (٣) سويلم

أنسو على رجلى كسيرا ومرفقى

(٢) طبقت : علوت .

(١) التوبة ٨١ ، ٨٢ .

(٣) كبس : البيت الصغير .

سلام عليكم لا أعود لملثها

أخاف ومن تشمل به النار يحرق
وأخذ عليه السلام يحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ، فأنفق
عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فإنه جهز عشرة آلاف أنفق
عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل — وهى تسعمائة بعير ومائة فرس
— والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية ؛ وعند ذلك قال —
ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فإنه راض .
وظل من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن
عفان .

وجاء عثمان بن عفان بألف دينار فصبها في حجر النبی — ﷺ — ، فجعل
رسول الله — ﷺ — يقلبها بيديه ويقول :

— ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .. ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .
وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف
درهم . فقال له رسول الله — ﷺ — :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثانى .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، فقد كان عثمان بن عفان وعبد
الرحمن بن عوف خزانيتين من خزائن الله في الأرض ينفقان في طاعة الله تعالى .

وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة بما عنده ، وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حلين ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر .
وجاء عبد الله ذو البجادين إلى رسول الله ﷺ — وقال :
— يا رسول الله ادع لي بالشهادة .

فقال — ﷺ :

— ائتنى بلحاء (قشرة) شجرة .

فأتاه بذلك فربطه — ﷺ — على عضده وقال :

— اللهم حرم دمه على الكفار .

— يا رسول الله ليس هذا ما أردت .

— إنك إذا أخذت الحمى فقتلتك فأنت شهيد .

ولم يكن لعبد الله إلا بجاد واحد^(١) ، فشقه نصفين فأتزر بواحد وارتنى بالآخر . وقدم المدينة وأسلم وقرأ قرآنا كثيرا وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ — عبد الله .

وأناه أصحاب مسجد الضرار فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة

والليلة الشاتية ، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه .

— إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا

لكم فيه .

وجاء — ﷺ — سبعة أنفس من فقهاء الصحابة كانوا متشوقين للغزو في

سبيل الله ، ولكنهم كانوا فقراء لا يجدون ما يركبون فسالوه أن يحملهم ، فقال

— ﷺ :

— لا أجد ما أحملكم عليه .

(١) البجاد : الكساء المخطط الغليظ .

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون . ورأى العباس بكاء البكائين فتأثر غاية التأثر فحمل منهم اثنين ، وحمل منهم عثمان بن عفان ثلاثة ، وحمل ياميز بن عمرو النضرى اثنين دفع لهما ناضحاً له وزود كلا منهما صاعين من تمر .

وكان هناك أناس آخرون يتحرقون شوقاً للخروج مع رسول الله ﷺ — لقتال الروم ، وكان يقعدهم عن التجهز أنهم لا يملكون ناقة ولا بعيراً ، فالشقة بعيدة والحر شديد وما يستطيع رجل أن يطوى المسافة بين يثرب وتبوك على قدميه . وكان أبو موسى الأشعري وبعض أصحابه يجلسون مطرقين قد نزل بهم هم ثقيل ، فهم يرون إخوانهم يتأهبون للخروج بينما هم لا يجدون مطية تحملهم لينطلقوا مع رسولهم الكريم .

وانتهجت الأبصار إلى أئى موسى ، فرسول الله ﷺ — ينصت إليه وهو يرتل القرآن ترتيلاً حتى إذا ما انتهى من تلاوته يقول له عليه السلام : « إنك مزمار من مزامير داود » . وطلبوا منه أن ينطلق إلى رسول الله ﷺ — يسأله الحملان لهم :

وذهب إليه أبو موسى وقال :

— يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم .

— والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه .

فرجع أبو موسى حزينا إلى أصحابه من منع النبي ﷺ ، ومن مخافة أن يكون النبي عليه السلام وجد في نفسه حيث حلف على ألا يحملهم ، وأخبرهم الذى قال النبي ﷺ — فلم يلبث إلا سويعة إذ سمع بلالا ينادى :

— أين عبد الله بن قيس ؟

فأجابه قال :

(غزوة تبوك)

— ١٨ —

— أجب رسول الله ، النبی — ﷺ — يدعوك .

فلما أتاه قال عليه السلام :

— خذ هذه الستة الأبرة فانطلق بها إلى أصحابك .

وأخذها أبو موسى وانطلق بها إلى أصحابه فتهللت وجوههم بالبشر ،
وسرعان ما غاضت ألوانهم لما قال أحدهم :

— أغلقنا رسول الله — ﷺ .

حملوه على يمين الغلق ، حلف أن لا يحملهم ثم حملهم فقالوا :
— فوالله لا بارك لنا في ذلك .

فأتوه وبشوه مخاوفهم فقال : عليه صلوات الله وسلامه :

— أنا ما حملتكم ، الله حملكم .

ثم قال :

— إني لا أحلف يمينا فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت

الذى هو خير .

إنه — ﷺ — إنما حلف ألا يتكلف لهؤلاء حملا بقرض ، فهو لم يحنث في
قسمه . وقد أراد استبابت قاعدة على الرغم من أنه لم يحنث في يمينه ، فقال إنه
لو قدر وحلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فهو يكفر عن يمينه ويأتى الذى هو
خير .

وتأهب عليه السلام للخروج ، وخلف محمد بن مسلمة الأنصارى على
المدينة ، وخلف عليا كرم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم .

وأرجف بعلى المنافقون وقالوا :

— ما خلفه إلا استقبالا له .

وسار رسول الله — ﷺ — بالناس وكانوا ثلاثين ألفا وكانت الخيل عشرة

آلاف فرس . وعسكر على ثنية الوداع ، وجاء عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وكان في جيش لا يقل كثيرا عن جيش المؤمنين وعسكر أسفل جيش رسول الله ﷺ .

وصوبت أعين الشك إلى عبد الله بن أبي ، أيتطلق رأس المنافقين مع رسول الله ﷺ — ليحارب الروم ؟ أظهر الله قلبه وأضاء جوانحه بأنوار اليقين ؟ وآ أن أوان الرحيل فقال عبد الله بن أبي في سخرية :

— يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنا أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال .

لم يبرأ عبد الله بن أبي من مرض قلبه . إنه لم يستطع أن ينسى يوما أن محمدا قد حرمه التاج الذى كاد الأوس والخزرج أن يضعوه على رأسه لولا هجرته عليه السلام التى قضت على كل آماله وأمانيه . وتخلف عن الخروج وهو يرجو أن يهزم الروم المسلمين هزيمة تشفى غليله الذى كان يزداد ضراوة على مر السنين .

واجتمع جمع من المنافقين فقال بعضهم لبعض :
— أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنهم غدا مقرنون في الحبال .

وقال رسول الله ﷺ — عند ذلك لعمار بن ياسر :
— أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلت كذا وكذا .

فانطلق إليهم عمار فقال ذلك ، فأتوا رسول الله ﷺ — يعتذرون إليه وقالوا :

— إنما كنا نخوض ونلعب .

فأنزل الله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » (١) .
وجاء الضعفاء والمقلون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف فأذن لهم
وكانوا اثنين وثمانين رجلا ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر . وتخلف جمع
من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير
عذر وكانوا ممن لا يهتم في إسلامه .

وتأهب رسول الله — ﷺ — للسير فعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه
الأعظم لأبي بكر الصديق ، ورايته العظمى للزبير بن العوام ، ودفع راية الأوس
لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من
الأنصار ومن قبائل العرب لواء .

وقطع جيش المسلمين ثلاثة أميال ثم نزل بالجرف ، وإذا بعلي بن أبي طالب
قادم وهو باسر الوجه فقد بلغه ما يرجف به المنافقون ؛ إنه يحمل سلاحه وهو
يريد أن ينطلق مع ابن عمه الحبيب ليحارب بين يديه كما حارب في كل
المشاهد .

ونظر رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — إلى علي في استفسار فقال
علي :

— يا نبي الله زعم المنافقون أنك ما خلفتني إلا استثقلتني وتخفتت مني .
— كذبوا ولكنني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي
وأهلك . أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي
بعدي ؟

انبسطت أشعة الشمس كأنها تبر في الأفق الشرق ، ثم ارتفعت ترسل
 للهب فأوى الناس إلى الدور ، وخرجت طائفة إلى الحقول والبساتين تبحث
 عن الظل الظليل والنسيم العليل ، فقد كان اليوم شديد الحر ثقيل الهواء لكأنه
 كابوس على الصدور .

وجاء أبو خيشمة والعرق يتفصد منه والهواء الساخن يلفح وجهه ، وعلم
 أن رسول الله ﷺ — قد خرج منذ أيام لقتال الروم فدخل على أهله ،
 فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قدرشت كل منهما عريشتها وبردتا
 فيها ماء وهياتا طعاما . فلما دخل نظر إلى امرأته وما صنعتا فتقاصرت نفسه
 وقال :

— رسول الله ﷺ — في الحر وأبو خيشمة في ظل بارد وماء مهيا وامرأة
 حسناء ؟ ما هذا بالنصف .

ورنا إليهما رنوة طويلة ثم قال :

— والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ —
 فهيئا لي زادا .

ففعلتا ، وأخذ سيفه ورمحه وامتطى راحلته وانطلق في الحر الشديد يطلب
 رسول الله ﷺ .

كان يعرف الطريق فيا طالما انطلق فيه إلى الشام ، ولقد خرج مع جيش

المسلمين الذى التقى بالروم فى مؤتة . إنه ليرى بعين خياله فرسان الروم على ظهور الجياد وقد تألقت فى الشمس خوذاتهم وعكست دروعهم أشعتها الوهاجة لتبهر الأبصار ، وقد رفع النسر الرومانى على رءوس الرماح يرفرف فى الهواء .

وعادت معركة مؤتة تدور فى رأسه . إنها معركة رهيبة لا يستطيع أن ينساها مهما مرت السنون . كانت بدايتها غريبة وكانت نهايتها عجيبة ؛ ثلاثة آلاف من صناديد المسلمين يخرجون لحرب أعظم جيوش الأرض قاطبة ، الجيش الذى هزم الفرس وأعاد الصليب إلى بيت المقدس ، إنه ليذكر عبد الله ابن رواحة وهو يودع الناس . وإنه ليرى فى وضوح دموعه التى سالت حتى بللت لحيته . وإن الحوار المؤثر الذى دار بين المودعين وبين ابن رواحة يرن فى وجدانه فيبهره من الأعماق :

— ما ييكيك يا ابن رواحة ؟

— أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل فذكر فيها النار : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » ^(١) . فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود .

— صحبكم الله دفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

لكننى أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرغ تقذف الزبد ^(٢)

(١) مريم ٧١ .

(٢) ذات فرغ : ذات سعة ، والزبد هنا رغوۃ الدم .

أو طعنة يبدى حرّان مجهرة^(١)
 بحرصة تنفذ الأحشاء والكبد
 حتى يقال إذا مرّوا على جدنى
 أرشده الله من غراز وقد رشدنا
 ورأى أبو خيثمة عبد الله بن رواحة وهو يودع رسول الله ﷺ — ،
 فأصاخ السمع كأنما يتلقى من الماضى ترجيع صوت شاعر الرسول :
 فثبت الله ما آتاك من حسن
 تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا
 إلى تفرست فيك الخير نافلّة
 الله يعلم أنى ثابت البصر^(٢)
 أنت الرسول فمن يُحرم نوافله
 والوجه منه فقد أزرى به القدر
 وقفز خيال أبى خيثمة إلى المعركة . ثلاثة آلاف من المسلمين أمام هرقل
 قاهر الفرس فى مائة ألف من الروم وقد انضم لهم رجال من لخم وجذام
 والقين وبهراء وبلى . قوى غير متكافئة .
 ورأى فريق من المسلمين أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ — فيخبروه
 بعدد عدوهم ، فإما أن يمدّهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمره ، واحتلت صورة
 ابن رواحة صفحة ذهنه ودوى صوته فى جوائحه كأنما قد تردد بين السماء
 والأرض :

(١) مجهرة : شديدة .

(٢) فى هذا البيت إلقاء ، وهو اختلاف حركة الراء من ضم إلى كسر .

— يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل
الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ،
فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة .
وقال أبو خيثمة لنفسه وهو يجفف العرق المنصب منه :
— وكانت الشهادة .

زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط فى رماح
القوم ، جعفر بن أبى طالب يلتقط راية رسول الله عليه السلام — حتى إذا
أحجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، ومس
أذنى خيثمة ما ارتجز به جعفر قبل أن يقتل :
يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها .
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيده أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها

وتذكر عبد الله بن رواحة بهيئته المهيبة وشجاعته الفائقة وإيمانه العميق .
إنه أخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، ثم نزل وسيفه فى يده ، فتقدم فقاتل
حتى قتل .

ثلاثة آلاف يقاتلون مائة ألف أو يزيدون ، فماذا كان خالد بن الوليد
يستطيع أن يفعل إلا أن ينصرف بالناس !

وراح خيثمة يفكر فى العلاقة التى ساءت بين المسلمين والروم ،
فالمسلمون فى أيام محنتهم فى مكة كانوا متحمسين للروم لأنهم أهل كتاب
وكانوا يتمنون انتصارهم على الفرس . فلما انتصرت فارس عليهم ساء ذلك
المسلمين فنزل القرآن المجيد يؤكد انتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة : « ألم .
غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله

الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ؛ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »^(١) . وكانت سخرية من قريش . وكان رهان بين أبى بكر الصديق وأمية بن خلف ، وتصرمت الأيام وكانت الهجرة وكانت غزوة بدر وكان انتصار المسلمين المبين وجاءت الأنباء بانتصار الروم على الفرس وسادات قريش صرعى فى القلب ، ففرح المؤمنون بنصر الله وخروا للأذقان سجدا .

وأرسل — صلوات الله وسلامه عليه — رسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام ، فقال فى دهاء : « لو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقيه » . إنه عرف صدق النبى — ﷺ — وإنما شح بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام .

إنه بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة جمع الجموع بعد ستين ليسير إلى يثرب ليقضى على النهضة التى انبعثت بها قبل أن يستفحل أمرها وتهدد سلطانه . ولكن رسول الله عليه السلام بعث إليه صفوة جنوده ليحاربوا بالإيمان جحافل الرومان الذين كانت قلوبهم هواء ، وكانت غزوة مؤتة وكان أن قتل أمراء الجيش بعد أن أثخنوا الجيش الرومانى بالجراح .

كانت معركة رهيبة انتشرت أنبأؤها فى القدس وفى حمص وفى القسطنطينية ، بل وقرع خبرها أبواب روما ، وأحس هرقل أن سمعة جيشه باتت فى الميزان . مائة ألف أو يزيدون عجزوا عن أن يقضوا على ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجمع هرقل الإمبراطور الذى يزهو بنصره على الفرس آلاف الجنود والفرسان ليضرب العرب ضربة قاضية تعيد إليه هيئته ، ولكن رسول

الله — ﷺ — ندب الناس للخروج فخرجوا يطوون الصحراء في القبط
الشديد ليهاجموا الذين يتأهبون للعداوة ، فالهجوم خير وسيلة للدفاع .
وخطر على قلب خيامة قول رسول الله — ﷺ : « نُصرت بالرعب » .
فرقت على شفتيه بسمة رضا . إن خبر خروج رسول الله عليه السلام بنفسه
لحرب الروم سيصل إلى هرقل وسينزل الرعب في قلبه وسيزلزل من
الأعماق . سيهزم الجمع قبل أن يشهر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه
— في وجوههم السلاح .

ورأى خيامة رجلا على الطريق فحث راحلته حتى لحق به ، فقال :

— من ؟ عمير بن وهب !

— نعم .

— إلى أين ؟

— خرجت في طلب رسول الله .

— الصحبة يا عمير .

— الصحبة .

جيش المسلمين يسرى فى معبد الله . الشمس حامية ترسل لهابها والعرق ينبثق من الأجسام وشنن الماء ترفع إلى الأفواه فتطفئ الظمأ وقتا قصيرا ثم سرعان ما يعود إلى الخلق الجفاف . ورسول الله — ﷺ — يطوى الأرض طيا فهو يريد أن يصل إلى تبوك قبل أن يتم هرقل استعدادده للقاء .

وهبت الرياح ساخنة تشوى الوجوه ، وتلفت المسلمون فلم يجدوا إلا ظل الصخور التى كانت تبعث حرارتها لكأنما كانت ألسنة نار ، وكانت الأرض كأتون ملتهب تلسع الأقدام . وأراد كثير من الرجال أن ينقضوا من على رواحلهم ولكنهم كانوا يرون رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مستويا على ناقته وما كان شابا وما كان حتى فى منتصف عمره ، فكانوا يتماسكون ويتحملون قسوة الحر الشديد ، فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

ثلاثون ألفا من الرجال يتحركون وقد صار هدفهم حدود الدولة الرومانية ، وتخلف أبو ذر الغفارى فقالوا لرسول الله — ﷺ :
— تخلف أبو ذر .

— دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ومر رسول الله — ﷺ — بالحجر ديار ثمود فسجى ثوبه على رأسه

واستحث راحلته وقال :

— لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيكم ما أصابهم .

ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئاً وألا يتوضئوا به للصلاة ، ثم ارتحل بالناس وانطلق حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح ، وقلب وجهه في السماء وأخبر عليه السلام أصحابه أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة . وقال :

— من كان له بعير فليشد عقاله .

ونهى الناس في تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه أخوه ، فخرج شخص وحده لحاجته فخنق ، وخرج آخر في طلب بعير له ند فاحتمله الريح ، فأخبر بذلك رسول الله — ﷺ — فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؟

واستخلف على عسكره أبا بكر الصديق يصلى بالناس واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر فكان يطوف في أصحابه على العسكر ، ثم أصبح الناس ولا ماء معهم فتوجهت الأبصار إلى السماء فإذا هي زرقاء صافية . وارتفعت الشمس ترسل أشعتها الحامية فتلملح الناس وراحوا يحتمون بظل الصخور ، وسرعان ما نفثت الصخور حرارتها فانبثق العرق من الأجسام وجفت الحلق وأخذ الناس يلهثون من الظمأ وكاد يلحق بهم البوار ، فقد حصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم . فقاموا إلى إبلهم ينحرونها ويشقون أكراسها ويشربون ماءها ويجعلون ما بقى على أكبادهم . وراح أبو بكر الصديق ينظر إلى الرجال من بين الدموع التي تفرقت في عينيه ، أيموت الناس عطشاً ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فيهم !؟

— ٢٩ —

وذهب أبو بكر إلى رسول الله عليه السلام وقال :

— يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيرا ، فادع الله لنا .

— أتحب ذلك ؟

فدعا فأرسل الله سحابة فمطرت فأخذ الناس يستقبلون المطر بوجوههم وقد تهللت أساريرهم وارتفعت الأصوات بشكر الله وقد فتحت الأفواه لاستقبال الغيث المنهمر وملئوا شئهم واحتملوا ما يحتاجون إليه . وممر رجل من الأنصار بآخر متهم بالنفاق فقال له :

— ويحك قد ترى .

فقال المنافق دون نخجل :

— سحابة مارة .

وقال آخر لمنافق آخر :

— ويحك هل بعد هذا شيء ؟

— إنما مطرنا بنوء كذا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ * فلولاً إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴿ (١) .

وتباطأ جمل أبي ذر لما به من الإعياء والتعب فتخلف عن الجيش ، فقال الناس لرسول الله ﷺ :

— يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره .

— دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم . وإن يك غير ذلك فقد

أراحكم الله منه .

وانطلق الجيش وأبو ذر يحاول أن يستنهض بعيره فذهبت ، محاولته أدراج الرياح ، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ — ماشيا فأدركه نازلا في بعض المنازل . ونظره شخص يمشى فقال :

— يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده .

فقال رسول الله ﷺ :

— كن أبا ذر .

فلما تأمله القوم قالوا :

— يا رسول الله هو والله أبو ذر .

فقال رسول الله ﷺ :

— رحم الله أبا ذر . يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده .

وسار جيش المسلمين حتى لاحت أرباض تبوك وأبو خيثمة وعمير بن وهب يغذان السير ليلحقا برسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه ، ولاحت لأعينهما جماعة المسلمين فالتفت أبو خيثمة إلى عمير وقال :

— إن لي ذنبا فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ .

وتخلف عمير وتقدم أبو خيثمة ، ورأى الناس رجلا يتقدم فقالوا :

— هذا راكب مقبل .

فقال رسول الله ﷺ :

— كن أبا خيثمة .

— يا رسول الله هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ :

— أولى لك يا أبا خيثمة .

وارتحف أبو خيثمة فرسول الله يتوعده ويهدده ، وسرعان ما استعداد رباطة
جأشه فراح يخبر رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ — خيرا ودعا له
بخير .

وأنشد أبو خيثمة :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا
أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد
فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما
تركت خضيبا في العريش وصرمة
صفايا كراما بسرهما قد تحمما (١)
وكننت إذا شك المنافق أسمحت
إلى الدين نفسى شطره حيث يمما (٢)

وأسدل الليل أستاره ولم يبق على تبوك غير تلك الليلة ، فالتفت عليه السلام إلى
بلال وقال له :

— اكلا لنا الفجر .

وذهب — صلوات الله وسلامه عليه — لينام ونام أصحابه ، وأسند بلال ظهره
إلى راحلته فغلبته عيناه . وظل عليه السلام نائما فلما استيقظ نظر إلى الأفق الشرقى
فوجد أن الشمس قد ارتفعت قيد رمح ، فذهب إلى حيث كان بلال وقال له :

(١) الخضيب : المخضوبة ، والصرمة : جماعة النخل ، وصفايا : كثيرة الحمل ،
والبسر : التمر قبل أن تطيب .

(٢) أسمحت : انقادت ؛ وشطره : نحوه وقصده .

— ٣٢ —

— ألم أقل لك يا بلال اكلاً لنا الفجر ؟
 — يا رسول الله ذهب بي مثل الذى ذهب بك .
 وصلى رسول الله — ﷺ — وصلى الناس ثم ركبوا ، فجعل بعضهم
 يهمس إلى بعض :

— ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟
 فقال النبي — ﷺ :
 — ما هذا الذى تهمسون دونى ؟
 — يا رسول الله بتفريطنا فى صلاتنا .
 — أما لكم فى أسوة حسنة ؟ ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم
 يصل الصلاة حتى يجيء وقت أخرى .

وبلغ رسول الله — ﷺ — تبوك بعد سبعة أيام من خروجه من يثرب ،
 وكان عليه السلام قد أشرف على الستين وكان أكثر رجال الجيش قوة
 وحيوية ، وتقع تبوك على حدود الدولة الرومانية وهى واحة خضراء
 خصبة ، الحدائق تمتد على مدى البصر والأشجار باسقة والسكان يقابلون
 الذين قطعوا الفيافي والقفار لحرب الروم بالترحاب ، فقد عرف عن المسلمين
 العدل والإحسان بينا كان الناس يقاسون الأمرين فى ظل الرومان قساة
 الأكباد .

وراح الجنود يعالجون أقدامهم المكدودة المجروحة بعد أن ألقى الله الرعب
 فى قلوب الرومان فانسحبوا إلى الشام وقد آثروا السلامة ، ففى غزوة مؤتة فعل
 ثلاثة آلاف مسلم بهم الأفاعيل فهل يغامرون بتجربة أخرى أمام ثلاثين ألفاً
 الموت إليهم أحب من الحياة ، و على رأسهم رسول الله — ﷺ ؟
 ذاب الجيش الرومانى ولم يظهر له رقل أثر ، فبعث رسول الله — ﷺ —

كتائب خفيفة إلى المناطق المجاورة ، فجاء يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء وهى قرية بالشام وأهل أذرح ، فعرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية فقبل يوحنا أن يدفع الجزية لرسول الله وأهدى له بغلة بيضاء . فكساه رسول الله — ﷺ — بردا وكتب له — ﷺ — ولأهل أيلة كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمانة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل البر وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يجوز ماله دون نفسه وإنه لطيبه لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوه ماء يرونه ولا طريقا يريدونه من بر ولا بحر » .

وكتب — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد . وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين » .

وسجا الليل ونام الناس وراح عبد الله بن مسعود يتقلب فى نومه ، وأحس حركة خفيفة ففتح عينيه فرأى شعلة نار فاتبعها ينظر إليها ، فإذا رسول الله — ﷺ — وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات بالحمى وإذا هم قد حفروا له ورسول الله — ﷺ — فى حفرة وأبو بكر وعمر يدليانه وهو يقول :

— أدليا إلّى أناكما .

فأدلياه إليه فلما هياها لشقه قال :

— اللهم قد أمتيت راضيا عنه فارض عنه .

فقال عبد الله بن مسعود فى نفسه :

— يا ليتنى كنت صاحب الحفرة !

(غزوة تبوك)

دعا رسول الله ﷺ — خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكا عليها وكان نصرانيا ، فقال رسول الله ﷺ — لخالد :

— إنك ستجده يصيد البقر .

فخرج خالد في خمسمائة فارس من فرسان المسلمين حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين رآه وهو على سطح له ومعه امرأته . كانت الليلة مقمرة صائفة وقد خرجت البقر الوحشية ترحل في ضوء القمر أمام الحصن ، فقالت امرأة أكيدر :

— هل رأيت مثل هذا قط ؟

— لا والله .

— فمن يترك هذه ؟

— لا أحد .

فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه يطاردون البقر ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ — فأخذته وقتلوا أخاه . وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ — .

وقدم رجل بالقباء على رسول الله ﷺ — فجعل المسلمون يلمسونه

بأيديهم ويتعجبون منه ، فقد كانوا قوما يعيشون عيشة بسيطة لا يعرفون بذخ العيش ولا فاخر الثياب فما كانت الدنيا تغرهم وما كانوا يقدرونها فوق قدرها ، فما هي إلا دار ممر لدار مقر وقد جعلوا همهم الآخرة .

وقدم خالد بأكيدر على رسول الله — ﷺ — فاستقبله عليه السلام بالترحاب وهش له وبش ، فاطمأن أكيدر بعد أن أفزعه قتل خالد لأخيه حسان ، وعرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية ، فقبل أكيدر الجزية وحقق دمه ثم خلى سبيله .

ومرت الأيام ورسول الله — ﷺ — في تبوك ولم يظهر لجيش الروم أثر ، فاستشار — ﷺ — أصحابه في مجاوزتها فقال له عمر :
— إن كنت أمرت بالسير فسر .

فقال — ﷺ :

— لو أمرت بالسير لم أستر كم فيه .

— يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا .
كان خالد قد ساق أمامه ألفى بعير وثمانمائة شاة لما جاء بأكيدر ، وقد أهدي لرسول الله عليه السلام بعض أهل الكتاب هدايا كثيرة . وأهداه بعضهم جبة فدعا بسكين فسمى الله وقطع وأكل ، ثم انصرف — ﷺ — قافلا إلى المدينة .

وسرى جيش المسلمين بالليل وكان أبو رهم الغفاري قريبا من رسول الله — ﷺ — وألقى الله عليهم النعاس ، فطفق أبو رهم يستيقظ وقد دنت راحلته من راحلة رسول الله — ﷺ — فيفزع دنوها منه مخافة أن يصيب رجله عليه السلام في الغرز ، فطفق يحوز راحلته عنه حتى غلبته عينه في بعض الطريق وهم

— ٣٦ —

في بعض الليل ، فزاحمت راحلته راحلة رسول الله ﷺ — ورجله في الغرز ، فما استيقظ إلا بقوله عليه السلام :
— حَسَّ .

— يا رسول الله استغفر لي .

كانوا لا يحبون أن يوقفوه عليه السلام فمن يدرى قد يكون يتلقى وحي ربه ، وكانوا يتركونه إذا نام حتى يستيقظ ، فخشى أبو رهم أن يكون قد أساء إليه بإيقاظه فقال له عليه السلام في بساطة :
— سر .

فجعل رسول الله ﷺ — يسأله عمن تخلف من بنى غفار فيخبره به ، فقال وهو يحاوره :

— ما فعل النضر الحمر الطُّطاط (صغير نبات شعر اللحية) ؟
فحدثه بتخلفهم .

— فما فعل النضر السود الجعاد القصار ؟
والله لا أعرف هؤلاء منا .

— بلى ، الذين لهم نعم بشبكة شدخ (ماء لأسلم من بنى غفار) .
فتذكرهم أبو رهم ولم يذكرهم حتى ذُكر أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فيهم ، فقال :

— يا رسول الله أولئك رهط من أسلم ، حلفاء فينا .

— ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطا في سبيل الله : إن أغز أهلى على أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم .

واجتمع رأى من كان معه — ﷺ — من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا أن

ينكبوا برسول الله — ﷺ — في العقبة التي بين تبوك والمدينة ، فقالوا :

— إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادى .

فأخبر الله تعالى رسوله بذلك . فلما وصل الجيش العقبة نادى مناد لرسول الله — ﷺ :
 . — إن رسول الله — ﷺ — يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ؛

واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع .

فسلك الناس بطن الوادى وسلك رسول الله — ﷺ — العقبة ، فلما سمع المنافقون بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة ، وأمر — ﷺ — عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، فأمر — ﷺ — حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه . فبينما رسول الله — ﷺ — يسير في العقبة إذ سمع حس القوم وقد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله — ﷺ — حتى سقط بعض متاعه ، فغضب رسول الله — ﷺ — وصرخ بهم فولوا مدبرين وحذيفة يضرب بمحجن معه وجوه رواحلهم ويقول :

— إليكم .. إليكم يا أعداء الله .

فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس ، فرجع حذيفة يضرب الناقة فقال له رسول الله — ﷺ :
 . — هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم ؟

— لا . كان القوم ملثمين واليلة مظلمة .

ونزل رسول الله — ﷺ — عن راحلته فأوحى إليه وراحلته بركة ، فقامت تجر زمامها فلقيها حذيفة فأخذ بزمامها وجاء إلى قرب رسول الله — ﷺ — فأنابها ثم جلس عندها ، حتى قام النبي — ﷺ — فأتاه بها فقال عليه السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— إني مسر إليك سرا فلا تذكره . إني نهيت أن أصلى على فلان وفلان . وعد جماعة من المنافقين . وظل حذيفة صاحب سر رسول الله مطبقا فمه ، فلما توفي رسول الله — ﷺ — كان عمر بن الخطاب في خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقادته إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر ، وإن انتزع يده ترك الصلاة عليه .

وأصبح رسول الله — ﷺ — فجاء إليه أسيد بن حضير فقال : يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي ؟ فقد كان أسهل من سلوك العقبة .

— أتندري ما أراد المنافقون ؟ إنهم مكروا ليسيروا معي في العقبة فيزحموني فيطرحوني منها . إن الله أخبرني بهم وبمكرهم .

— يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا ، فإن أحببت بين أسمائهم ، والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم .

— إني أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم .

— يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب .

— أليس يظهرون الشهادة ؟

ثم جمعهم رسول الله — ﷺ — سرا وأخبرهم بما قالوا وما أجمعوا عليه فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي ذكر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يحلفون بالله ﴾

ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا
وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن
يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي
ولا نصير ﴿١﴾ .

وظل سر هذا الرهط بين رسول الله ﷺ — وحذيفة صاحب سره
عليه السلام . وتأهب الناس للانطلاق إلى المدينة فقال — ﷺ :
— إن بالمدينة لأقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم .
— يا رسول الله وهم بالمدينة ؟
— نعم . حبسهم العذر .

كان أبو عامر الراهب من الأوس وكان في قومه شريفا مطاعا ، وكان قد
ترهب في الجاهلية ولبس المسوح . فلما اجتمع قومه على الإسلام أتى إلا الكفر
والفراق لقومه ، فخرج إلى مكة ومعه بضعة عشر رجلا مفارقا للإسلام
ولرسوله — ﷺ ، فقال رسول الله — ﷺ :
— لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق .
إنه أتى إلى رسول الله — ﷺ — حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة ،
فقال :

— ما هذا الدين الذى جئت به ؟
— جئت بالحنيفية دين إبراهيم .
— فأنا عليها .
— إنك لست عليها .
— بلى ، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها .
— ما فعلتُ ولكن جئت بها بيضاء نقية .
— الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا .
— أجل فمن كذب ففعل الله تعالى به .
وجاء أبو عامر الفاسق منع قريش يوم خرجت لغزو المسلمين عند ماء بدر
وهو يرجو أن يستأصل رسول الله — ﷺ — وصحبه . إنه كان يعد قريشا

أن لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان .
فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعُبدان أهل
مكة ، فنادى :

— يا معشر الآوس أنا أبو عامر .

— فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

— لقد أصاب قومي بعدى شر .

ثم قاتلهم قتالا شديدا ثم رماهم بالحجارة ، وهزمت قريش ولم يدب اليأس
في قلب الفاسق بل راح يؤجج نار العداوة في قلوب سادات قريش ، فلما افتتح
رسول الله ﷺ — مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف بعث
إلى بعض أصحابه من الأوس فقال لهم :

— ابنوا إلى مسجدنا واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى
قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة .

وخرج أبو عامر الفاسق ، وخرج معه علقمة بن علاثة بن عوف بن
الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وكنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عمير
الثقفى ، ودخلوا على هرقل ملك الروم وراحوا يزينون له غزو محمد قبل أن
يستفحل أمره وقبل أن يسير إلى الشام يفتحها كما فتح مكة .

وراح حزام بن خالد وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن
الأرعد وعباد بن حنيفة وحارثة وجارية وابناه مجمع وزيد ونيتل بن حارث
ولحداد بن عثمان ووديعة بن ثابت يبنون مسجدا إلى جوار مسجد قباء ، فلما
فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ — فقالوا :

— إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا
نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

كان رسول الله ﷺ — يتجهز لغزوة تبوك فقال لهم :
— إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم
فصلينا لكم فيه .

وانطلق عليه السلام إلى تبوك وقال الذين بنوا المسجد تنفيذا لأوامر أبي
عامر الفاسق مستهزئين بمسجد قباء :
— نصلي في مربط حمار ! لا لعمر الله .

كانت أرض مسجد قباء لامرأة كانت تربط فيه حمارها ، فراحوا
يسخرون . فلما بنى مسجد ضرار صرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا
بذلك المسجد ، فكان به تفريق للمؤمنين فكان المنافقون يجتمعون فيه ويعيبون
النبي ﷺ — يستهزئون به .

وانقضت أيام تبوك وأقبل رسول الله ﷺ — حتى نزل بذي أروان ،
محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، فجاءه الذين بنوا مسجد ضرار وطلبوا
منه أن يأتيهم ليصلي فيه . فدعا بمقيصه ليلبسه فيأتيهم فأوحى إليه : « والذين
اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله
ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون .
لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه
رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من
الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هار فانهار به في نار جهنم
والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن
تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » (١) .

— ٤٣ —

فدعا رسول الله ﷺ — مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن
يسكر والوحشى قاتل حمزة وقال لهم :
— انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه .
فخرجوا ، وانطلق مالك وأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم دخلوا
المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله .
كان ذلك بين المغرب والعشاء ، فلما حان أوان صلاة العشاء ارتفع صوت
المؤذن من مسجد قباء ، فذهب الناس إلى المسجد الذى أسس على التقوى
وصلوا فيه خلف رسول الله ﷺ .
ومات أبو عامر الفاسق فى الشام فاختصم فى ميراثه إلى قيصر علقمة بن
علائة وكنانة بن عبد ياليل ، فقال قيصر :
— يرث أهل المدر أهل المدر .
فورثه كنانة بن عبد ياليل بالمدر دون علقمة .
وأما الله الكاذب طريدا غريبا وحيدا .

٧

الرجال والولدان في الطرقات ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ ، والنساء على أسطح الدور وفرح القلوب قد انعكس على الوجوه . ولاح النقع في الأفق فارتفعت هتافات الترحيب وانطلقت من الحناجر أهالي النصارى المبيين ، فجيوش الروم قد تقهقرت إلى الشام وآثرت الفرار على أن تلقى محمداً ﷺ — وجنده من المؤمنين .

وتقدم رسول الله ﷺ — وقد أطرق رأسه خضوعاً لله رب العالمين ، فما إن لمح الناس حتى هرعوا إليه يسلمون عليه فكان يرد تحياتهم في ترحيب ، وخف الأطفال يتعلقون بركابه بل ركب بعضهم أمامه وخلفه ، ولا غرو فهو أبو هذه المدينة التي أحبها وأحبته .

ومد عليه السلام بصره إلى المدينة فقال :

— هذه طابة أسكننيها ربي ، تنفى خبث أهلها كما ينفى الكبر خبث الحديد .
ولما رأى جبل أحد قال :

— هذا أحد جبل يحبنا ونحبه .

كان صاحب قلب كبير وسع الناس ووسع كل ما وقعت عليه عيناه من خلق الله .

واستمر رسول الله ﷺ — في سيره والناس من حوله يهللون حتى بلغ المسجد فنزل عن راحلته ، وصلى في مسجده ركعتين بعد أن عانق على بن أبي

طالب الذى تركه فى المدينة وأصر على بقاءه بها لما عاد عبد الله بن أبى بن سلول بأصحابه وأبى الخروج إلى تبوك ، فلم يكن من الحكمة أن يترك ابن أبى وحده ليفسد الناس فى غيبة رسول الله ﷺ .

ودخل رسول الله ﷺ — بيت فاطمة وألقى السلام على الزهراء والحسن والحسين وقبل أمانة بنت زينب الحبيبة ، ثم راح يدور على نسائه . وجلس رسول الله ﷺ — فى مسجده فجاءه رهط من المنافقين وجعلوا يحلفون ويعتذرون قبل رسول الله ﷺ — منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله واستغفر لهم ، ولكن الله أنزل فيهم : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يغويكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » (١)

وأحس كعب بن مالك عرق الخجل يتفصد من كل جسمه . إنه ما تخلف عن رسول الله ﷺ — فى غزوة غزاها قط ، ولكنه كان قد تخلف عنه فى

غزوة بدر وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله ﷺ — إنما خرج يريد غير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد .

ولقد شهد مع رسول الله ﷺ — العقبة ودافع عنه يوم أحد دفاع المستميت ، وكان له كظله عليه السلام في غزوة الخندق ، وتأهب المسلمون لغزوة تبوك ولم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه في تلك الغزوة ، وما اجتمعت له راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة .

وكان رسول الله ﷺ — قلما يريد غزوة يغزوها الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة . فغزاها رسول الله ﷺ — في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا واستقبل غزو عدد كثير ؛ فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبطه وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ — كثير لا يدونهم حافظ فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحى من الله .

وغزا رسول الله ﷺ — تلك الغزوة حين طابت الثمار وأحبت الظلال ، فتجهز رسول الله ﷺ — وتجهز المسلمون معه ، وجعل كعب بن مالك يغدو ليتجهز معهم فيرجع ولم يقض حاجة فيقول في نفسه : أنا قادر على ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتأدى به حتى شمر بالناس الجند ، فأصبح رسول الله ﷺ — غاديا والمسلمون معه ولم يقض كعب من جهازه شيئا فقال : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فعدا بعد أن فصلوا ليتجهز فرجع ولم يقض شيئا ، ثم غدا فرجع فلم يقض شيئا ، فلم يزل يتأدى به حتى أسرعوا . وتفطر^(١) الغزو فهم أن يرتحل فيدركهم — وليته فعل — فلم يفعل ، وجعل إذا خرج في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ — فطاف فيهم يحزنه

(١) تفطر الغزو : أى فات وسبق .

أنه لا يرى إلا رجلا مطعوناً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .
ولم يذكره رسول الله ﷺ — حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في
القوم بتبوك :

— ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بني سلمة :

— يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه .

فقال معاذ بن جبل :

— بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً .

فسكت رسول الله ﷺ .

وبلغ كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ — قد توجه قافلاً من تبوك ،
فحضره حزنه فجعل يتذكر الكذب ويقول :

— بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ — غدا ؟

وزاح يستعين على ذلك كل ذي رأى من أهله ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ —
قد أشرف قادماً ذهب عن كعب الباطل وعرف أنه لا ينجو منه
إلا بالصدق ، فأجمع أن يصدقه .

وقدم رسول الله ﷺ — وجلس للناس ، فلما فعل ذلك جاء المخلفون
فجعلوا يحلفون له ويعتذرون وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم علانيتهم
وأيامهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وجاء كعب بن مالك فسلم عليه ، فتبسم رسول الله ﷺ — تبسم
المغضب ثم قال له :

— تعاله .

فجاءه يمشى حتى جلس بين يديه فقال له :

— ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟
 — إني يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى
 سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لمن
 حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عني وليوشكن الله أن يسخطك على ،
 ومن حدثتك حديثا صدقا تجد على فيه إني لأرجو عقباى من الله فيه ،
 ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت
 عنك .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك .
 فقام وسار معه رجال من بنى سلمة فاتبعوه فقالوا له :
 — والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون
 اعتذرت إلى رسول الله — ﷺ — بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك
 ذنبك استغفار رسول الله — ﷺ — لك .
 فوالله ما زالوا به حتى أراد أن يرجع إلى رسول الله — ﷺ — فيكذب
 نفسه . ثم قال لهم :

— هل لقى هذا أحد غيرى ؟

— نعم . رجلان قالوا مثل مقالتك وقيل لهما مثل ما قيل لك .

— من هما ؟

— مرارة بن الربيع العمرى من بنى عمرو بن العوف ، وهلال بن أبى أمية
 الواقفى .

ذكروا له رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصمت حين ذكروهما له . وقال
 رسول الله — ﷺ — لأصحابه : .

— لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم .
 فأعرض عنهم رسول الله — ﷺ . إنه حرمان عام وألم ممض وعذاب
 نفسى فقد حرمت على الثلاثة الراحة النفسية ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم
 حتى تنكرت لهم أنفسهم والأرض فما هى بالأرض التى كانوا يعرفونها .
 خمسون ليلة مضت والرجال الثلاثة يقاسون الإعراض ، فاستكان مرارة
 ابن الربيع وهلال بن أبى أمية وقعدا فى بيوتهما ، وأما كعب بن مالك فكان
 أشب القوم وأجلدهم فكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف
 بالأسواق ولا يكلمه أحد ، ويأتى رسول الله — ﷺ — فيسلم عليه وهو فى
 مجلسه بعد الصلاة ، فيقول كعب فى نفسه :

— هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟
 ثم يصلى قريبا منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل كعب على صلاته نظر إليه وإذا
 التفت نحوه أعرض عنه ، حتى إذا طال ذلك عليه من جفوة المسلمين مشى
 حتى تسور جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمه وأحب الناس عليه فسلم عليه
 فوالله ما رد عليه السلام فقال :

— يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟
 فسكت . فعاد فنأشده فسكت عنه . فعاد فنأشده فسكت عنه . فعاد
 فنأشده فقال :

— الله ورسوله أعلم .
 ففاضت عينا كعب بن مالك ووثب فتسور الحائط ثم غدا إلى السوق ،
 فبينا هو يمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنه من نبط الشام ممن قدم بالقمح يبيعه
 بالمدينة يقول :

— من يدل على كعب بن مالك ؟

(غزوة تبوك)

— ٥٠ —

فجعل الناس يشيرون له إليه حتى جاءه فدفع إليه كتابا من ملك غسان فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نؤاسيك » .
قال كعب حين قرأها :

— وهذا من البلاء أيضا . قد بلغني ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك .

فعمد كعب بالكتاب إلى تنور فأحرقه ، فأقام الرجال الثلاثة على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتي كعبا فقال :

— إن رسول الله — ﷺ — يأمرك أن تعتزل امرأتك .
— أطلقها أم ماذا ؟

— لا ، بل تعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبيه بمثل ذلك ، فقال كعب لامرأته :

— الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما هو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله — ﷺ — فقالت :

— يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟

— لا ، ولكن لا يقربك .

— والله يا رسول الله ما به من حركة إلّى ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا وقد تخوفت على بصره .
فقال لكعب بعض أهله :

— لو استأذنت رسول الله لأمراً لك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

— والله ما استأذنه فيها ، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ — لى فى ذلك إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثوا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لهم خمسون ليلة من حين نهي رسول الله ﷺ — المسلمين عن كلامهم ، ثم صلى كعب الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتهم قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه ، وقد كان ابنتى خيمة فى ظهر سلع فكان يكون فيها ، إذ سمع صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته :
— يا كعب بن مالك أبشر .

فخر كعب ساجدا وعرف أن قد جاء الفرج .
أذن رسول الله ﷺ — الناس بتوبة الله على الثلاثة حين صلى الفجر ، فذهب الناس يشرونهم ورخص رجل إليه فرسا وسعى ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءه الذى سمع صوته يشره نزع ثوبيه فكساهما إياه بشارة والله ما يملك يومئذ غيرهما ، وانطلق أناس نحو صاحبيه مبشرين .

واستعار كعب ثوبين فلبسهما ، ثم انطلق يتيمم رسول الله ﷺ — ، وتلقاه الناس يشرونه بالتوبة يقولون :
— ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخل المسجد ورسول الله ﷺ — جالس وحوله الناس ، فقام إليه طلحة بن عبيد الله فحياه وهناه ، والله ما قام رجل إليه من المهاجرين غيره ، فلما سلم على رسول الله ﷺ — قال له ووجهه يبرق من السرور :

— أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .
 — أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟
 كان رسول الله إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، قال وقد أشرق وجهه :
 — بل من عند الله .
 فلما جلس كعب بين يديه وقد غمره البشر قال :
 — يا رسول الله إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .
 — أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .
 — إني ممسك بسهمى الذى بخير ... يا رسول الله . إن الله قد نجاني بالصدق وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت .
 وأنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿ (١) .
 وكان عويمر العجلاني مع رسول الله ﷺ — في غزوة تبوك ، فلما عاد إلى داره وجد امرأته خولة بنت عمه قيس حبلى وإنه ما قربها منذ أربعة أشهر .
 فأتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان فقال :
 — كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا أيقنته فيقتلونه أم كيف

(١) التوبة ١١٧ ، ١١٨ .

يصنع ؟ سل لي رسول الله ﷺ .

فأتى عاصم النبي ﷺ — فسأله ، فكره النبي عليه السلام تلك المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ — ، فسأله عويمر فقال له عاصم :

— لم تأتني بخبر .

وراح الغيظ ينهش صدر عويمر فقال :

— والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ — عن ذلك .

فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال :

— يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا إن تكلم جلدتموه وإن قتله قتلتموه أو سكت سكت على غيظ .

وقذف زوجه بشريك بن سحماء ابن عمه وقال :

— وجدته على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر .

— اتق الله في زوجتك وابنة عمك ، فلا تقذفها بالبهتان .

— يا رسول الله أقسم بالله إني رأيت شريكا على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر .

ودعا — ﷺ — بالمرأة وقال لها :

— اتقى الله ولا تخبريني إلا بما صنعت .

— يا رسول الله إن عويمر رجل غيور ، وإنه يأتي وشريكا يطيل السهر

ويتحدث . حملته الغيرة على أن قال ما قال .

فدعا عليه السلام شريكا وقال له :

— ما تقول ؟

— يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم افتح .

وجعل يدعو فأُنزل الله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾ (١) .

فأمر رسول الله — ﷺ — أن ينادى الصلاة جامعة ، فلما صلى العصر واجتمع الناس قال — ﷺ — لعويمر :

— قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا ، فاذهب فأت بها .

وجاء عويمر وخولة وبدأ اللعان فقال عويمر :

— أشهد بالله أن خولة زانية وإني لمن الصادقين ... أشهد بالله أني رأيت شريكا على بطنها وإني لمن الصادقين ... أشهد بالله أنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين ... أشهد بالله أني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ... لعنة الله على عويمر إن كان من الكاذبين .

ثم أمره بالقعود وقال لخولة :

— قومي .

فقامت فقالت :

— أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمر لمن الكاذبين .. أشهد بالله ما رأيت شريكا على بطني وإنه لمن الكاذبين .. أشهد بالله إني لحبلى منه وإنه لمن

— ٥٥ —

الكاذبين .. أشهد بالله أنه ما رآنى قط فى فاحشة وإنه لمن الكاذبين .
وتلكأت ونكصت وتفصد العرق منها وزاغت عيناها حتى ظن أنها
ترجع ، فقد تذكرت أنه — ﷺ — قال لها إن اللعنة موجبة للعذاب فى
الآخرة وعذاب الدنيا أهون ، ثم خطر لها أنها ستفضح قومها سائر الأيام فقالت
وهى تكاد أن تنهار :

— إن غضب الله على خولة إن كان من الصادقين ..
ففرق رسول الله — ﷺ — بينهما ، قال له :
— لا سبيل لك عليها .

ووضعت خولة غلاما كان بضعة من شريك ، فقال — ﷺ :
— لولا ما سبق فى كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن .

٨

أذن بلال فانسكب صوته في آذان المسلمين ، كأنه السحر ففتحت أبواب الدور وخرج الناس في عماية الصبح إلى مسجد الرسول . وألقى عثمان بن عفان نظرة إشفاق على زوجه أم كلثوم ثم هبط ليصلي الفجر خلف رسول الله ﷺ . — عليه

كانت أم كلثوم ذابلة اللون قد نال منها الوهن فتمددت في فراشها تصيخ السمع ، فصوت بلال يداعب أذنيها ويوقظ روحها فتحاول أن تنهض لكن الجسد ضعيف لا يقوى على النهوض ، وبلغ مسامعها تكبير المصلين فاغرورقت عينها بالدموع وشرذ خيالها ليعيد إلى ذهنها الماضي البعيد . إنها ترى دارهم في مكة والطاهرة سيدة نساء قريش حاضنة الإسلام تداعبها في عطف شديد . وملأت صفحة رأسها صورة خديجة فرقت رقة جعلت عبراتها تسيل على خديها ، وداعب خيالها ذلك اليوم الذي حفر في أغوار نفسها : رأت أباه العظيم يوم أن عاد من غار حراء يرتجف وأمه تغمره بعطفها وحنانها حتى سكن روعه ، وآمنت به خديجة وصدقت بما جاءه من الله ، وشهدت هي وأخواتها شهادة الحق ، إنما لتذكر أول يوم نمن فيه وقد أشرقت أفئدتهم بنور اليقين ، إنهن لم تغمض لهن عين من شدة الانفعال وإن أم أيمن كانت تسألن عن ذلك الحدث العظيم فكان يهمسن لها بما سمعن من رسول الله — صلوات الله عليه — وخديجة أم المؤمنين .

أم أيمن ! لقد استشهد زوجها زيد في مؤتة واحتضن رسول الله ﷺ —
ابنهما أسامة . إنه حب رسول الله عليه السلام . وتذكرت أم كلثوم أنها لم
تعقب وأن عثمان يشتهي أن يكون له نسل من النبي ، فأختها رقية وضعت في
دار الهجرة طفلها عبد الله بن عثمان ولكن عبد الله مات طفلاً بنقرة من ديك
فملاً جوانحها أسي ، فهي تحس أن روحها تكاد أن تفارق جسدها ولم تنجب
لعثمان ما يربط الأسباب بينه وبين نبيه الحبيب .

وطوى خيالها السنين فعادت إلى تلك الأيام التي كان أبوها عليه السلام
يدعو الناس فيها سرا إلى دين الله . إنها ترى في وضوح أبا بكر الصديق وقد جاء
إلى دارهم ومعه عثمان بن عفان ، لقد خفقت أفئدة كل من في الدار سرورا ،
وداعب خيالها في ذلك اليوم أمنية أن يأتي أبو هب إلى أبيها لينطق شهادة الحق
فأختها رقية تحت عتبة بن أبي هب ، وهي ترقب زفافها إلى أخيه عتيبة ، ولكن
العداوة اشتدت بين أبيها وبين عمه أبي هب ، وقد أجمعتها أم جميل حمالة
الخطب وقالت لولديها :

— رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد .
ولم يستطع أعداء الدين الجديد أن يقفوا في سبيله ، فرأوا أن يشغلوا أباها
ببناته فقالوا :

— إنكم قد فرغتم محمدا من هم ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن .
فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع فقالوا له :
— فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت .
كان أبو العاص يحب زينب ، إنه لا يطيق فراق ابنة الخالة وإنه إذا بعد عنها
راح يقرض الشعر يشكو بعادها ، فقال :
— لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

ومشوا إلى عتبة بن أبى لهب فقالوا له :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت .

— إن زوجتموني بنت إبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص

فارقتها .

وزوجوه بنت سعيد بن العاص وإن أم كلثوم لترى أختها رقية وقد عادت

إلى دار أبيها حزينة ، وإنها لترى أمها خديجة وقد استقبلتها بين أحضانها .

وتذكرت عتية فغامت صفحة وجهها بسحابة كدر ، فلم يكتف عتية

بأن طلقها بل ذهب إلى أبيها وأهانته على الملائكة فدعا عليه النبي — ﷺ — أن

يسلط الله عليه كلبا من كلابه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه وهم نيام

حوله .

إن عتية ومعتب ابني أبى لهب أسلما يوم فتح مكة ؛ جاء بهما العباس إلى

أبيها فشهدا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فقيم كانت عداوة السنين

وكفاح الحق ؟ إنها إرادة الله ولا راد لما يشئته فقد أنزل سبحانه وتعالى : ﴿ تبت

يدا أبى لهب وتب ﴾ * ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ سيصلى نارا ذات لهب *
وامراته حمالة الحطب ﴾ فى جيدها حبل من مسد ﴾ (١) . كتب الله على أبى

لهب الشقاء فما كان له أن يسلم وجهه لله ، وقد مات على الكفر ليصلى النار

الكبرى التى لا يموت فيها ولا يحيى .

وظفت على ذهنها ذكريات زواج عثمان من رقية . لقد تهللت خديجة

بالفرح لذلك الزواج ولكن الكفار أبوا أن يعرف ذلك الزواج الاستقرار ،

فالحكم عم عثمان أذاقه من العذاب ألوانا حتى هاجر عثمان ورقية بدينهما إلى

الحبيشة .

ورأت نفسها فى شعب أبى طالب تقاسى مع أمها الحبيبة وأختها فاطمة الزهراء أهوال الحصار . إنها كانت تتلوى من الجوع وكانت ترى الأسى المرتسم على وجه أبيها الحبيب فتربو آلام نفسها على آلام الجوع ، وانقضت سنوات المقاطعة الثلاث وقد خلفت فى النفوس والأجسام آثارا ، فقد لحق بأما الحبيبة البوار فماتت بعد أن عادت إلى بيتها فى مكة .

وأخفت أم كلثوم وجهها براحتها : إنها لا تتحمل رؤية خديجة أم المؤمنين وهى تجود بأنفاسها ، فأبوها النبى القوى لم يحمّل أن يحضر موتها ، إنها كانت تناديه وهو واقف بباب حجرتها لا يجرؤ على الدخول فدموعه تغلبه وقلبه يتمزق من الأسى .

ورأت الدار من بعدها موحشة خلاء وإن كانت هى والزهراء وأم أئمن يذهبن ويبحثن فى أرجائها . إنها دار بلا روح ، سراج بلا زيت ، قلب بلا حب . وزاد فى وطأة الأحزان أن رسول الله ﷺ — كان يدخل الدار شاردا يتلفت فى أرجائها لكأنما يبحث عن وزيره الذى مضى .

وتقلبت أم كلثوم فى فراشها وندت من بين شفيتها آهة خافتة كأنما كانت ذوب نفسها ، وأسبلت جفניה على عينيها من الضعف ولكن الصور ظلت تترادف على خيالها ، فرأت رقية وقد رقت روحها على شفيتها وهتافات النصر يوم بدر تدوى فى الخارج ، إنها انزوت فى ركن تسح الدموع بينا أكتبت الزهراء على مضجع أختها تبكى ، وإنها ل ترى أباهما الشاكر يدخل الغرفة وفى وجهه آيات الحزن ، ويذهب إلى الزهراء ويرفعها من فوق أختها بمسح دموعها بطرف ثوبه .

ورأت « أم عياش » خادما النبى تدعوها للقاء أبيها عليه السلام ، وترى

نفسها تذهب إلى النبي الكريم . إنه يخبرها أنه سيزوجها عثمان بن عفان . وصمتت وكان السكوت علامة الرضا ، فزوجها من عثمان على مثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها .

وانتقلت من بيت أبيها الملاصق للمسجد إلى بيت عثمان على بعد خطوات من مسجد الرسول ، إنها تسمع أذان بلال وابن أم مكتوم . وكثيرا ما كان يأتي لزيارتها الحسن والحسين وأمهما الزهراء ورسول الله — ﷺ وهو يحمل على ذراعه أمانة بنت زينب ، ويمشى بين يديه على بن أبي العاص بن الربيع ، فقد كانت زينب تشكو النزيف الذي كان يعاودها منذ نخس هبار بن الأسود بغيرها وهي في طريقها من مكة إلى المدينة فآلقاها على أديم الصحراء فأسقطت وأهرقت الدماء .

ورأت نفسها وقد خرجت مع زوجها عثمان لما خرج رسول الله — ﷺ — بمن معه من المهاجرين والأنصار يريدون العمرة . إنها لتذكر ما قال عليه السلام لسفراء قريش الذين جاءوا يسألونه ما الذي جاء به . إنه قال : إنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت .

دعا أبوها عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به ، فقال :

— يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعي ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتى عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان .

وجاهدت أم كلثوم لتفتح عينها ولكن جفنها ظلا مسبلتين ، وكانت ترى الأحداث بعين بصيرتها . إنها ودعت زوجها في ذلك اليوم وداعا حارا وابتهمت إلى الله من أعماقها أن يحفظه ، وباتت قلقة أرقه وإذا في معسكر

المسلمين زئير وزججرة وغضب . وألقت سمعها إلى الأصوات الغاضبة فبلغ أذنيها أن عثمان قد قتل .

أنهارت كما ينهار الجدار وأحست ناراً تشوى كبدها ، وذاعت مرارة الترميل وحر المصيبة فما كان في القوم مثل عثمان الرجل الذى تستحى منه ملائكة السماء ، وبكت ولم يرقأ لها دمع ، وسمعت أباهاً وهو يقول حين بلغه أن عثمان قد قتل :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

فثارت الدموع حارة في عروقها وودت لو تستطيع أن تخرج من خبائها لتبايع رسول الله تحت الشجرة على الموت ، ولكن البيعة كانت للرجال . وأتى رسول الله — ﷺ — أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل ، فدخل البشير عليها يزف إليها البشرى فاستشعرت راحة وإن ظل قلبها يخفق في شدة ، ووقفت بباب خيمتها تنتظر أوبة رجلها .

وأتى عثمان واستقبله النبى — ﷺ — بالترحاب ، وراح المسلمون يسألونه عما كان من قریش وهى ترنو إليه من بعيد فى حب عميق ترجو أن يطير إليها ليريح قلبها الولهان ، فهى تحبه بكل عواطفها .

ولم تستطع أم كلثوم أن تطلق عنان خيالها للذكريات البهيجة . إنها تلتقط أنفاسها من ثقب أبرة وذكريات الموت تلح عليها . إنها ترى زينب وقد لفظت آخر أنفاسها ورسول الله — ﷺ — يذرف الدمع وهو صامت ، ثم يدور على عقبه ويغادر غرفتها مطرقاً .

وأجهشت أم كلثوم بالبكاء . جاهدت ضعفها لتذرف آخر دمعة لا جزعاً من الموت فقد كانت على يقين من أنها على الحق المبين ، بل إشفاقاً على أبيها حليف الأحزان الذى كان يقبر فلذات كبده فلذة بعد فلذة .

ودخلت عليها أم عياش فألقتها في النزع الأخير ، فأرسلت إلى الرجال في المسجد فأسرع عثمان إلى داره فإذا بأم كلثوم تعالج سكرات الموت ، فراح ذو النورين يناديها في وجد وهو مشفق عليها وعلى نفسه . كان يفزع أنه ينقطع بموتها نسبه برسول الله — ﷺ .

وجاء رسول الله — ﷺ — وأبو بكر الصديق وعمر وعلى وبعض الأنصار . ودخل عليه السلام على ابنته وهي تلتقط آخر أنفاسها فدمعت عيناه ولم يتحرك لسانه بما يغضب الرب ، فقد كان للبشرية أسوة حسنة .

وجاءت أسماء بنت عميس وكانت زوجة جعفر بن أبي طالب ، فلما استشهد جعفر في مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق . وجاءت صفية بنت عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار . وغسلتها أسماء وصفية وأم عطية وقال هن الرسول :

— اغسلنها وترا ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك .

وأعطاهن إزاره لتكفن فيه ، وحمل جثمان أم كلثوم إلى المسجد فأجهشت نساء الرسول بالبكاء ، وبكت الزهراء على أختها الغالية . وصلى رسول الله — ﷺ — على ابنته ومن خلفه أصحابه يغالبون دموعهم .

وانطلقت الجنازة إلى البقيع ووضعت أم كلثوم في قبرها . ونزل في حفرتها على بن أبي طالب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد . وأراد أناس أن ينزلوا معهم فقال — ﷺ : :

— لا ينزل في قبرها أحد قارف أهله الليلة . أفياكم أحد لم يقارف أهله الليلة ؟

فقال أبو طلحة :

— ٦٣ —

— أنا يا رسول الله .

— انزل .

وقبرت أم كلثوم وعثمان بن عفان غارق في حزنه تجرى دموعه على خديه ،
وعاد الناس من البقيع وقد غشيهم حزن عميق ، ورأى رسول الله ﷺ —
عثمان بن عفان وهو يسير مطرقا وفي وجهه وله ، فدنا منه وقال :
— لو كانت عندنا ثلاثة لزوجناكها يا عثمان .

قدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف فأعاد إلى الناس الذكريات عن عروة بن مسعود الثقفي سيد بنى ثقيف وزعيم الطائف الذى كان يحسب أن ثقيفا لا ترد له طلبا .

إن رسول الله ﷺ حاصر الطائف وكان عروة غائبا عنها ، كان يتدرب على استعمال المنجنيق فى أرض غير أرضه . فلما انصرف عليه السلام عن الطائف عاد عروة إلى أهله وألقى إليهم سمعه ، فإذا به يحس أنوار اليقين تملأ فؤاده فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم . وسأل رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ﷺ : — إنهم قاتلك .

— يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم .

كان عروة فيهم محببا مطاعا ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم . فلما أشرف لهم على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : — ما ترى فى دمك ؟

قال فى صوت واه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة :

— كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فئى إلا ما فى

الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفونى معهم .

فدفنوه معهم ، وقال رسول الله ﷺ :

— إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه .

وقدم أبو مليح بن عروة وقارب بن سواد على رسول الله ﷺ — حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعهم على شيء أبدا ، فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ :

— توليا من شئتما .

فقالا :

— نتولى الله ورسوله .

وكان أبو سفيان بن حرب خالهما ، وكان ﷺ — خبيرا بالنفوس . إنه يعلم أن أبا سفيان بن حرب يحب الفخر وأن يكون له من الأمر شيء ، فقال لهما :

— وخالكما أبا سفيان بن حرب .

فقالا :

— وخالنا أبا سفيان بن حرب .

وأصبح وليهما الله ورسوله وأبا سفيان بن حرب .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً تفكر في الإسلام الذي انتشر في مكة وفي ربوع أرض العرب ، فساور القلق زعماءهم وساداتهم وراحوا يقلبوا الرأي في ردوسهم وما كان ذلك كافيا ، فعزموا على أن يتشاوروا بينهم ليستقروا على أمر .

وكان عمرو بن أمية أخو بني علاج مهاجرا العبد ياليل بن عمرو لشيء كان (غزوة تبوك)

بينهما ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه إن عمرو بن أمية يقول لك اخرج إني ، فقال عبد ياليل للرسول :

— ويلك ! أعمرو أرسلك إني ؟

— نعم وها هو ذا واقفا في دارك .

— إن هذا الشيء ما كنت أظنه ، لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك .

فخرج إليه فلما رآه رحب به ، فقال له عمرو :

— إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل

ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحرهم طاقة فانظروا في أمركم .

واجتمع سادات ثقيف يديرون قدام الرأي بينهم ، وقال بعضهم لبعض :

— أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب^(١) ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ؟

فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ — رجلا كما أرسلوا

عروة ، فكلما عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان من سن عروة بن مسعود

وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع

بعروة . فقال :

— لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجلا .

فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك فيكونوا

سنة ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن

غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بني مالك عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد

(١) السرب : المال الراعى وهو أيضا الطريق والنفس .

دهمان أخا بنى يسار ، وأوس بن عوف أخا بنى سالم بن عوف ، وتُمير بن خُرْشَة بن ربيعة أخا بنى الحارث . فخرج بهم عبد ياليل وهو سيد القوم وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه .

فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة أَلَفُوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله — ﷺ ، وكانت رِعيتها نَوْبًا على أصحابه — ﷺ . فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفين ووثب يشتد ليشتر رسول الله — ﷺ . فقدمهم عليه . ولقى أبو بكر الصديق المغيرة بن شعبة قبل أن يدخل على رسول الله — ﷺ . فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم رسول الله — ﷺ — شروطا ويكتبوا من رسول الله — ﷺ — كتابا في قومهم وبلادهم ، فقال أبو بكر للمغيرة : — أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله — ﷺ — حتى أكون أنا أحدثه .

فدخل أبو بكر على رسول الله — ﷺ — فأخبره بقدومهم عليه . ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فهو ثقفى وإن إسلام ثقيف لأحب إليه من حمر النعم فراح يعاونهم على إنزال ما معهم عن ظهور الإبل ويعلمهم كيف يحيون رسول الله — ﷺ — فأبوا إلا أن يحويه — ﷺ — بتحية الجاهلية .

وضرب عليه السلام عليهم قبة في ناحية مسجده ، وراح خالد بن سعيد ابن العاص يمشى بينهم وبين رسول الله — ﷺ — فلم يأتوا ليعنوا على الملا إسلامهم دون قيد أو شرط بل كانت لهم شروط وما كان رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — ليقبلها .

كان الطعام يأتيهم من عند رسول الله — ﷺ — فكانوا لا يطعمون حتى

يأكل منه خالد ، فقد كانوا يخشون الغدر وما كانوا على صواب فإنهم وإن كانوا لم يعلنوا إسلامهم بعد ، فهم عند أحلم الناس وأوفى الناس وأصدق الناس .

سألوا رسول الله ﷺ — أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ — ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة فسنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى .

كانوا يرتجفون فرقا من سفهائهم ونسائهم وذرائعهم ويكرهون أن يروعا قومهم يهدمها حتى يدخلهم الإسلام . أتصبح اللات في غمضة عين أثرا بعد عين وقد كان العرب قبل مبعث محمد — صلوات الله وسلامه عليه — يقسمون بها ويقدمونها على كل الآلهة ؟ ! إنهم فزعوا يوم جاء أبرهة ليهدمها وأرسلوا معه من يقوده إلى الحرم لينقذوا إلهتهم الحبيبة ، فضحوا ببيت الله الحرام في سبيل بقائها ، أيترون أصحاب محمد يدكونها على أعين الناس ؟ وكثرت المشاورات والتقت الأفواه الآذان واشتد الجدل وراح المغيرة بن شعبة يؤكد لهم أن اللات إن هي إلا صخرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، وأن لا فرق بينها وبين العزى ومناة وقد أصبحتا كأمس الدابر ، إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبأؤكم ، واستمر خالد بن سعيد يغدو بينهم وبين رسول الله ﷺ — فأبى رسول الله ﷺ — عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها .

وسأله عليه السلام أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ — :

— أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير في

دين لا صلاة فيه .

فقالوا :

— يا محمد فسئوئيكها وإن كانت دناءة .

كانوا في ناحية المسجد فكانوا يسمعون القرآن ويرون الناس إذا صلوا ، وكانوا يغدون إلى رسول الله ﷺ — كل يوم ويخلفون عثمان بن أبي العاص عند أسباجهم . كان عثمان يلقي سمعه إلى القرآن فيحس أنوار اليقين تنير فؤاده وكان يمد عينيه إلى المصلين فتهفو نفسه إلى أن يقف معهم خلف الرسول الأمين . فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبي ﷺ — يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، وإذا وجد النبي ﷺ — نائما ذهب إلى أبي بكر الصديق . وكان يكتم ذلك عن أصحابه فأعجب ذلك رسول الله ﷺ — فأحبه ، وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ — وهو يحدثه عن عثمان بن أبي العاص :

— يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن .

واجتمع رسول الله ﷺ — ووفد ثقيف ، وجلس خالد بن سعيد بن العاص ليكتب ورسول الله عليه السلام يلى عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين : إن عِضاه وج^(١) وصيد حرام لا يعضد ، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي . محمد رسول الله) .

وصاموا مع رسول الله ﷺ — ما بقى من رمضان فكان بلال يأتهم

(١) عضاه : جمع عضاهة وهي الشجرة العظيمة ، ووج : موضع ناحية الطائف .

— ٧٠ —

بفطورهم وسحورهم من عند رسول الله — ﷺ ، حتى إذا ما تأهبوا
للانصراف قالوا :

— يا رسول الله أمر علينا رجلا يؤمننا .

فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص .

كان عثمان من أحدثهم سنا ولكنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام
وتعلم القرآن . وقد أهله ذلك لأن يكون إماما لقومه ، فالإسلام لا ينظر إلى
السن ولا إلى لون البشرة ولا إلى القرابة فلا فضل لأحد فيه على أحد
إلا بالتقوى .

وجاء رسول الله — ﷺ — ليودع وفد ثقيف وليبعث أبا سفيان بن
حرب والمغيرة بن شعبة في هدم اللات ، فتقدم أبو مليح بن عروة يسأل رسول
الله — ﷺ — أن يقضى عن أبيه عروة بن مسعود ديننا كان عليه من مال
اللات . فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم .

وشجع ذلك قارب بن الأسود أن يسأل رسول الله — ﷺ — أن يقضى
دين الأسود من مال اللات كما قضى دين عروة ، وقد كان عروة والأسود
أخوين لأب وأم ، فقال قارب لرسول الله — ﷺ — :

— وعن الأسود يا رسول الله فاقضه .

— الأسود مات مشركا .

فقال قارب :

— يا رسول الله لكن يصل مسلما ذا قرابة ، إنما الدين على وأنا الذى
أطلب به .

فأمر رسول الله — ﷺ — أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من

مال الطاغية ، وراح — ﷺ — يوصي عثمان بن أبي العاص ويقول :
— يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير
والصغير والضعيف وذا الحاجة .

وتوجه وفد ثقيف إلى بلادهم راجعين وفيهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة
ابن شعبة ، فرسول الله — ﷺ — ما بعثهم إلا لأن لهم صلة بالقوم ؛
فأبو سفيان خال بني عروة بن مسعود والمغيرة من القوم ، فإذا أراد السفهاء
أن يتحرشوا بهما فسيجدان من يمنعهما . وعادت المخاوف تؤرق الوفد فلن
يقبل السفهاء والنساء والذراري هدم اللات وهم ينظرون ، فقال قائل منهم :
— أنا أعلمكم بثقيف . اكنموا لإسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال
وأخبروهم أن محمداً — ﷺ — سألنا أمورا عظيمة أبينها عليه . سألنا أن
نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .

فلما جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا :

— يجئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف وذان له الناس وعرض علينا
أمورا شدادا ، أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .

— والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبدا .

— أصلحو السلاح وتهيئوا للقتال ورموا حصنكم .

فمكثت ثقيف يومين تتهبأ للقتال وترميم الحصون ، ثم ألقى الله الرعب في
قلوبهم فقالوا :

— والله ما لنا من طاقة فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل .

— لقد أجبناه وأسلمنا .

— لم كنتمونا ؟

— أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان .

وأراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان لهدم اللات فأبى ذلك أبو سفيان عليه
وقال :

— ادخل أنت على قومك .

فتقدم المغيرة بن شعبه وحوله قومه خشية أن يرمى كما رمى عروة ، وخرج
نساء ثقيف حسرا مكشوفات الرؤوس يبكين على الطاغية فما منهن إلا من
جاءت إليها في المسرات وفي الملمات لشكرها على ما أعطت ، أو للابتهاال إليها
لتطيل أيامها على الأرض .

وانهارت الدموع من مآقيهن وقلن :

لَبَكِينَ دُفَاعَ أَسْلَمَهَا الرُّضَاعَ

لم يحسنوا المِصَاعَ

إنهن يبكين « دُفَاع » اللات التي كانت تدافع عنهم ، فقد أسلمها اللثام
الذين لم يحسنوا الضرب بالسيوف في سبيل الربة ، وسرن والهات ينتظرن أن
تحدث معجزة تنقذ الربة بنت الله من أيدي المعتدين .

وتقدم المغيرة وكسر بابها فأحس الناس كأنما قد خلع أفئدتهم من
صدورهم ، وراح يصعد على الصنم وقد تعلقت به الأعين يرقبون ما ينزل به
من عقاب فإنه وقر في ضمائرهم أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك ، وأراد
المغيرة أن يسخر من ثقيف فقال لأصحابه :

— لأضحكنكم من ثقيف .

فألقي نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها ، فصاح الذين لم يشرق الإسلام
في صدورهم في فرح :

— أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، والله لا يستطيع هدمها .

وارتج الطائف بالصياح والسرور ، وذاع الخبر وانتشر انتشار الريح وقال

الناس :

— إن اللات قد صرعت المغيرة .

وطار النبأ إلى الدور وإلى الحصون وإلى الحقول ، فجاء الناس مهطعين
يتدافعون بالمناكب وللات يهللون وأقبلوا على المغيرة يقولون :

— كيف رأيت يا مغيرة ؟ دونكها إن استطعت ، ألم تعلم أنها تهلك من
عاداها .

فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم :
— يا خبثاء والله ما قصدت إلا الهزء بكم .

— دونكها إن استطعت .

— قبحكم الله ، إنما هي لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه .
وصعد المغيرة يضر بها بالفأس فراحت تتناثر والنساء ينظرن في حيرة
ويقلن في أسف وحزن :

— واهالك . آهالك !.

وسوى المغيرة الصنم بالأرض ولكن سادن اللات أبى أن يعترف بأن
اللات إن هي إلا حجارة ، فقال ليعيد الثقة في الربة التي تزعزعت في قلوب
من كانوا مؤمنين بها قبل أن يقضى معول المغيرة على أوهامهم :

— ليغضبني الأساس فليخسفن بهم .

وراح المغيرة يهدم الأساس الذليل ، فما غضب ولا ثار ولا خسف بأعدائه
الأرض ، وأخذ مال اللات وحليها فانصرفت النسوة وقد أطرقن رعوسهن ،
فقد كن عائدات من مأتم الوهم الكبير الذى عاش عليه آبائهم لما طال عليهم
الأمَد وقست قلوبهم وعبدوا حجارة بعد أن فسد دين أبيهم إبراهيم خليل

— ٧٤ —

الرحمن .

وذهب المغيرة يحمل مال اللات وحليها إلى أبي سفيان وقال له :
— إن رسول الله — ﷺ — قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود
دينهما .

فقضى أبو سفيان دين عروة بن مسعود ودين أخيه الأسود ، ودخلت
ثقيف في دين الله فلم يكن قوم من العرب أصح إسلاماً منهم .

قال جبريل للنبي — ﷺ :

— إن النجاشي توفي فصل عليه .

وذا ع في دور النبي صلوات الله وسلامه عليه أن النجاشي قد مات فثارت في نفوس أهل البيت الذكريات ، فشردت أم سلمة بنت زاد الركب أم المؤمنين فرأت نفسها مع زوجها أي سلمة بن عبد الأسد بن هلال قد خرجا مع عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وجماعة من المسلمين قاصدين الحبشة فرارا من اضطهاد قريش .

لإنها ما كادت تستقر هناك حتى جاءت الأنباء أن أهل مكة قد أسلموا . كانت في شوق إلى العودة إلى مرتع الصبا والشباب فانطلقت هي وزوجها إلى المراكب مع المنطلقين من المسلمين إلى مكة الحبيبة الوطن الغالي الذي تهوى إليه أفئدتهم جميعا ، وراحوا يتعجلون الأيام حتى إذا ما بلغوا مرفأ مكة نزلوا إلى الأرض الحبيبة وقد خفقت قلوبهم وجدا وخفوا إلى رواحلهم وانسابوا في معبد الله ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل منهم أحد فيها إلا بجوار أو مستخفيا .

لإنها تتذكر أنها وزوجها قد دخلا في جوار أي طالب بن عبد المطلب فأم أي سلمة برة بنت عبد المطلب ، فكان على أي طالب أن يحميها كما يحمي ابن أخيه محمدا — ﷺ — وإن كانا مسلمين ، فالعصبية في قريش كانت أقوى

من الدين .

وطاف بذهنها عثمان بن مظعون ، إنه دخل بجوار من الوليد بن المغيرة فلما رأى عثمان ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ — من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد قال :

— والله إن غدوًى ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني ، لنقص كبير في نفسي .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— يا أبا عبد شمس وقت ذمتك ، لقد رددت إليك جوارك .

— لم يا بن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي .

— لا ، ولكنني أَرْضَى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره .

— فانطلق إلى المسجد فاردد عليّ جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جوارى .

— صدق ، قد وجدته وفيما كريم الجوار ، ولكنني أحببت ألا أستجير بغير

الله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان وليد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس

معهم عثمان فقال لبيد :

— ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

قال عثمان :

— صدقت .

قال لبيد :

— وكل نعيم لا محالة زائل .

— كذبت . نعيم الجنة لا يزول .

قال لبيد :

— يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم :

— إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من

قوله .

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وعظم ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه
فخضرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

— أما والله يا بن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة

منية .

— بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنني

لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

— هلم يا بن أخت إن شئت فعد إلى جوارك .

— لا .

وخطر على قلبها ما كان من أمر زوجها ، فأبو سلمة لما استجار بأبي طالب

مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له :

— يا أبا طالب لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فما لك ولصاحبنا تمنعه

منه ؟

— إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمتع ابن أختي لم أمتع ابن

أختي .

فقام أبو لهب فقال :

— يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تؤثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

— بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

إنها لتذكر أنها كانت وزوجها في أوائل المهاجرين إلى الحبشة ، وأن أبا سلمة كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ — هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، فإن قريشا آذته بعد أن قدم من الحبشة ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا ، إنه حملها على بعيره وحمل معها ابنه سلمة ثم خرج بها يقود بها بعيره ، فلما رآته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا :

— هذه نفسك غلبتنا عليها ، رأيت صاحبك هذه ؟ علام تتركك تسير بها في البلاد ؟

فتزعوا خطام البعير من يده فأخذوها منه يكاد كبدها أن ينفطر . وغضب عند ذاك بنو عبد الأسد ، رهط أوى سلمة فقالوا :

— لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابنها سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسها بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجها أبو سلمة إلى المدينة ففرق بينها وبين زوجها وبين ابنها .

سنة أو قريبا من سنة كانت تخرج فيها كل غداة فتجلس بالأبطح فما تزال تبكى حتى مر بها رجل من بنى عمها — أحد بنى المغيرة — فرأى ما بها فرحمها فقال لبنى المغيرة :

— ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لها :

— الحقى بزوجك إن شئت .

ورد بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ابنها ، فارتحلت بغيرها ثم أخذت ابنها فوضعتة في حجرها ثم خرجت تريد زوجها بالمدينة وما معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . إنه كان على الكفر وكانت بيده مفاتيح الكعبة ، وإن صوته ليرن في أذنيها الساعة لكأنما قد عاد الزمن عشر سنوات :

— إلى أين يا بنت أبي أمية ؟

— أريد زوجي بالمدينة .

— أو ما معك أحد ؟

— لا والله . إلا الله وبُنَيَّ هذا .

— والله ما لك من مترك .

إن ذلك الحديث قد حفر في أغوار نفسها ، وإنها لترى عثمان بن طلحة بعين بصيرتها وهو يأخذ بخطام البعير فينطلق معها يهوى بها ، وغمغمت :

— فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه .

إنه إذا بلغ المنزل أناخ بها ثم استأخر عنها ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرها فحط عنه ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عنها إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الروحاق قام إلى بغيرها فقدمه فرحله ثم استأخر عنها وقال :

— اركبى .

فإذا ركبت واستقرت على بغيرها أتى فأخذ بخطامه فقادها حتى ينزل بها ، فلم يزل يصنع ذلك بها حتى أقدمها المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال :

— زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله .

ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

وظلت أم سلمة تحملق في سقف حجرتها في بيت رسول الله ﷺ —
ثم قالت :

— والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ،
وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ذكريات كثيرة أثارها نبأ موت النجاشي في وجدان أم سلمة ، وفي الحجرة
المجاورة كانت أم حبيبة أم المؤمنين تعود بذكرياتها إلى أيام الحبشة . إنها تزوجت
عبيد الله بن جحش بعد أن أسلم — وكان قد دخل في النصرانية من قبل —
وقد فرت معه بدينها إلى الحبشة ، فقابل هناك الرهبان فارتد إلى النصرانية وكان
يمر بأصحاب رسول الله ﷺ — وهم هناك من أرض الحبشة فيقول :
— فقحنا وصأصأتم^(١) .

إنها ظلت على دينها ، فلما مات عبيد الله بأرض الحبشة رأت رؤيا تفتحت
لها كل آمالها ، سمعت في النوم هاتفا يهتف بها « يا أم المؤمنين » . فطار خيالها
إلى المدينة حيث كان الرسول ﷺ — ؛ إنها بشرت بأنها ستصبح ذات يوم
زوجاً لنبى الإسلام عليه السلام .

وأطرت تصيخ السمع إلى الماضى البعيد ، إنها تسمع الساعة أبرهة جارية
النجاشي وهي تزف إليها البشرى فيبدو على وجهها انفعالات البشرى لكأنما
تسمعها لأول مرة :

(١) أبصرنا وأنتم تلمسون البصر ولم تبصروا بعد . وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن
يفتح عينيه لينظر صأصأً لينظر . وقوله فقح : فتح عينيه .

— أرسل رسول الله ﷺ — إلى مولاى ليزوجه إياك ، وإن مولاى يسألك أن توكلنى من يزوجهك .

— وكلت خالد بن سعيد بن العاص .

— وخفق قلب أم حبيبة بين جنبها وشكرت الله على أن اصطفاها زوجة لنبىه ، فإنها نعمة كبرى أن تصبح أم المؤمنين ، وعادت إلى ذاكرتها ما قالتها لها أبرهة بعد أن تمت الخطبة :

— أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمدا رسول الله وآمنت به وحاجتى إليك أن تقرئني منى السلام ، وقد أمر الملك نساءه أن يعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر .

إن رسول الله ﷺ — يراه عليها وعندها فلا ينكره .

وأهاج نبأ موت النجاشى ذكريات الحبشة فى وجدان أم حبيبة ، وخرج النبأ من دور النبى ﷺ — إلى دور المهاجرين والأنصار ، وفى دار أبى بكر الصديق راحت زوجته أسماء بنت عميس تجرى وراء ذكرياتها ، إنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب . وما كاد المسلمون يستقرون بها حتى أرسلت قريش خلفهم عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد بن المغيرة ذلك الذى أرادت قريش دفعه لأبى طالب ليكون بدلا عن النبى ﷺ — إذا قتلوه .

وراحت تتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه رسول النجاشى إلى المسلمين يطلبهم ، لقد علموا بما كان من عمرو ومن عمارة فقد قدما إلى النجاشى هدية وأهدوا لعظماء الحبشة هدايا ليرد من جاء إليه من المسلمين وإن جعفرأ قال لأصحابه :

— أنا خطيبكم اليوم . (غزوة تبوك)

عاد جعفر إليها بعد أن قابل النجاشي متلهل الوجه وراح يقص عليها ما كان من هزيمة عمرو وصحبه . إنه قال لها إنه سار والذين معه من المسلمين في ردهات القصر حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح وقال :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

فقال النجاشي :

— نعم . يدخل بأمان الله وذمته .

ودخل جعفر وأصحابه فإذا بعمرو بن العاص عن يمين النجاشي وعمارة ابن الوليد عن يساره ، فقال جعفر :

— السلام عليكم ورحمة الله .

فقال عمرو بن العاص للنجاشي :

— ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك ؟

فقال النجاشي :

— ما منعكم أن تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أحيّا بها ؟!

فقال جعفر :

— إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

— ولم تفعل ذلك ؟

— لأن الله أرسل فينا رسولا وأمرنا إلا نسجد إلا لله عز وجل ، وأنخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام . فحييناك بالذى يحى به بعضنا بعضا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

فقال عمرو بن العاص :

— إنهم يخالفونك فى ابن مريم ولا يقولون إنه ابن الله جل وعلا .

قال :

— فما تقولون في ابن مريم وأمه ؟

قال جعفر :

— نقول كما قال الله عز وجل روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء .

فقال النجاشي :

— يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون . أشهد

أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل .

وأهاج نبأ موت النجاشي ذكريات أيام الحبشة فراحت تنثال على رأس أسماء بنت عميس التي استشهد زوجها العزيز في مؤتة ، فتزوجها أبو بكر الصديق من بعده ، فما كان المسلمون يتركون أزواج الشهداء دون عائل فقد كانوا يعلمون أن النساء في حاجة إلى الزوج حاجتهم إلى الطعام والشراب .

ونكأ خبر موت النجاشي جرح قلب عمرو بن العاص . إن سادات قریش بعثوه وعمار بن الوليد إلى النجاشي ليطلبا منه أن يسلمهما المسلمين الذين فروا إلى أرضه : إنه أخذ معه زوجته وكان عمار رجلاً جميلاً فتن امرأته وهوته . إنه يحاول أن يطرد أشباح الماضي عن رأسه ولكن الذكريات راحت تلح عليه ، إنه يرى نفسه وهو في السفينة وإلى جواره امرأته وعمار بن الوليد يقبل نحوهما وهو يترنح ، وإنه ليسمع صوت عمار وهو يقول له في صوت أشبه بفحيح الأفاعي :

— مر امرأتك فلتقبلني .

ويدوى في السكون صوته كقرع الطبول :

— ألا تستحي ؟

إنه يرى عمار وهو يتقدم نحوه ويراه وهو يحمله ويلقى به في البحر ، وإن صوته وهو يصيح يرن في أعماق ذاته . إنه ناشد أصحاب السفينة أن ينقذوه

وناشد عمارة أن يأخذ بيده ، إنه ليرى الأيدى وهى تمتد إليه وتتسلله من اليم ، وأغمض عينيه حتى لا يرى ما كان ولكن الصور ظلت تتتابع فى خياله رغم أنفه ، والأصوات تسرى فيه كالهمس وكزجاجة البحر مرات وهو يتلوى من الآلم يود لو يجد شيئا يشغله عن تلكم الأفكار التى تعذبه وتضنيه .

— قبل ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه .

وغطى وجهه براحتيه ومسح جبينه لعله يححو ما فى رأسه من خيالات ؛ ولكن الذكريات راحت تندفق دون انقطاع . لأنهم أتوا أرض الحبشة وهو لا يستطيع أن ينسى ما كان فى السفينة ولا بد أن يثار لما لحقه من إهانة . إنه مكر بعمارة وراح الحديث الذى دار بينهما فى ذلك اليوم يتفجر فى أعماقه :

— أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال ، فتعرض لزوجته النجاشى لعلها أن تشفع لنا عنده .
— أفعل .

وخيل إليه أن صوت عمارة كان كسوط يلهب حواسه ، وأخذ يقنع نفسه أن ذلك كان منه قبل أن يُسلم وأن الإسلام يجب ما قبله ، ولكن شبح عمارة كان يأخذ بتلابيبه ؛ إنه جاء إليه يخبره أن زوجة النجاشى أهدت إليه من عطرها ، وهو يرى نفسه وهو ينسل إلى النجاشى ويقول له :

— إن صاحبى هذا صاحب نساء وإنه يريد أهلك ، وهو عندها الآن .
فبعث النجاشى فإذا عمارة عند امرأته فقال :

— لولا أنه جارى لقتلته ، ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل .

— ألقاه النجاشى فى الأدغال مع الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت .

وهز عمرو بن العاص رأسه ليطرد ما فيه من صور ، ولكن مكره بعمارة بن الوليد استمر يلاحقه . لقد أثلج صدره في ذلك اليوم لما حمل عمارة إلى رعوس الجبال فإذا بذلك الفرع ينقلب إلى وخز يخز ضميره كلما تذكر أحداث الحبشة ، وبعث في عين ذاته شعره الذى خاطب به عمارة لكأنما نشر من قبر سحيق :

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه
ولم ينه قلبا غاويا حيث يما
قضى وطرا منه وغادر سبة
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وأهاج خبر موت النجاشي ذكريات الحبشة في وجدان عمرو بن العاص ، ولم ينش طيف عمارة بن الوليد عنه في اليقظة وفي المنام .

وعاد عمرو بن أمية الضمري بخياله إلى تلكم الأيام التى بعثه فيها رسول الله ﷺ — إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلم أنت ، فأني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة فحملت به عيسى . فخلق الله من روحه ونفحه كما خلق آدم بيده ونفحه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبغنى وتؤمن بالذى جاءني فأني رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فأني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى) .

ويرى عمرو بن أمية الضمري نفسه وهو يسير في ردهات قصر النجاشي ومن

حوله كبار موظفى القصر وقد زينت الجدران بسرعوس الأسود والنمور والغزلان ، وفرشت الأرض بجلود فاخرة ، حتى إذا بلغ باب قاعة العرش نادى :

— بالبواب عمرو بن أمية الضمري رسول محمد رسول الله .

— مرحبا بك . ادخل .

ويرى نفسه وهو يتقدم مرفوع الرأس ويلقى على النجاشى تحية الإسلام فيرد عليه بتحية الإسلام ويرحب به ويجلسه عن يمينه ويتلقى منه كتاب رسول الله — ﷺ . فما انتهى منه حتى يسارع باستدعاء كاتبه العربى ويملى عليه :
(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر . سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرتُ ثفروقا . إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا . وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت إليك بابنى إرها بن الأصحم بن أبجر فأنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فأنى أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك يا رسول الله) .

إنه يرى بخياله النجاشى وهو يختم الكتاب بخاتمه ووجهه خاشع وقد انعكس عليه الإيمان العميق ، ويراه وهو يطوى الكتاب فى انفعال ثم يقدمه إليه فى أدب جم ويسأله أن يقرئ رسول الله — ﷺ — السلام .

وعاش عمرو بن أمية لحظات فى الوليمة التى أولمها النجاشى فى قصره لما زوج أم حبيبة بنت أوى سفيان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ورأى

— ٨٧ —

نفسه وهو يخرج من الحبشة ومعه جعفر بن أنى طالب وأصحابه وأم حبيبة أم المؤمنين في سفينتين حتى قدما مرفأ المدينة ، ثم ركبوا الظهر إلى المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ — بخير مع من خرج إليه ، وأقامت أم حبيبة حتى قدم رسول الله ﷺ فدخلت عليه .

ذكريات كثيرة أثارها خبر موت النجاشي في رءوس الذين هاجروا إلى الحبشة في الهجرتين ، وأفكار تطوى الزمن فيمتزج الماضي بالحاضر في وجدان أناس صنعوا تاريخ حقبة من أهم حقب الإسلام ، وحوار ظل مشبوا إلى أن أمر رسول الله ﷺ — أصحابه أن يحضروا وصفهم ثم تقدم رسول الله ﷺ — وقال لهم :

— إن الله أمرني أن أصلى على النجاشي وقد توفي فصلوا عليه .

وهن عظم عبد الله بن أبي بن سلول واشتعل رأسه شيبا ولم يخب حقه
على رسول الله ﷺ — بل اشتد مرض قلبه فهو لا يفتأ يذكر أن محمدا عليه
السلام قدم المدينة لما كان هو سيد أهلها ، لا يختلف عليه في شرفه في قومه
اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله على رجل من أحد الفريقين غيره .
كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاء محمد بن عبد
الله مهاجرا إلى يثرب وهم على ذلك ، فلو أن هجرة رسول الله ﷺ —
تأخرت شهرا أو بعض شهر لكان أول ملك على يثرب ، ولنعم بالسيادة وعز
الملك وجاه السلطان .

انصرف قومه عنه إلى الإسلام فامتأ قلبه ضعينة ، ورأى أن رسول الله —
ﷺ — استلبه ملكا فراح يكيد لرسول الله — صلوات الله عليه — سرا
وجهرا . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق .
مرض سعد بن عباد فركب رسول الله — ﷺ — إليه على حمار فوقه
قطيفة فدية وأردف أسامة بن زيد خلفه ، فمر بعبد الله بن أبي وهو في ظل
مراحم أطمه وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله — ﷺ — استحيا
من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ثم جلس قليلا ، فتلا القرآن ودعا إلى الله
عز وجل وذكّر بالله وحذر ، وبشر وأنذر ، وهو ساكت لا يتكلم ، حتى إذا
فرغ رسول الله — ﷺ — من مقالته قال :

— يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ؛ فاجلس في بيتك
فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تفتّه به ولا تأتّه في مجلسه بما يكره
منه .

فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين :
— بلى فاغشّنا به واثنتا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ومما
أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله بن أبي حنّين رأى من خلاف قومه ما رأى :
متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل
تذل ويصرعك الذئب — تُصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه
وإن جُذَّ يوماً ريشه فهو واقع
وقام رسول الله — ﷺ — فدخل على سعد بن عبادَة وفي وجهه ما قال
عدو الله ابن أبي ، فقال سعد بن عبادَة :
— والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا .
تكرهه .
— أجل .

ثم أخبره بما قال ابن أبي فقال سعد :
— يا رسول الله أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز
لنتوجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا .
وظل التاج يتخايل لابن أبي كلما أمد الله رسوله بنصره ، فلم يكن يفرح
بنصر المؤمنين بل كان يصاب بحزن ثقيل إذا مست المسلمين حسنة ، إنه كاد
يموت غما لما تم النصر للمسلمين ببدر ، وزاد قلبه مرضا لما جمع رسول الله —

ﷺ — يهود بنى قينقاع فى سوقهم وقال لهم :
 — يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا
 فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .
 — يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغررك أنك لقيت قوما لا علم لهم
 بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .
 كان يهود بنى قينقاع حلفاء ابن أبى فكان يتحرق شوقا إلى أن تنشب
 الحرب بين محمد عليه السلام وبين اليهود ، وكان يبنى النفس بانتصار اليهود
 على عدوه ، وعادت الأمانى تداعبه بأن وضع التاج على رأسه قد دنا ، فلما
 أنزل الله تعالى فى يهود بنى قينقاع : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى
 جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فتنتين التقتا فقة تقاتل فى سبيل الله
 وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى
 ذلك لعبرة لأولى الأبصار ^(١) . ازدادت رغبته فى نصر اليهود على المسلمين .
 فلو تحقق ذلك لتزعزع إيمان المؤمنين بقرآن محمد ، ولسهل عليه أن يطرد ذلك
 الذى جاء ليسلبه ملكه .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله — ﷺ ،
 فحاصروهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ، فكاد قلب ابن أبى أن ينفطر ولم
 يستطع أن يكتم عواطفه فقال :

— يا محمد أحسن فى موالى .
 فأبطأ عليه رسول الله — ﷺ ، فقال له رسول الله — ﷺ :
 — أرسلنى .

(١) آل عمران ١٢ ، ١٣ .

وغضب رسول الله ﷺ — حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال :
— ويحك ! أرسلنى .

— لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع
قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إني والله امرؤ
أخشى الدوائر .

ولم يشأ رسول الله ﷺ — أن يحدث انقساماً فى مجتمعه الجديد الذى
كان ينمو مع الأيام ، فقال :
— هم لك .

كان عبد الله بن أبى يتلمس الأسباب ليطعن الإسلام طعنة قاتلة ، ولكن
رسول الله ﷺ — كان يفوت عليه تدبيره وكان يغفر له لإساءته ويرفق
به ، فقد جاء الله برسوله إلى المدينة وأهلها ينظمون الخرز لابن أبى ليتوجوه
ملكا عليهم .

رأى ابن أبى يوم أحد أن يقيم المسلمون بالمدينة وأن يدعوا عدوهم يدخل
عليهم ويقاتلوه فيها ، لا لأنه كان يؤمن بأن ذلك فى مصلحة المسلمين بل لأنه
كان يرى أن انكسار المسلمين فى المدينة فيه سحق لقوتهم ، وأن هزيمتهم
لو وقعت ستكون قاضية ، فلما استقر رأى على الخروج لم يخضع لرأى
الأغلبية بل قال :

— أطاعهم وعصانى ، ما يدرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟
ووجد سببا لينخذل عن رسول الله لعل رجوعه بمن اتبعه من قومه من أهل
النفاق والريب يفت فى عضد جيش المسلمين ، فتتحقق هزيمتهم التى كانت
شغله الشاغل ومحور تفكيره وتدبيره .

إنه كان يظهر الطاعة والرضا ويضمر العداوة والبغضاء ، فإذا جلس

رسول الله — ﷺ — يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله بن أبي فقال :
— أيها الناس ، هذا رسول الله — ﷺ — بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم
به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا .

فلما عاد رسول الله — ﷺ — من أحد قام عبد الله بن أبي ليعطى من
طرف لسانه للمسلمين حلاوة ويلج في النفاق ، فأخذ المسلمون بشيابه من
نواحيه وقالوا :

— اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .

فخرج يتخطى الرقاب وهو يقول :

— والله لكأنا قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال :

— مالك ؟ ويلك !

— قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى

لكأنا قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

— ويلك ! ارجع يستغفر لك رسول الله — ﷺ .

— والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

كان يظهر الإيمان بلسانه وكان الكفر يملا قلبه ، وكان يعيش على أمل أن

ينتصر حلفاؤه من اليهود على رسول الله — ﷺ — وأن يقضى على الإسلام

في المدينة ، فيعود إليه نفوذه ويعود إليه التاج الذى سلبه إياه محمد بن عبد الله

يوم أن هاجر إلى يثرب .

وغدر يهود بنى النضير ودبروا قتل رسول الله — ﷺ — لما ذهب إليهم ،

فقد خلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

كان رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدا فقالوا :

— فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيرخنا منه ؟! فصعد أحدهم ليلقى عليه صخرة ، فأتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة وكانت الحرب بين المسلمين وبين بنى النضير .

وراح عبد الله بن أبى بن سلول يعض أصابعه من الغيظ ، فلو أن الصخرة قد هوت على محمد بن عبد الله لأراحت اليهود وأراحتة من الرجل الذى سلبه التاج وسلبه قلوب الناس حتى قلب ابنه عبد الله .

وتحصن بنو النضير من رسول الله — ﷺ — فى الحصون وحاصروهم رسول الله عليه السلام ، ورأى ابن أبى أن يشد أزر اليهود فهم أمله الأخير ، فبعث إلى اليهود أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم ، إن قوتلم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وقذف الله فى قلوب بنى النضير الرعب وسألوا رسول الله — ﷺ — أن يجلبهم ويكف عنهم . وخرج بنو النضير إلى خير وإلى الشام ولم يحرك عبد الله ابن أبى ساكتا . إنه كان يخشى بطش المسلمين وإنه يريد الدنيا ليحقق أحلامه الأرضية ، فكان دمه غاليا يخشى أن يهدر قبل أن يحقق الوهم الذى استولى على لبه ، وهو أن يصير ملكا على الأوس والخزرج جميعا .

وكان بين الحين والحين ينفس بلسانه عن حقه الدفين ، فقد قاتل رسول الله — ﷺ — بنى المصطلق ونصر الله رسوله ، فلما جاء الليل تراحم الناس على الماء فتشابك أجير عمر بن الخطاب وسان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج ثم اقتتلا ، فصرخ الجهنى :

— يا معشر الأنصار .

وصرخ أجير عمر :

— يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبى فقال :

— أَوَقَد فعلوها ؟ لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : سَمْنُ كلبك يأكلك ! أما والله لنرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

— هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وبلغ رسول الله — ﷺ — ما قال كبير المنافقين ، فلما علم ابن أبى أن رسول الله قد بلغه ما قال مشى إليه فحلف بالله إنه ما قال ولا تكلم بما بلغ نبي الإسلام عليه السلام . فأنزل الله قرآنا يكذبه فأوجع ذلك قلب ابنه عبد الله ، فأتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار .

— بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وأحسن رسول الله — ﷺ — صحبته ، ولكنه لم يستطع أن يبرأ من مرض قلبه فإنه خاض فى حديث الإفك وراح يرمى عائشة أم المؤمنين بالفاحشة ويوسع الأرض إذاعة بما افتراه ليزلزل كيان رسول الله — ﷺ —

وليقوض أركان ذلك الدين الذى كان الصخرة التى تتحطم عليها آماله ، وعاش أياما وهو يتהלل بالفرح ولكن الله أنزل براءة عائشة من فوق سبع سموات وتوعد الذين جاءوا بالإفك بعذاب عظيم .

وأمر رسول الله ﷺ — الناس أن يتجهزوا للخروج لقتال الروم ، فخرج عبد الله بن أبى فى رجال من قومه وضرب على حدة عسكره أسفل من عسكر رسول الله ﷺ — ولم يكن خروجه ليؤيد المسلمين بل ليشيط همهم ، فراح يوسوس لهم لا تنفروا فى الحر . فلما أبى المسلمون إلا أن ينفروا فى الحر ابتغاء مرضاة الله تخلف عبد الله وهو يرجو أن يضرب الروم المسلمين ضربة قاصمة ليعود إليه المجد والتاج ، فلما جاء الحق وظهر أمر الله كاد يموت من الغم لولا بقية من أمل فى أن تأتى الأيام بما يشتهي .

ولم تحقق الأيام أمانيه ، إنه ناء بأحقاد قلبه فسقط فى فراشه ليلتقط أنفاسه . فلم يشخص ببصره إلى السماء يلتمس من ربه المغفرة ويتوب إليه من وسوسات نفسه الأمارة بالسوء ، ولكنه عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه على رأس الأوس والخزرج للحج . إن رجاله قد ناموا معه فى رحالهم بعد أن حجوا وما درى أن بعضهم قد واعدوا محمد بن عبد الله ليقابلوه عند العقبة . إنه ما انقضى ثلث الليل حتى خرجوا من رحالهم لميعاد ابن عبد الله يتسللون تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة .

آه لو انكشف أمرهم فى تلك الليلة لقضى على الفتنة قبل أن يشتد عودها ، ولما ضاع منك الملك والتاج ، لإنهم دبروا أمرهم وبايعوا محمد بن عبد الله على نصره ، فلما أصبح الناس غدت عليهم جلة قريش حتى جاءوهم فى منازلهم فقالوا :

— يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من

بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .
فقال فى ثقة :

— ان هذا أمر جسيم ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته كان .
وأحس وهو فى فراش الموت مرارة فى فمه ، إن غروره قد قتله . كان على ثقة بمكانته فى قومه وما خطر له على قلب أن ناسا من قومه يدبرون أمرا وراء ظهره ، فقد اختاروه طائعين ليكون لهم ملكا وإنهم يتأهبون لتسويجه ، فلو أن بادرة من الشك خامرته لفحص عن الأمر ولعرف حقيقة ما كان بين محمد بن عبد الله وبين النقباء الاثنى عشر عند العقبة ، ولأحمد جذوة الثورة قبل أن تتأجج وتأتى على آماله وأمانيه .

وانبعثت من جوفه ضحكات ساخرة ، وترادفت على رأسه صور انتصارات رسول الله — ﷺ — فزادت آلام نفسه فجعل يضرب رأسه بكف واهنة ليطرده الأفكار المضنية التى تعذبه وتلهب روحه بسياط أشد قسوة من النار .

ورأى عبد الله بن عبد الله بن أبى أن أباه فى النزاع الأخير ، فنزل به حزن ثقيل لأن أباه يموت منافقا ولم يشرح الله للإسلام صدره ، فغدا يتوسل إلى أبيه أن يتوب إلى الله توبة نصوحا وأن يسأله المغفرة ، ولكن أباه لج فى عناده فأشاح بوجهه عن ابنه الذى أشرق قلبه بأنوار اليقين .

وخرج عبد الله بن عبد الله بن أبى يعدو إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — وسأله فى انفعال شديد أن يستغفر لأبيه ، كان — ﷺ — يحب عبد الله وكان يعرض عن إساءات أبيه فهو لا ينسى أنه حرمة الملك والسلطان . فراح يستغفر لابن أبى فأحس ابنه عبد الله كأن كابوسا انزاح عن صدره .

و لم يطل فرح الابن فقد أنزل الله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ^(١) فأطرق عبد الله ونياط قلبه تتمزق ، فهو يحب أباه بكل خلجة من خلجات نفسه وهو يرجو له أن يتطهر من نفاقه قبل أن يلقى ربه ، ولكن الأب أصر على الكفر والعصيان إرضاء لغروره وكبريائه . ومات عبد الله بن أبي بن سلول ولم يئأس ابنه عبد الله بل ظل متعلقا بأمل ، ففعل صلاة رسول الله — ﷺ — على أبيه تشفع له عند ربه ، فأثى رسول الله عليه السلام وقال له :

— أعطني قميصك حتى أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له .

فأعطاه عليه السلام قميصه ، ثم قال :

— آذني حتى أصلي عليه .

وكفنه عبد الله بن أبي في قميص رسول الله — ﷺ — وحن أوان الصلاة على أبيه ، فقام إليه فلما وقف يريد الصلاة عليه ، جذبه عمر بن الخطاب وتحول حتى وقف في صدره فقال له :

— يا رسول الله أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول القاتل كذا

يوم كذا والقائل كذا يوم كذا ؟

وراح يعدد أيامه ورسول الله — ﷺ — يتبسم حتى إذا أكثر عمر قال

عليه السلام :

— يا عمر أخر عني ، إني قد خيرت فاخترت ، قد قيل لي : ﴿ استغفر لهم

أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ فلو أعلم أني

قد زدت على السبعين غفر له لذت .
 ثم صلى عليه رسول الله — ﷺ — ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ
 منه ، فعجب عمر لنفسه ولجراته على رسول الله — ﷺ — والله ورسوله
 أعلم ، وظل يؤنب نفسه فما كان إلا يسيرا حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ولا تصل
 على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم
 فاسقون ﴾ (١) فأفرخ روع عمر ونزلت على قلبه السكينة وحمد الله رب
 العالمين .
 وكلم عمر رسول الله — ﷺ — فيما فعل بعبد الله بن أبي ، فقال عليه
 السلام :
 — وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله ! والله إني كنت أرجو أن يُسلم
 به ألف من قومه .

١٢

آن أوان الحج وقد رفرف الإسلام على مكة ؛ الكعبة قد طهرت من الأصنام لما جاء الحق وزهق الباطل ، وقريش تصلى لله رب العالمين ولكن بعض القبائل التي لم تعتنق الإسلام كانت على شركها وكانت توقر البيت العتيق وتحج إليه ، فسيجتمع المسلمون والمشركون في بين واحد وفي وقت واحد ، وسيلبى كل فريق بتلييته وإنه لأمر لا يستقيم ولا يتساق مع ما ينبغى أن يكون في أول بيت وضع للناس ليكون منارة للتوحيد .

كان التوحيد هو الأصل وقد جاء الشرك لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وقد أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل لعبادة الله وحده ، فإن كان الناس قد أشركوا بربهم وعبدوا آلهة مع الله ، فقد جاء الإسلام ليعيد ملة إبراهيم وليطهر بيت الله من الأصنام والأوثان للطائفين والقائمين والركع السجود . وعاد البيت الحرام سيرته الأولى ، عاد منارة للتوحيد فأصبح حج المشركين البيت وإقامة شعائرهم فيه شيئا غير مقبول ولا يساغ ، وكان بعض فقراء المشركين من الرجال والنساء يطوفون بالبيت عرايا لأن الحمس من قريش قالوا إنه لا يجوز الحج في ملابس اقترفت فيها الخطايا وكانوا يبيعون الحجاج ثيابا جديدة ، فالذين كانوا لا يملكون ثمن الثياب كانوا يخلعون ما عليهم ويطوفون بالبيت كما ولدتهم أمهاتهم ؛ وإنه لشيء يتنافى مع كرامة الإنسان وما جاء الإسلام إلا ليحفظ للناس كرامتهم .

وبات الأمر يحتاج إلى تشريع ليكون بيت الله خالصا لله ، ولكن للمشركين عهدا بينهم وبين رسول الله ﷺ — أن لا يُصد عن البيت أحد جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكانت هناك عهود بينه عليه السلام وبين قبائل من العرب إلى آجال مسماة .

كانت رغبة رسول الله ﷺ — أن يحج البيت وقد تطهر من الشرك والمشركين ومن العرابة الذين يثيرون اشتزاز كل ذى ذوق سليم ، فبعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقم للمسلمين حجهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين .

واجتمع المسلمون والمشركون في أسواق بمكة وذى الحجاز وعكاظ ، وقام شعراء المسلمين ينشدون الشعر في محاسن الإسلام ، وجعل القراء يتلون القرآن فرفرف الإسلام على الأسواق ولم يعد هناك شك أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أين اليوم من الأمس ؟ فالיום يهرع الناس ليلقوا السمع إلى خطباء المسلمين بينما كان محمد عليه السلام لما أمره ربه بتبليغ رسالته يخرج إلى الأسواق يعرض نفسه على القبائل فلا يجد منهم إلا الإعراض المبين .

وأنزل الله على عبده : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ﴾ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى ما منهم . أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ — عهد — عهده إلى مدته فهو له إلى مدته .

إن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ — وخلافه . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ — ولا عداوته ، رأت قبائل العرب أن تبعث إليه — صلوات الله وسلامه عليه — الوفود لتدين له وتعلن إسلامها .

وأحس حسان بن ثابت شاعر الرسول أن قريشا بعد إسلامها قد تستحوذ على المجد كله . فراح حسان بعدد أيام الأنصار مع النبي ﷺ — ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَعَدٍّ كُلِّهَا نَفَرًا
وَمَعَشَرًا إِنْ هُمَا عَمُّوا وَإِنْ حَصِلُوا
قَوْمٌ هُمْ شُهَدَاؤُا بَدَرًا بِأَجْمَعِهِمْ
مَعَ الرَّسُولِ فَمَا آلَوْا^(١) وَمَا خَذَلُوا
وَبَايَعُوهُ فَلَمْ يَنْكُثْ بِهِ أَحَدٌ
مِنْهُمْ وَلَمْ يَكْ فِي إِيْمَانِهِمْ دَخَلٌ^(٢)

(١) ما آلوا : ما قصرُوا . ويروى : « ما آلوا » بالمد ، أى ما أبطلوا .

(٢) دخل : فساد .

— ١٠٤ —

ويوم صَبَّحَهُمْ فِي الشَّعْبِ مِنْ أَحَدٍ
ضَرْبِ رَصِينٍ^(١) كَحَرِّ النَّارِ مُشْتَعِلٌ
وَيَوْمَ ذِي قَرْدٍ يَوْمَ اسْتِشَارَ بِهِمْ
عَلَى الْجِيَادِ ، فَمَا خَامُوا وَمَا نَكَلُوا^(٢)
وَذَا الْعَشِيرَةِ جَاسُوهَا^(٣) بِخَيْلِهِمْ
مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهَا الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ
وَيَوْمَ وَدَّانَ أَجْلُوا أَهْلَهُ رَقَصًا^(٤)
بِالْخَيْلِ حَتَّى نَهَانَا الْحَزَنُ وَالْجَبَلُ
وَلَيْلَةً طَلَبُوا فِيهَا عَدُوَّهُمْ
لِللَّهِ وَاللَّهُ يُجْزِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا
وَعِزَّةً يَوْمَ نَجَدَ ثُمَّ كَانَ لَهُمْ
مَعَ الرَّسُولِ بِهَا الْأَسْلَابُ وَالنَّقْلُ
وَلَيْلَةً بِخُنَيْنٍ جَالَدُوا مَعَهُ
فِيهَا يَعْلُهُمْ^(٥) بِالْحَرْبِ إِذْ نَهَلُوا
وَعِزَّةً الْقَاعَ قَرَقْنَا الْعَدُوَّ بِهِ
كَأَمْ تَفَرَّقَ دُونَ الْمَشْرِبِ الرَّسُلُ

(١) رَصِين : ثابت محكم .

(٢) خَامُوا وَنَكَلُوا : جَبَنُوا عَنْ هَيْبَةٍ وَفَزَعُوا .

(٣) جَاسُوهَا : وَطِئُوهَا ، وَالْبَيْضُ : السُّيُوفُ . وَالْأَسَلُ : الرِّمَاحُ .

(٤) الرِّقَصُ : ضَرْبٌ مِنَ الْمَشْيِ ، وَهُوَ الْخُتْبُ . وَالْحَزَنُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٥) يَعْلُهُمْ : أَيْ يَكْرُرُهَا عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْعَلَلِ ، وَهُوَ الشَّرْبُ الثَّانِي . النَّهْلُ : الشَّرْبُ

الْأَوَّلُ .

ويوم بُيَعَ كانوا أهل يبعته
 على الجلال فآسوه وما عدلوا
 وغزوة الفتح كانوا في سريته
 مُرابطين فما طاشوا وما عجلوا
 ويوم خيبر كانوا في كتيته
 يمشون كلهم مُستبسل^(١) بطل
 بالببيض تَرُعرش في الأيمان عارِية
 تعوّج في الضرب أحيانا وتعادل
 ويوم سار رسول الله مُحْتَسِبًا
 إلى تبوك وهم راياتهِ الأول
 وساسة الحرب إن حربٌ بدت لهم
 حتى بدت لهم الإقبال والقفل^(٢)
 أولئك القوم أنصار النبي وهم
 قومى أصير إليهم حين أتصل^(٣)
 ماتوا كراما ولم تُنكث عهودهم
 وقتلهم في سبيل الله إذ قُتلوا
 وقال حسان بن ثابت أيضا :
 كنا ملوك الناس قبل محمد
 فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل

(١) مستبسل : موطن نفسه على الموت .

(٢) القفل : الرجوع .

(٣) حين أتصل : حين أنتسب .

وأكرمنا الله الذى ليس عيرُهُ
إِلَهٌ بأيام مضت ما لها شَكْلٌ (١)
بنصر الإله والرسول ودينه
وأبسناه اسما مضى ما له مثل
أولئك قومى خيرُ قوم بأسرهم
فما عُذٌّ من خير قومى له أهل
يربُّون (٢) بالمعروف معروف من مضى
وليس عليهم دون معروفهم قفل
إذا اختبَطوا (٣) لم يُفحشوا في نديهم
وليس على سؤلهم عندهم بُخل
وإن حاربوا أو سالموا لم يُشبهوا
فحربهم حتفٌ وسلمهم سهل
وجارهم مُوفٌ بعلاء بيته
له ما ثوى فينا الكرامةُ والبذل
وحاملهم موفٌ بكل حمالة (٤)
تحمِّل لا غرم عليها ولا تحذل
وقائلهم بالحق إن قال قائل
وحملهم عودٌ (٥) وحكمهم عدل

(١) شكل : مثل . (٢) يربون : يصلحون .

(٣) اختبطوا : قصدوا في مجلسهم .

(٤) الحمالة : ما يتحمله الإنسان من غرم في دية .

(٥) عود : قديم متكرر .

ومنا أمير المسلمين حياته

ومن غسّلته من جنابته الرُّسل (١)

وقال حسان بن ثابت أيضا :

قومي أولئك إن تسألي	كرام إذا الضيف يوما ألم (٢)
عظام القدور لأيسارهم	يكبّون فيها المسين السنم
يؤاسون جارهم في الغنى	ويحمون مولاهم إن ظلم
فكانوا ملوكا بأرضيهم	ينادون عضبا بأمر عشم (٣)
ملوكا على الناس . لم يملّكوا	من الدهر يوما كحل القسم (٤)
فأنبوا بعباد وأشياعها	ثمود وبعض بقايا إرم (٥)
بيثرب قد شيدوا في النخيل	حصونا ودجن فيها النعم (٦)
نواضح قد علّمتها اليهو	د (عل) إليك وقولا هلم (٧)
وفيما اشتها من عصير القطا	ف (٨) والعيش رخوا على غيرهم

(١) أمير المسلمين : يعنى سعد بن معاذ . ومن غسّلته : يعنى « حنظلة » الذى غسّلته الملائكة حين استشهد يوم أحد . والرسل هنا : الملائكة .

(٢) ألم : نزل .

(٣) غشم : من الغشم ، وهو أسوأ الظلم .

(٤) يريد بحل القسم : فترة قصيرة .

(٥) فأنبوا : فأنبوا ، فخفف الهمزة ، وإرم : هى عاد الأولى .

(٦) دجن فيها النعم : اتخذت في البيوت ، والداجن : كل ما ألف الناس كالحمم والدجاج ونحو ذلك ، والنعم : الإبل والبقر والغنم .

(٧) النواضح : الإبل التى يستقى منها الماء ، وعل : زجر تزجر به الإبل ، وهلم : أقبل .

(٨) القطاف : اسم لما يقطف من العنب وغيره .

فسرنا إليهم بأثقالنا
جنبنا بين جياد الخيو
فلما أناخوا بجنبى صرار
فما راعهم غير معج الخيو
فطاروا سراعاً وقد أفرعوا
على كل سلهبة^(٤) فى الصبا
وكل كميّ مطار الفؤاد
عليه فوارس قد عودوا
مبوك إذا غشموا فى البلا
فأبنا^(٧) بساداتهم والنساء
ورثنا مساكنهم بعدهم
فلما أتانا الرسول الرشيد
قلنا صدقت رسول الملك
فنشهد أنك عبد الإله

على كل فحل هيجان قَطم^(١)
ل قد جملوها جلال الأدم^(٢)
وشدوا السروج بلى الحزم
ل والزحف من خلفهم قد دهم^(٣)
وجئنا إليهم كأسد الأجم
ن لا يشتكن نحول السأم
أمين الفصوص كمثّل الزلم^(٥)
قراع الكماة وضرب البهم^(٦)
د لا ينكلون ولكن قدم
وأولادهم فيهم تققسم
وكنّا ملوكاً بها لم نرم^(٨)
د بالحق والنور بعد الظلم
هلم إلينا وفينا أقم
أرسلت نورا بدين قيم

-
- (١) الهجان : الأبيض . وقطم : هائج يشتهى الضراب .
(٢) جنبنا : قدنا ، وجملوها : غطوها ، والأدم : الجلد .
(٣) معج الخيول : سرعتها ، ودهم : جاء غفلة على غير استعداد .
(٤) سلهبة : الفرس الطويلة .
(٥) مطار الفؤاد : ذكى الفؤاد ، والفصوص : مفاصل العظام ، وأمين الفصوص : قويها ، والزلم : القدح .
(٦) الكماة : الشجعان ، والبهم : الأبطال الشجعان .
(٧) أبنا : رجعنا .
(٨) لم نرم : لم نتحول .

فإننا وأولادنا جنّة	نقيك وفي مالنا فاحتكم
فنحن أولئك إن كذبوك	فناد نداء ولا تحتشم
وناد بما كنت أخفيتـه	نداء جهارا ولا تكتـم
فسار الغواة بأسيافهم	إليه يظنون أن يحترـم ^(١)
فقمنا إليهم بأسيافهم	نجالد عنه بغاة الأمم
بكل صقيل له معة	رقيق الذباب عضوض خـدم ^(٢)
إذا ما يصادف صم العظا	م لم ينب عنها ولم يثـلم
فذلك ما ورثنا القرو	م مجدا تليدا وعِزّا أشـم ^(٣)
إذا مر نسل كفى نسله	وغادر نسلا إذا ما انفصـم ^(٤)
فما إن من الناس إلّا لنا	عليه وإن خاس فضل النعم

(١) يحترم : يهلك .

(٢) له معة : أى له صقال يشبه الماء في صفائه ، والذباب : حد طرف السيف ،

ونخدم : قاطع .

(٣) القروم : السادة ، والتليد : القديم ، والأشم : المرتفع .

(٤) انفصم : انقطع وانقرض .

١٣

أتم الناس الحج المؤمنون والمشركون ، ودخلت السنة التاسعة من الهجرة وبدأت وفادات العرب على رسول الله ﷺ ، وذلك أن العرب إنما كانوا ينتظرون فتح مكة وإسلام هذا الحى من قريش . فلما فتح الله عز وجل على رسوله ﷺ — مكة وأسلم من أسلم من قريش ، وفدت عند ذلك وفادات العرب من كل قبيلة وجهة ودخلوا في دين الله أفواجا .

وإن وفود القبائل أو وفود بعض رجال من القبائل على رسول الله ﷺ — لم ينقطع مذ جهر بدعوته في مكة إلى أن تدفقت الوفود على المدينة في عام الوفود ، فأبو ذر الغفارى قدم — ومعه أهل غفار — على النبى ﷺ — وهو بمكة فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ — المدينة ، وكان يؤمهم خُفاف بن إيماء بن رخصة الغفارى وكان سيدهم ، وقال بقيتهم : — إذا قدم رسول الله ﷺ — أسلمنا .

فقدم رسول الله ﷺ — المدينة فأسلم بقيتهم ، وجاءت أسلم فقالوا : — يا رسول الله إخواننا ، نسلم على الذى أسلموا عليه . كانت غفار إخوان أسلم فلما أسلمت غفار أسلموا ، فقال رسول الله ﷺ : —

غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله .

وقدم ضماد بن ثعلبة الأزدي مكة ، وهو رجل من أزد شوءة كان صديقا

— ١١١ —

للنبي — ﷺ — في الجاهلية ، وكان يتطيب ويرقى فسمع سفهاء الناس يقولون :

— إن محمدا مجنون .

فقال :

— آتى هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .

فلقى محمدا — ﷺ — فقال :

— إني أرقى من هذه الرياح وإن الله يشفى على يدي من يشاء ، فهلهم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

— تالله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلهم يدك أبايعك على الإسلام .

فبايعه رسول الله — ﷺ — وقال له :

— وعلى قومك ؟

— وعلى قومي .

فبعث رسول الله — ﷺ — سرية فمروا بقوم ضماد ، فقال صاحب

الجيش للسرية :

— هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟

فقال رجل منهم :

— مطهرة .

ردوها عليهم فإنهم قوم ضماد .

وقدم قيس بن مالك بن سعد بن مالك على رسول الله ﷺ — وهو بمكة فقال :

— يا رسول الله لأومن بك وأنصرك .

— مرحبا بك ، أتأخذونني بما قئ يا معشر همدان ؟

— نعم بأبي أنت وأمي .

— فاذهب إلى قومك فإن فعلوا فارجع أذهب معك .

فخرج قيس إلى قومه فأسلموا وتوجهوا إلى القبلة ، ثم خرج بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— قد أسلم قومي وأمروني أن آخذ .

كان ذلك قبل الهجرة وما كان الله قد أذن لرسوله بالهجرة ، فقال رسول الله ﷺ :

— نعم وافد القوم قيس .. وفئت وفقى الله بك .

ومسح بناصيته وكتب عهده على قومه همدان .

وقدم مكة الطفيل بن عمرو الدوسي وكان رجلا شريفا شاعرا لبينا ،

فمشى إليه رجال من قريش يحذرونه من أن يلقي السمع إلى محمد ﷺ —

لأن قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل

وبين زوجته ، فما زالوا به حتى أجمع على ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، فأبى

الله إلا أن يسمعه بعض القرآن فقال في نفسه :

— واثكل أمي ! والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى على الحسن مع

القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ وإن كان الذى يأتي به

حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

وذهب إلى النبي ﷺ — فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ،

فأسلم الطفيل بن عمرو وأسلمت دوس بإسلامه .

وقدم على رسول الله ﷺ — وهو بمكة ، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وسألوه — ورجال من قريش في أندية حول الكعبة — فلما فرغوا من مسأله — ﷺ — دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم :

— خيكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخير الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحق منكم ! فقالوا لهم :

— سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

فأنزل الله تعالى قوله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

ووفد على رسول الله ﷺ — بعد الهجرة وقبل فتح مكة تسعة زهط

من بنى عيس فكانوا من المهاجرين الأولين ، منهم ميسرة بن مسروق والحارث ابن الربيع وقتان بن دارم وبشر بن الحارث بن عبادة وهدم بن مسعدة وسباع ابن زيد وأبو الحصن بن لقمان وعبد الله بن مالك وفروة بن الحصين بن فضالة ، فأسلموا فدعا لهم رسول الله ﷺ — بخير وقال :

— ابغوني رجلا يعشركم أعقد لكم لواء .

فدخل طلحة بن عبيد الله فعقد لهم لواء وجعل شعارهم : يا عشرة .

وقدم ثلاثة نفر من بنى عيس على رسول الله ﷺ — فقالوا :

— إنه قدم علينا قوم فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال

ومواش هي معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا .

فقال رسول الله ﷺ :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فلم يلتكم من أعمالكم شيئا ولو كنتم بصمد^(١)

وجازان^(٢) .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبي ﷺ — وثب رجل من بنى أنس

الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له قرّاص فحطمه ، ثم وفد إلى النبي ﷺ —

— بعد الهجرة فأسلم وقال :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى ونخلفت قرّاصا بدار هوان

شددت عليه شدة فتركته كأن لم يكن والدهر ذو حدثان

فلما رأيت الله أظهر دينه أجبت رسول الله حين دعاني

فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا وألقيت فيها كل كلي وجرائي^(٣)

(١) صمد : اسم ماء للضباب .

(٢) جازان : موضع في طريق صنعاء .

(٣) الكلكل : الصدر ، والجران : باطن العنق . فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض

قيل ألقى جرائه على الأرض .

فمن مبلغ سعد العشيرة أننى شربت الذى يبقى بآخر فان
وجاء إلى المدينة من جهينة عمرو بن مرة الجهنى ، وكان لهم صنم وكانوا
يعظمونه وكان عمرو سادنه ، فلما سمع رسول الله ﷺ كسره وخرج
حتى قدم على النبى ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاءه به
عليه السلام من حلال وحرام ، فقال :

شهدت بأن الله حق وأننى لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجرا إليك أجوب الوعث بعد الدكادك^(١)
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا رسول ملك الناس فوق الجبالك
فبعثه رسول الله ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه
إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وقدم على رسول الله ﷺ — نفر من مزينة منهم خزاعى بن عبد ثهم
فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة منهم فيهم بلال بن الحارث والنعمان
ابن مقرن ، وما دار بخلد النعمان أنه سيحارب الفرس وأنه سيستشهد فى
نهاوند . ثم خرج خزاعى إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله
ﷺ — حسان بن ثابت وقال له :
— اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

أأبلغ خزاعيتا رسولا بأن الذم يغسله الوفاء
وأنتك خير عثمان بن عمرو وأسناها إذا ذكر السناء
وبابعت الرسول وكان خيرا إلى خير وآذاك^(٢) النساء
فما يعجزك أو ما لا تطقه من الأشياء لا تعجز عداء

(١) الدكادك : أرض فيها غلظ .

(٢) آدى الشيء : كثر ، وآداه ماله : كثر حتى نقل عليه .

وعداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

— يا قوم ! قد خصصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

— فإننا لا ننبو عليك^(١) .

فأسلموا ووفد منهم على رسول الله ﷺ — أربعمائة وذلك فى شهر

رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله ﷺ — الهجرة فى دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

فرجعوا إلى بلادهم وقد دفع رسول الله ﷺ — لواء مزينة يوم الفتح

إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل .

وجاء أفضل وافد إلى رسول الله ﷺ — قدم ضمام بن ثعلبة من أهل

نجد إلى رسول الله ﷺ — فأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل

المسجد ورسول الله ﷺ — فى أصحابه . وكان ضمام رجلا جلدا أشعر

ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ — فى أصحابه فقال :

— أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ﷺ — :

— أنا ابن عبد المطلب .

— أمحمد ؟

— نعم .

— يا ابن عبد المطلب ! إني سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجد فى

نفسك .

— لا أجد فى نفسى فاسأل عما بدا لك .

(١) ننبو عليك : لا نمتنع عما تريده منا .

— أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك إلينا رسولا ؟

— اللهم نعم .

— فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

— اللهم نعم .

— فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن نصلي هذه الصلاة الخمس ؟

— نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله ﷺ :

— إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قوم بني سعد بن بكر فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به :

— بش اللات والعزى !

— مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ! .

— ويلكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل

عليه كتابا فاستنقذكم به مما كنتم فيه . وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم في حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .
وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة رأسهم مسعود بن رخیلة بن نيرة بن طريف ، فنزلوا شعب سلع فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمرهم بأحمال التمر فقالوا :
— يا محمد ! لا نعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل عددا ، وقد ضقتنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك .
فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .

وقدم الأشعريون وهم قبيلة كبيرة باليمن على رسول الله — ﷺ — وهم خمسون رجلا ، منهم أبو موسى الأشعري ومنهم رجلان من عك ، وقدموا في سفن في البحر وخرجوا بمرفأ مكة ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون :
غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله — ﷺ — في سفره بخير ، فلقوه — ﷺ — فبايعوه وأسلموا . فقال رسول الله — ﷺ — :
— الأشعرون في الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله — ﷺ — رجل من بني سليم يقال له قيس بن نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله . ودعاه رسول الله — ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :

— قد سمعت برجمة الروم وهينة فارس وأشعار العرب وكهانة الكاهن وكلام معاول جعير ، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم ، فأطيعوني وخذوا بنصبيكم

منه .

ووفد رجل منهم يقال له قُدد بن عمار على النبي — ﷺ — وعاهده على أن يأتيه بألف من قومه على الخيل ، وأنشد يقول :

شدت يميني إذ أتيت محمداً بخير يد شدت بحجزة مئزر
وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه وأعطيته كف امرئ غير أعسر
وإن امرأً فارقتَه عند يثرب لخير نصيح من معد وحمير

ثم أتى قومه فأخبرهم الخبر وكان عام الفتح ، فخرج معه تسعمائة وخلف في الحى مائة . وأقبل يريد النبي — ﷺ — فنزل به الموت فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه وهم عباس بن مرداس وأمره على ثلاثمائة وجبار بن الحكم وأمره على ثلاثمائة والأحنس بن يزيد وأمره على ثلاثمائة وقال :

— إيتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى .

ثم مات فمضوا حتى قدموا على رسول الله — ﷺ — فقال :

— أين الرجل الحسن الوجه الطويل اللسان الصادق الإيمان ؟

— يا رسول الله ! دعاه الله فأجابه .

وأخبروه خبره فقال :

— أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم ؟

— خلف مائة فى الحى مخافة حرب^(١) كان بيننا وبين بنى كنانة .

— ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شيء تكرهونه .

فبعثوا إليها فأتته بالهدة بين مكة والطائف ، وقال بنو سليم لرسول الله —

ﷺ :

(١) الحرب مؤنثة وقد تذكر إذا أريد بها القتال .

— ١٢٠ —

— اجعلنا في مقدمتك واجعل لواءنا أحمر وشعارنا مُقَدَّم .
ففعِل ذلك بهم ، وكان في القوم غاوى بن عبد العزى وكان يخدم صنما لبنى
سليم ، فرأى يوما ثعلبين يبولان عليه فقال :
أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب
ثم شد عليه فكسره ، وأتى النبي — ﷺ — فقال له :
— ما اسمك ؟

— غاوى بن عبد العزى .
— أنت راشد بن عبد ربه .
فأسلم وحسن إسلامه . وشهد الفتح ، فقال رسول الله — ﷺ — :
— خير بنى سليم راشد .
وعقد له على قومه .
وكانت الخنساء الشاعرة قد قدمت على رسول الله — ﷺ — مع قومها
من بنى سليم فأسلمت معهم وكان عليه السلام يستنشدُها ويعجبه شعرها
فكانت تنشده وهو يقول :
— هيه يا خناس !
ويومى بيده .

وقدم عمير بن أقضى في عصابة من أسلم فقالوا :
— لقد آمنا بالله ورسوله واتبعنا مناهجك ، فاجعل لنا عندك منزلة تعرف
العرب فضيلتنا ، فإننا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة
والرخاء .

فقال — ﷺ — :
— أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها .

وكتب رسول الله ﷺ — لأسلم ، ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن ساحل البحر والسهل كتابا فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي ، وكتب الصحيفة ثابت بن قيس وشهد أبو عبيدة وعمر بن الخطاب .

وقدم رفاعه بن زيد بن عمير بن معبد الجذامي ثم أحد بنى الضبيب على رسول الله ﷺ — كتابا فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله ، فمن أقبل ففى حزب الله ومن أبى فله أمان شهرين) . فأجابه قومه وأسلموا .

وبعث فروة بن عمرو بن نافرة الجذامي إلى رسول الله ﷺ — رسولا بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء واسم رسوله مسعود بن سعد وهو من قومه ، فقرأ رسول الله ﷺ — كتابه وقبل هديته وأجاز رسوله بائنتى عشرة أوقية ونش . والونش نصف أوقية ، وكتب إلى فروة جواب كتابه .

وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه فحبسوه عندهم ، فقال في محبسه ذلك :

طرقت سليمى موهنا ^(١) أصحابى	والروم بين الباب والقروان
صد الخيال وساء ما قد رأى	وهمت أن أغفى وقد أبكاني
لا تكحلن العين بعدى أئمدا ^(٢)	سلمى ولا تديسن للإيمان
ولقد علمت أبا كبيشة أنسى	وسط الأغزة لا يحص ^(٣) لسانى

(١) الموهن : بعد منتصف الليل .

(٢) الأئمد : حجر للكحل .

(٣) يحص : يقطع .

فلئن هلك لتفقدن أحكام ولئن بقيت لتعرفن مكاني
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى من جودة وشجاعة وبيان
فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم بفلسطين يقال له عفراء قال :
ألا هل أتى سلمى بأن حليها على ماء عفراء فوق إحدى الرواحل (١)
على ناقة لم يضرب الفحل أمها مشدبة أطرافها بالمناجل
ولما قدموه ليضربوا عنقه قال :

أبلغ سراة المؤمنين بأننى سلم لربى أعظمى ومقامى
كانت وفود القبائل تقدم على رسول الله — ﷺ — مذ أمره الله أن ينذر
قومه إلى أن فتح الله على رسوله مكة ، فلما تم فتح مكة وخرج رسول الله —
ﷺ — لغزو الروم وبلغ تبوك وألقى الله في قلوب الروم الرعب فانسحبوا
دون أن يلقوا رسول الله — ﷺ — تدفقت وفود القبائل إلى المدينة في السنة
التاسعة من هجرته عليه السلام ودانت له القبائل ، وأنزل الله على عبده : ﴿ إذا
جاء نصر الله والفتح ﴾ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ فسبح بحمد
ربك واستغفره إنه كان توابا ﴿ (٢) . وقد سميت تلك السنة بعام الوفود .

(١) الرواحل في الأصل الإبل : ويريد بإحدى الرواحل الخشبية التي صلب عليها .

(٢) سورة النصر .

التذييل

مات موسى عليه السلام وقد بلغ مائة وعشرين سنة ، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته كما تقول توراة المنفى . وقبل أن يموت لم ينس الذين كتبوا التوراة أن يصعدوه إلى الجبل ليرى الأرض الموعودة : « وصعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذى قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالى وأرض أفرايم ومنسى (ابنى يوسف) وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى ، والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال له الرب : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، ودفنه فى الأجواء فى أرض مؤاب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

بهذا الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية تنتهى الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود . وإذا درسنا هذا الإصحاح بإمعان نجد رواية تاريخية كتبها كاتب التوراة لا يمكن أن تكون وحيا ، فالكاتب يقول : فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، وهذا الخبر وكل ما بعده حتى نهاية الإصحاح هو قرار من الكاتب ، فلا يعقل أن موسى عليه السلام قال بعد موته : « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه

ولا ذهبت نضارته ، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات مؤاب ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناة موسى .

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو إسرائيل وعمل كما أوصى الرب موسى .

ولم يبق بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه في جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وجميع عبيده وكل أرضه ، وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل .

واضح أن عجز الإصحاح الرابع والثلاثين من إنشاء الذين كتبوا التوراة في المنفى ، وواضح أن الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود والمفروض أنها قد نزلت على موسى قد أعيد كتابتها في عصر السبي فدرس فيها الذين كتبوا التوراة في المنفى كثيرا من أساطير البابليين والفراعنة ، وخططوا لعودتهم إلى فلسطين فجعلوا الرب يسرف في الحديث عن الأرض التى أقسم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يجعلها ميراثا لذريتهم . ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا الرب ينزل في سحابة ويعيد الوعد لموسى والذين معه ، وإن كثرة حديث الرب عن أرض الميراث يثير الشك ، بل يؤكد أن تلك الأقوال قد وضعها أبحار اليهود على لسان الرب ، فليس من المعقول ولا المقبول أن يكرر الرب وعده في كل إصحاح من إصحاحات سفر التثنية . وبالله يتذكر ذلك الوعد لأن بنى إسرائيل كانوا سامعين مطيعين بل لأنهم كانوا فاسقين !

وهنا حقائق ولا ريب في الأسفار الخمسة المفروض أنها أوحيت إلى موسى ولكنها حقائق مزجت بأساطير الشعوب وأحلام الأبحار وأطماع الكهان . وإن دارس الإنجيل يلحظ أن السيد المسيح لم يستشهد بإصحاح من

إصحاحات التوراة ، بل كان يقول : قال موسى ... وأنا أقول ... فما جاء في تلك الأسفار ليس وحيا سماويا بل ما وقر في الأذهان وفي الصدور مما أوحى إلى موسى عليه السلام ، وقد كتب بأقلام أناس تشربوا عادات البابليين والمصريين القدماء ، وقد فاضت أفئدتهم بالحقد على البشر جميعا لما هم فيه من ذل وهوان .

وبعد الأسفار الخمسة يستمر الذين كتبوا التوراة في المنفى في تسجيل تاريخ بني إسرائيل ، إنهم لا ينسون الأرض الموعودة ، وإن ربهم لا يتوانى لحظة عن ذكر تلك الأرض وإعادة الوعد كأنما قد فرغ من شئون الأرض والسماء ولم يعد له من شأن غير ذلك الوعد الذى قطعه على نفسه إكراما هؤلاء العصاة الذين قال عنهم لموسى عليه السلام إنهم سينسون كل ما فعله لهم ويعبدون سواه .

وها هو ذا الرب يخاطب يشوع ويعيد له الوعد كأنما يشوع لم يكن مع موسى عليه السلام يوم قال الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب نزل في سحابة وأعاد الوعد إلى موسى وإلى قومه : « وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات فالآن قم اعب هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم .. » . إصرار عجيب من الرب كأنما كل ما يعرف من الأرض هى هذه المنطقة ، بل إصرار عجيب من الذين كتبوا التوراة بأيديهم . إنهم يكررون بمناسبة وبلا مناسبة نفس الوعد بنفس الألفاظ بنفس الحدود ليستقر في الوجدان أن رغباتهم مشيئة إلهية ينبغى أن تطأطى لها

الرعوس وأن تطاع .

ويرسل يشوع بن نون جاسوسين فينطلقان إلى بيت زانية اسمها راحاب ويضطجعان هناك . وإن ما يثير الدهش أن التوراة تنظر إلى الاضطجاع مع زانية نظرة لا استنكار فيها ؛ فهوذا أبو اليهود جميعا يضطجع مع زوج ابنه وهو يحسبها زانية ، ثم يرسل من يسأل الناس عنها دون مبالاة ، وجاسوسا يشوع ابن نون — ومن المفروض أنهما من مؤمنى بنى إسرائيل — يذهبان إلى زانية ويضطجعان هناك . وإن البابليين كانوا لا يرون عيبا في التسمية بالبغايا بل كانوا يحترمون البغايا لأنهن كن كعشتار إلهة اللذة وقد أخذ الذين كتبوا التوراة في المنفى عن البابليين احترام البغايا واحترام الذين يمارسون الزنى معهن !

هل يعقل أن إلها غيورا يذكر الاضطجاع مع البغايا دون أن يغضب أو يثور ؟ لو أن عشتار هي التي أوحى مثل ذلك القول لصدقناه ، أما رب غيور مثل يهوه رب موسى عليه السلام فلا يعقل أنه يوحى بمثل ذلك الدنس ويرضى عنه .

ويروى كاتب سفر يشوع كيف حمل الكهنة تابوت العهد ، وكيف انحسرت مياه الأردن لما لمست أقدامهم الماء ، وكيف حمل اثنا عشر رجلا من أسباط إسرائيل — رجلا من كل سبط — حجارة من قاع النهر تذكارا لبنى إسرائيل لانفلاق المياه أمام تابوت عهد الرب . ونسى الذى يكتب هذا الإصحاح أنه يكتب وحيا فقال : ونصب يشوع اثني عشر حجرا في وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملي تابوت العهد ، وهى هناك إلى هذا اليوم » .

ويأمر الرب يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوان وأن يختن بنى

إسرائيل لأن الذين ولدوا في التيه لم يختنوا . وهذا أمر محير فقد جعل الرب الحثان عهدا بينه وبين بنى إسرائيل وأمرهم أن يختنوا أولادهم في اليوم السابع من مولدهم ، فهل تعذر على بنى إسرائيل أن يختنوا أولادهم ؟ وإذا كان رجال الحرب لم يختنوا أكانوا يعيشون بلا عهد بينهم وبين ربهم ؟! إن الرب الذى تصوره الذين كتبوا التوراة في المنفى يهتم جدا بالحثان ، حتى إنه يقول بعد أن يتم حثان الرجال : « اليوم قد دحرجت عنهم عار مصر » .

وعلموا الفصح وانقطع المن عنهم لما أكلوا من غلة الأرض ، ثم حملوا تابوت العهد وداروا به حول المدينة سبع مرات في سبعة أيام : « ... وكان في اليوم السابع أنهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات . في ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات ، وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة . فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب ، راحاب الزانية فقط تحيا ، هى وكل من معها في البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما ، وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تُحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلة لإسرائيل محرمة وتكذبوها . وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدسا للرب وتدخل في خزانة الرب . فهتف الشعب وضربوا بالأبواق ، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافا عظيما فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » .

إنها أمنية الذين كانوا في الأسر . إنهم لا يريدون أن يخوضوا حربا للعودة إلى فلسطين بل يتمنون أن ينفخ الكهنة في الأبواق السبعة وأن يهتف الشعب هتافا عظيما فيجد نفسه في أرض فلسطين . أمنية ليست عزيزة على الرب

ولكنها ليست من سنته ، فإن الله ينصر من ينصره . فالمسلمون قد حاربوا الكفار يوم بدر وأبلاؤا بلاء حسنا فأيدهم الله بنصره : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ (١) . ودارت معركة رهيبة لا هوادة فيها يوم أحد بين المسلمين وقريش وقد حصص الله فيها الذين آمنوا واتخذ منهم شهداء . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴿ (٢) . وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴿ (٣) .

إن المؤمنين حقا يقاتلون ويجاهدون ويستشهدون ويصبرون حتى يأتى النصر من عند الله ، أما أن تسقط أسوار المدن إذا ما نفخ في الأبواق وصاحت الأصوات صيحات مدوية فإنه وهم الخالمين .

ويعود الذين كتبوا التوراة إلى الشكوى من الرب عندما ينكسرون في معركة مثلما فعلوا لما أمرهم موسى أن يقاتلوا أعداءهم : « ... وهربوا أمام أهل عاي ، فضرب منهم أهل عاي نحو ستة وثلاثين رجلا ولحقوهم من أمام الباب إلى شاريم وضربوهم في المنحدر . فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء . فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا ترابا على رؤوسهم . وقال يشوع : « آه يا سيد الرب ، لماذا عبّرت هذا الشعب الأردن تعبيرا لكى تدفعنا إلى يد الأموريين لبيدونا . ليتنا ارتضينا وسكننا في عبر الأردن . أسألك يا سيد . ماذا أقول

(١) آل عمران ١٢٣ .

(٢) آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) آل عمران ١٤٦ .

بعد ما حول إسرائيل قفاه أمام أعدائه . فيسمع الكنعانيون وجميع سكان الأرض ويحيطون بنا ويقرضون اسمنا من الأرض . وماذا تصنع لاسمك العظيم » .

كلام لا يمكن أن يصدر عن رجل يوحى إليه ، إنه كلام رجل ليس له عزم وليست له ثقة في ربه ، وإنه نفس ما قيل في البرية . ألا يزال بنو إسرائيل في شك من ربهم حتى بعد معجزة عبور الأردن ؟ لقد كان الشك في قلوب الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وقاد يشوع بنى إسرائيل لحرب عاي وتظاهر بالهزيمة فخرج جميع رجال عاي في أثر بنى إسرائيل ، وكان هناك كمين من بنى إسرائيل خلف المدينة فدخل الرجال المدينة وأحرقوها كما أمرهم الرب — بزعمهم — وقتل بنو إسرائيل جميع سكان عاي وصلبوا ملكها . وبنى يشوع مذبحا للرب إله إسرائيل . ويقول الذين كتبوا التوراة إن ذلك المذبح بنى « كما أمر موسى عبد الرب بنى إسرائيل ، كما هو مكتوب في سفر تورا موسى » . ولا يوجد في التوراة سفر باسم سفر تورا موسى ولعلمهم يقصدون سفر اللاويين فهو السفر الذى وصف الرب لموسى فيه — حسب زعمهم — كيفية بناء المذبح .

ولما سمع جميع الملوك الذين في عبر الأردن في الجبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان — الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والجويون واللبوسيون — اجتمعوا معا لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد » .

وتنشب حروب بين بنى إسرائيل وبين ملوك المنطقة ، ويرمى الرب أعداء بنى إسرائيل بحجارة عظيمة من السماء ويسلط عليهم البرد ، ثم يكلم يشوع (غزوة تبوك)

الرب « يوم أسلم الرب الأمورين أمام بنى إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومي على جيعون ويا قمر على وادى أيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس ذلك مكتوبا في سفر ياشر ... » .
وننقب في التوراة عن سفر ياشر فنكتشف أن ليس له وجود ، فهل كان هناك سفر بهذا الاسم ثم رفع ؟ وماذا كان يحوى ذلك السفر ؟ . ومن ذا الذى رفعه ولماذا رفعه ؟ أسئلة ليس لها جواب .

وينطلق يشوع بن نون يفتح المدن ويقتل الرجال ويشعل في المدن النيران باسم الرب إله إسرائيل : « فلا تكون رافة بل يبادوا كما أمر الرب موسى » .

ولا يختلف الإصحاح الثانى عشر من سفر يشوع عن البلاغات الحربية ، فهو يذكر الملوك الذين انتصر عليهم بنو إسرائيل في تفصيل : « وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع وبنو إسرائيل في عبر الأردن غربا من بعل جاد في بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الصاعد إلى سعين ، وأعطاهما يشوع لأسباط إسرائيل ميراثا حسب فرقهم . في الجبل والسهل والعربة والسفوح والبرية والجنوب الخثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون — ملك أريحا واحد — ملك عاي التى بجانب بيت إيل واحد . ملك أورشليم واحد . ملك حبرون واحد . ملك يرموث واحد . ملك ... » .

أليس هذا بلاغا حريبا وليس بوحي سماوى ، إن الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا ولا شك يتلذذون وهم يكتبون سفر يشوع ، فاللهو بقوة الآباء ونصر الله يشع من بين السطور . كانوا يحلمون بالمجد التالذ ويتمنون لو أن تلك الأيام تعود .

« وشاخ يشوع . تقدم في الأيام . فقال له الرب : أنت قد شخت . تقدمت في الأيام » . ولا يعقل بعد هذه المقدمة أن الرب سينسى وعده ، فلا

عمل له في الأرض لإلتفـيـذ ذلك الوعد ، أو هكذا صوره الذين كتبوا التوراة بأيديهم حتى يخيل لقارئ التوراة أنه ليس إله بني إسرائيل بل قائدهم الحربي ومؤسس ملكهم بلا سند من عدل وقانون . اسمعه يقول أو إذا أردت الدقة فاسمع بماذا أنطقه الذين كتبوا التوراة في المنفى : « وقد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك . هذه هي الأرض الباقية . كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشَّجور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة : الغزى والأشدودي والأشقلوني والجنسى والعقروني والعويين ، من التيمن كل أرض للكنعانيين ومفازة التى للصيدونيين إلى أقيق إلى تخم الأموريين . وأرض الجبليين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة . جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم جميع الصيدونيين . أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل ، إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكا كما أمرتك ... » .

لم يكتفوا بأن جعلوا الرب مهندس مساحة بل جعلوه يقسم الأرض بالقرعة ، يستقسم بالأزلام ، سبحان الله عما يصفون .

وإن الذى يقرأ الإصحاح الثالث عشر والإصحاح الرابع عشر والإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع في إمعان يجد أن الذين كتبوا التوراة في المنفى قد أخذوا حدود المناطق التى نزل بها أسباط بني إسرائيل وجعلوها أوامر من موسى عليه السلام تلقاها من ربه ، فما من شيء في إسرائيل حتى بناء المذبح وصنع الفطير وتابوت العهد إلا بأوامر من السماء ، فما أيسر أن يضع أحرار اليهود الكلام على لسان الرب أو يجعلوه يهتم بتوافه الأشياء ، فقد زعموا أن الرب علمهم كل شيء ، حتى كيفية وضع الفطير صفوفا على المذبح !

وينتهى سفر يشوع بموته ويبدأ سفر القضاة يروى ما كان من بني يهوذا : « وكان بعد موت يشوع أن بنى إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى

الكنعانيين أو لا تحاربهم ؟ فقال الرب : يهوذا يصعد . هو ذا قد دفعت الأرض
ليده ... » .

الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا من نسل يهوذا أبى اليهود ، وقد بدءوا
في هذا الإصحاح يلقون الأضواء على يهوذا ليمهدوا لمجده ، فجعلوه أو بمعنى
أصح جعلوا بنيه يأخذون أورشليم ، وأور معناها مدينة وشليم معناها سلام ،
فهى مدينة السلام أو بيت المقدس . ولم تعرف بهذا الاسم إلا في عهد سليمان
لما بنى الهيكل بها فكيف استخدم الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الاسم قبل
أن يولد داود وسليمان ؟! كانوا يكتبون تاريخا لوحيا يوحى ، فكانوا يقولون
مرة إن يشوع دفن في جبل حارس ، وفي إصحاح آخر يقولون إنه دفن في جبل
سارح . ورووا أكثر من رواية في سبب تسمية بئر سبع ، وسجلوا أحداثا
متناقضة ولا لوم عليهم ولا ترتيب ما داموا يكتبون ما حفظته الذاكرة من وقائع
ماضية مضت عليها سنون طويلة قبل عصر التدوين .

ويعود ملاك الرب في الإصحاح الثالث يذكر بنى إسرائيل بما أنعم الله
عليهم ، ولكن بنى إسرائيل قد اندمجوا في الكنعانيين : « واتخذوا بناتهم
لأنفسهم نساء ، وأعطوا بناتهم لبنينهم وعبدوا آلهتهم . فعمل بنو إسرائيل الشر
في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري ، فحمى غضب
الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك آرام النهرين » .

وبعد ثمانى سنين يتخلص بنو إسرائيل من هذه العبودية ، ولكن ما إن
تنقضى أربعون سنة حتى يعودوا إلى الشرك بالله فعبدوا عجلون ملك مؤاب
ثمانى عشرة سنة بعد أن هزمهم . إنهم مع الله ما داموا منتصرين أما إذا انهزموا
فسرعان ما يعبدون الذى هزمهم ، ولا غرو فهم أهل دنيا لا صلة بينهم وبين
الاستشهاد والآخرة وما أعد للمتقين ، فقد زعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم
أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى لم ييشروا بالبعث والحياة الآخرة .

وقتل إهود عجلون واستولى بنو إسرائيل على مؤاب واستراحت الأرض ثمانين سنة ، ولعلها قد استراحت من كفرهم وعقوقهم وشرهم .
 إنهم لا يستطيعون أن يحافظوا على عبادة الله طويلا فهي عبادة مرتبطة بمنفعة ، فإذا جاءهم النفع عن سبيل آخر فسرعان ما يعبدون الذى جلب لهم النفع أو قهرهم . فبعد أن مات إهود — حسب زعمهم — عادوا يعملون الشر فى عينى الرب فباعهم الرب بيد بايين ملك كنعان حتى قامت دبورة وكانت قاضية بنى إسرائيل فى ذلك الوقت تدعو إلى الثورة على ملك كنعان ، وخرجت مع الخارجين حتى كان النصر ، فصارت دبورة نبية من أنبياء بنى إسرائيل .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يرضون عن الرب إذا نصرهم ، ويولونه ظهورهم إذا حاقت بهم هزيمة . إنهم جعلوا دبورة وباراق اللذين شاركاها فى الحرب يترنمان بمجد الرب : « لأجل قيادة القواد فى إسرائيل ، لأجل انتداب الشعب باركوا الرب . اسمعوا أيها الملوك وأصغوا أيها العظماء . أنا أنا للرب أنرم ، أزمر للرب إله إسرائيل . يارب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء أدوم الأرض ارتعدت . السماوات أيضا قطرت . كذلك السحب قطرات ماء . تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إله إسرائيل » .

ويستمر الذين كتبوا التوراة يصفون فى النشيد ما كان بين بنى إسرائيل وبين الجبابرة والعمالق ، وما انقضى على ذلك النصر أربعون سنة حتى عاد بنو إسرائيل إلى الجهالة فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين . فيقوم رجل يدعوهم إلى الله ويقودهم إلى النصر فيصبح نبيا من أنبياء بنى إسرائيل . فما من رجل أو امرأة يسدى يدا إلى إسرائيل حتى يصبح نبيا يروى فعالة فى التوراة الكتاب الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله .

وسرعان ما يتنكب بنو إسرائيل طريق الرب ويعبدون بعلا إله السورين : ﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ (١). ونسرد إصحاحات القضاة الحروب التي نشبت بين بنى إسرائيل وملوك فلسطين ، فما سككت الحرب بينهم أبدا ، فقد كان بنو إسرائيل مغتصبين للأرض وإن أرادوا أن يلبسوا ذلك الاغتصاب ثوبا دينيا ، جعلوا الرب بعدهم بتلك الأرض وأنطقوه في كل إصحاح من إصحاحات التوراة التي كتبوها بأيديهم بذلك الوعد .

وكان البابليون يذبحون أبناءهم قربانا لآلهتهم ، وقد رأى إبراهيم خليل الرحمن في المنام أنه يذبح ابنه ، فلما هم بذبحه فداه الله بذبح عظيم ، وقد انقرضت عادة ذبح الأبناء بين المؤمنين ولكن تلك العادة ظلت راسخة في أذهان الذين كتبوا التوراة ، أو أنها تجددت لما حملوا إلى المنفى ورأوها في أرض بابل فاستغلوها عند إعادة كتابة التوراة : « فكان روح الرب على يفتاح فغير جلعاد ومُنسَّى وعير مصفات جلعاد ومن مصفاة جلعاد عبر إلى بنى عمون ، ونذريفتاح نذرا للرب قائلا : إن دفعت بنى عمون ليدي فالحارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة ، ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم فدفعهم الرب ليده فضرهم من عروعر إلى مجينك إلى منيت : عشرين مدينة وإلى آيل الكروم ضربة عظيمة جدا ، فذل بنو عمون أمام بنى إسرائيل .

ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته ، وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص وهى وحيدة . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها ، وكان لما رآها مزق ثيابه وقال : آه يا بنتى قد أحزنتنى حزنا وصرت بين مكدرى لأنى قد فتحت فمى إلى الرب . ولا يمكننى الرجوع . فقالت له : يا أبى هل فتحت فاك إلى الرب فافعل لى بكل

(١) الصافات ١٢٥ ، ١٢٦ .

خرج من فيك بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك بنى عمون . ثم قالت لأبيها : فليُفعل لى هذا الأمر . اتركنى شهرين فأذهب وأنزل على الجبال وأبكى عذراوئى وأنا وصاحبائى . فقال : اذهبي . وأرسلها إلى شهرين فذهبت هى وصاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال . وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت إلى أبيها ففعل بها نذره الذى نذر . وهى لم تعرف رجلا . فصارت عادة فى إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعداى أربعة أيام فى السنة » .

قدماء المصريين يلقون بعذراء كل سنة لإلههم النيل ، والبابليون يقدمون أبقارهم على المذبح قربانا للآلهة ، ويفتاح الجلعداى يحرق ابنته البكر قربانا للرب . إنها أساطير الشعوب قد دسها الذين كتبوا التوراة فى سفر القضاة لكيلا يخلو تاريخ بنى إسرائيل من مأساة عاشها شعب من الشعوب الذين عاشوا بينهم ، أو من حكمة أو لحة أدبية ، فقد كان هدفهم ألا يكون لشعب من شعوب الأرض فضل يفوق فضلهم ، حتى الجنس أغرقوا توراتهم فيه ليفوق أنبيأؤهم عشتار إلهة اللذة البابلية والسورية ، وباسنت إلهة اللذة عند قدماء المصريين .

ولم يكن بنو إسرائيل على وفاق دائما فكثيرا ما كانت تنور حروب بينهم « واجتمع رجال أفرام وعبروا إلى جهة الشمال وقالوا ليفتاح : لماذا عبرت لمحاربة بنى عمون ولم تدعنا للذهاب معك . نخرق بيتك عليك بنار ، فقال لهم يفتاح : صاحب خصام شديد كنت أنا وشعبى مع بنى عمون وناديتكم فلم تخلصونى من يدهم ، ولما رأيت أنكم لا تخلصون وضعت نفسى فى يدى وعبرت إلى بنى عمون فدفعهم الرب ليدى فلماذا صعدتم على اليوم هذا لمحاربتى ؟

وجمع يفتاح كل رجال جلعاد وحارب أفرام ، فضرب رجال جلعاد أفرام

لأنهم قالوا : أنتم منفلتو أفرام . جلعاد بين أفرام ومنسى . فأخذ الجلعاديون مخاض الأردن لأفرام . وكان إذا قال منفلتو أفرام : دعوني أعب . كان رجال جلعاد يقولون له : آئت أفرامى ؟ فإن قال : لا . كانوا يقولون له : قل إذا شَبُولت . فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاض الأردن . فسقط في ذلك الوقت من أفرام إثنان وأربعون ألفا ، وقضى يفتاح لإسرائيل ست سنين ، ومات يفتاح الجلعادى ودفن في إحدى مدن جلعاد . « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » (١) .

ويروى الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة ولادة شمشون بعد أن رأت أمه ملاك الرب وبشرها به : « ونزل شمشون إلى تمنة ورأى امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين ، فصعد وأخبر أباه وأمّه وقال : قد رأيت امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين ، فالآن خذاها لى امرأة . فقال له أبوه وأمّه : أليس فى بنات إخوتك وفى كل شعبى امرأة حتى إنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغُلف ؟ فقال شمشون لأبيه : إياها خذ لى لأنها حسنت فى عيني . ولم يعلم أبوه وأمّه أن ذلك من الرب لأنه كان يطلب علة من الفلسطينيين . وفى ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل » .

هذا القول يستحق سؤال . إن موسى عليه السلام أوصى قومه قبل أن يموت — حسب أقوال الذين كتبوا التوراة — ألا يتزوجوا من الفلسطينيين . فكيف لم يقطع شمشون الذى اصطفاه الرب للانتقام من الفلسطينيين أوامر موسى رجل الرب ؟ يقول الذين كتبوا التوراة إن شمشون كان يلتمس بذلك الزواج علة للانتقام من الفلسطينيين ، فمتى كان بنو إسرائيل يلتمسون علة إذا آنسوا فى أنفسهم قوة للبطش بأعدائهم ؟ إن دعوى التماس العلة تتنافى مع

القول بأن المرأة قد حسنت في عيني شمشون ، فما دامت قد صادفت هوى في نفسه فقد طلب الزواج منها استجابة لدواعي الهوى لا لأنه كان يلتمس سببا لإنقاذ بنى إسرائيل من الدل المهين .

« فنزل شمشون وأبوه وأمه إلى تمّنة وأتوا إلى كروم تمّنة ، وإذا بشبل أسد يزجر للقائه ، فحل عليه روح الرب فشقه كشق الجدّى وليس في يده شيء . ولم يخبر أباه وأمه بما فعل فنزل وكلم المرأة فحسنت في عيني شمشون ، ولما رجع بعد أيام لكى يأخذها مال لكى يرى رمة الأسد ، وإذا دبّر من التحل في جوف الأسد مع عسل . فاشتار منه على كفه وكان يمشى ويأكل . وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا ، ولم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل . ونزل أبوه إلى المرأة فعمل هناك شمشون وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان . فلما رأوه أحضروا ثلاثين من الأصحاب فكانوا معه . فقال لهم شمشون : لأحاجينكم أحجية ، فإذا حللتموها لى في سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيتكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . وإن لم تقدروا أن تحلوها لى تعطوني أنتم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . فقالوا له : حاج أحجيتك فنسمعها . فقال لهم : « من الآكل خرج أكل ، ومن الجافى خرجت حلالة » .

ألا تذكرك هذه الأحجية بافتتاح مسرحية أوديب ؟ إن بنى إسرائيل كانوا على صلة بأدب اليونان والرومان أن كانوا في المنفى . إنهم قرعوا ولا ريب الأدب اليونانى والرومانى وقد اطلعوا على حكم الشيخ اليونانى ورموزه وأمثاله فقلدوها وقلدوا « الاسفنكس » في مسرحية أوديب ، وإن الأسلوب الذى كتب به الذين كتبوا التوراة لما قصوا قصة شمشون لا يختلف عن أسلوب ألف ليلة وليلة : « فلم يستطيعوا أن يحلوا الأحجية في ثلاثة أيام ، وكان في اليوم السابع أنهم قالوا لا امرأة شمشون : تملقى رجلك لكى يظهر لنا الأحجية لئلا

نحرقك ويبت أليك بنار . ألتسلبونا دعوتموننا أم لا ؟ » . أليس الحق في جانبهم ؟ أيعقل أن نيبا اصطفاه الله يقامر ببعض رموز مستغلا حادثا قد وقع له لا علم لأحد به ؟ : « فبكت امرأة شمشون لديه وقالت : إنما كرهتني ولا تحبني ، قد حاجيت بنى شعبي أحجية وإياي لم تخبر . فقال لها : هو ذا أبنى وأمى لم أخبرهما فهل إياك أخبر ؟! فبكت لديه السبعة الأيام التي فيها كانت الوحيدة ، وكان في اليوم السابع أنه أخبرها لأنها ضايقته فأظهرت الأحجية لبني شعبها . فقال له رجال المدينة في اليوم قبل غروب الشمس أى شيء أحلى من العسل وما أجفى من الأسد ... » .

ولننظر الآن ماذا فعل الرجل الذى اصطفاه الرب : « ... وأمسك ثلاثمائة ابن آوى وأخذ مشاعل وجعل ذنبا إلى ذنب ووضع مشعلا بين كل ذنين في الوسط ، ثم أضرم المشاعل نارا وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فأحرق الأكداس والزروع وكروم الزيتون ... » .

وأحب شمشون ذليلة وعرفت أن سر قوته في شعره ، لأن الموسى لم تمسه فهو نذير الله . وتخون ذليلة حبيبها وتقص شعره ، ومن عجب أن الله يفارقه كأنما كانت الروح تسرى في شعره ، فأخذته الفلسطينيون وسملوا عينيه ووضعوه في السجن . وذات يوم بينما كانوا يلعبون في الملعب أتوا بشمشون ليسخروا منه ، فلما توسط المكان قال للغلام الذى كان يقوده : دعنى ألمس الأعمدة التى يقوم عليها البيت ، وكان البيت مملوءا رجالا ونساء ، وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة .

وقبض شمشون على العمودين اللذين كان البيت قائما عليهما وقال : تحت نفسى مع الفلسطينيين . وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتي الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته .

قصة طريفة مأخوذة من الأدب الإسرائيلي ولكنها لا يمكن أن تكون وحيا ، فلا يعقل أن الرب يروى في بساطة أن شمشون لما ذهب إلى غزة رأى هناك امرأة زانية فدخل إليها ، ولا يمكن أن نتصور أن الرب يقص قصة لا تخرج منها البشرية بعبرة . إن شمشون لم يضع موسى على رأسه لأنه نذر للرب فهل كل من يطلق شعره وينذر للرب يكون مثل شمشون ؟ إنها قصة من خيال الذين كتبوا التوراة في المنفى بعد أن قرءوا قصص جلجاميش البابلية ومغامرات آلهة بابل وأساطير أبطالها .

ونترك لإصحاحات سفر القضاة وما فيها من أقاصيص والتأرجح بين غضب الرب ورضاه وسفراعوث ، ولا أدري حكمة سرد قصتها في التوراة غير أنها أنجبت عوبيد وهو أبو يسى ويسى أبو داود وداود في نظر الذين كتبوا التوراة في المنفى هو أول ملك من نسل يهوذا ، وإنه لشيء عظيم عند الذين كتبوا التوراة أن يكون ملكا من أن يكون نبيا ، فما أكثر الأنبياء في بني إسرائيل وما أعظم الملوك ما دامت جنتهم أرضية .

ونقرأ معا سفر صموئيل الأول فنعلم أن الرب بعد أن كان إله إسرائيل أصبح رب الجنود ، وأن ألقانة بن برّوحام بن أليهو بن ثوحو بن صوف له امرأتان إحداها حنة والأخرى فتنة ، وأن لفتنة أولادا أما حنة فلم يرزقها الله الولد ، فابتهلت إلى الرب وقالت : « يا رب الجنود إن نظرت نظرا إلى مذلة أمّتك وذكرتني ولم تنس أمّتك بل أعطيت أمّتك زرع بشر فأني أعطيه للرب كل أيام حياته ، ولا يعلو رأسه موسى » . ووضعت حنة ذكرا ودعته صموئيل ، « قائلة لأني من الرب سألته » .

وبعد أن فطمت حنة صموئيل قدمت للرب ثلاثة ثيران ودقيقا وزق خمر ، ووهبت صموئيل للمعبد ، وكان على كاهن المعبد وكان أبنائه يأخذون لحوم الذبائح ولا يحرقون الشحم للرب : « وشاخ على جدا وسمع بكل ما عمله

بنوه بجميع إسرائيل وأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع » ، وكان صموئيل يعبد الرب وينام مع الكاهن في المعبد . وذات يوم ناداه الرب ثلاث مرات وهو يحسب أن الكاهن عالى يناديه فيذهب إليه ، فيقول له عالى : « لم أدع يا بنى ، ارجع اضطجع . وعاد الرب فدعا صموئيل الثالثة . فقام وذهب إلى عالى وقال هاأنذا لأنك دعوتنى . ففهم عالى أن الرب يدعو الصبى ، فقال عالى لصموئيل : اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يا رب لأن عبدك سامع . فذهب صموئيل واضطجع في مكانه .

فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأولى : صموئيل صموئيل ، فقال صموئيل : تكلم لأن عبدك سامع . فقال الرب لصموئيل : هوذا أنا فاعل أمرا في إسرائيل . كل من سمع به تظن أذناه . في ذلك اليوم أقيم على عالى كل ما تكلمت به على بيته . ابتدء وأكمل . وقد أخبرته بأنى أقضى على بيته إلى الأبد من أجل الشر الذى يعلم أن بنيه قد أوجبوا به اللعنة على أنفسهم ولم يردعهم ، ولذلك أقسمت لبيت عالى أنه لا يكفر عن شر بيت عالى بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد » .

الرب يقف كما يقف الإنسان وينادى على النائم ويغفر الذنوب لا بتوبة نصوح بل بذبيحة ، وهو يقبل الخمر ، فما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون . « واضطجع صموئيل إلى الصباح وفتح أبواب بيت الرب ، وخاف صموئيل أن يخبر عالى بالرؤيا فدعا عالى صموئيل وقال : يا صموئيل ابنى . فقال : هاأنذا . فقال : ما الكلام الذى كلمك به ؟ لا تخف عنى » . وأخبر صموئيل عالى بما أوحى إليه ، وكبر صموئيل وكان الرب معه ، وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أن صموئيل صار نبيا للرب . ونشبت الحرب بين الفلسطينيين وبين إسرائيل ، وانكسرت إسرائيل :

« وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا الرب أمام الفلسطينيين ؟ لناخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من أعدائنا ، فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود ... » . أصبحت إسرائيل في أرض اللبن والعسل كما يقول الذين كتبوا التوراة ، فأصبحوا في غنى عن الرب الرازق ، ولكنهم كانوا في حرب على الدوام مع الفلسطينيين ، فهم في حاجة إلى رب ينصرهم على أعدائهم ، فأصبح الرب رب الجنود فهم في غنى عنه في كل شيء إلا الحرب .

ودارت الحرب وتابوت عهد الرب مع الإسرائيليين ، وعلى الرغم من ذلك : « انكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته » وكانت الضربة عظيمة جدا وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل ، وأخذ تابوت الله ومات ابنا على حفني وفينحاص .

ومات على لما سمع أن تابوت العهد قد أخذه الفلسطينيين ، ووجت إسرائيل وقالوا : « قد زال المجد من إسرائيل » .

انهزمت إسرائيل ولكن تابوت العهد الذي وضع في أشدود انتقم من الأشدوديين ونقل التابوت إلى جت ، فأصاب أهالي جت بالبواسير كما فعل بأهالي أشدود ، فأرسل التابوت إلى عقرون ففزع منه الناس ، خافوا أن يذوقوا الموت بسببه وقد ضربوا بالبواسير ، فأفتى الكهنة والعرافون برد التابوت ورشوة إله إسرائيل بذهب ، ففعلوا ذلك ، ففرح إسرائيل برد تابوت الرب ، ولا شك أن فرحهم كان أكبر بالصندوق الذي ملئ ذهباً .

أيعقل إن إسرائيل وتابوت العهد يحاربون وينهزمون ثم ينتصر تابوت العهد وحده على الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه بلا حرب إلى إسرائيل بعد سبعة أشهر !؟ أيمكن أن يصدق مؤمن أن هذا وحى الله ؟ إن الله ينصر من ينصره وما كان ليحارب عن قوم يأتون النساء على باب بيته ، على باب خيمة

الاجتماع ، ولكنها أحلام الذين كتبوا التوراة في المنفى .
 وكان بنو إسرائيل يعبدون بعلا وعشتار فقال لهم صموئيل : إن كنتم بكل
 قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم
 وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده ، فينقذكم من يد الفلسطينيين . فنزع بنو
 إسرائيل البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب وحده .
 وانتصر صموئيل على الفلسطينيين واستعاد المدن التى أخذها
 الفلسطينيون من إسرائيل ، ولولا ذلك النصر لما كان لصموئيل ذكر في
 التوراة ، فكل من انتصر على الفلسطينيين جعلوه نبيا يقضى بين بنى
 إسرائيل .

وكان لما شاخ صموئيل أن جعل بنيه قضاة لإسرائيل ، وأخذ ابنه الرشوة
 ولم يحكما بالعدل فجاء شيوخ إسرائيل إلى صموئيل وقالوا له : « هو ذا أنت
 قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك . فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر
 الشعوب . فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكا يقضى لنا ، وصلى
 صموئيل إلى الرب فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب في كل ما
 يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم ،
 حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أضعدهم من مصر إلى هذا اليوم
 وتركوا عبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع
 لصوتهم ، ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم .
 فكلهم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب ، وقال :
 هذا يكون قضاء الملك الذى عليكم ، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمرأسته
 وفرسانه فيركضون أمام مرأسته ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين
 فيحرقون حرثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مرأسته .
 ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم

وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي
لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم
ويستعملكم لشغله . ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا ، فتصرخون في
ذلك اليوم من وجه ملككم الذي أخذتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب
في ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعو الصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون
علينا ملك . فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج
أمامنا ويحارب حروبنا . فسمع صموئيل كل كلام الشعب وتكلم به في أذني
الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا . فقال
صموئيل لرجال إسرائيل اذهبوا كل واحد إلى مدينته .

أليس أمر إسرائيل عجبا ؟ تابوت الرب يحارب وحده الفلسطينيين
ويرغمهم على أن يعيدوه إلى أعدائهم ثم يطلب بنو إسرائيل ملكا ليخرج
أمامهم ويحارب حروبهم ؟ وهل يستطيع ذلك الملك أن يفعل أكثر مما فعل
تابوت العهد ؟ وإذا وقع ذلك الملك في الأسر أيسطيع وحده أن يضرب
الفلسطينيين وأن يرغمهم على أن يعيدوه ومعه صندوق ملء ذهباً ؟ إن الذين
كتبوا التوراة في المنفى عاجزون عن صياغة قصة محبوبة تقود مقدماتها إلى
نتائجها الطبيعية ، وإنهم جاهلون ماهية الرب وقدرته ، فقد جعلوا صموئيل
يسمع كلام الشعب ويتكلم به في أذني الرب ، كأثما الرب في حاجة إلى من
ينقل إليه كلام الناس : « ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض
ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى
من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن
الله بكل شيء عليم » (١) .

كان النبي يدعى الرائي ، وقد وقع اختيار صموئيل الرائي بوحي من الله على

شاؤل ، فأخذ صموئيل قينة الدهن وصب على رأس شاؤل وقبلة « واستدعى صموئيل الشعب إلى الرب إلى المصفاة وقال لبنى إسرائيل : هكذا يقول الرب إله إسرائيل : إني أصعدت إسرائيل من مصر وأنقذتكم من يد المصريين ومن يد جميع الممالك التى ضايقتكم ، وأنتم قد رفضتم اليوم إلهكم الذى هو مخلصكم من جميع الذين يسيئون إليكم ويضايقونكم وقتلتم له بل تجعل علينا ملكا ، فالآن امثلوا أمام الرب حسب أسباطكم وألوفكم . فقدم صموئيل جميع أسباط إسرائيل فأخذ سبط بنيامين ثم قَدَّم سبط بنيامين حسب عشائره فأخذت عشيرة مطرى وأخذ شاؤل بن قيس ، ففقتشوا عليه فلم يوجد ، فسألوا أيضا من الرب هل يأتى الرجل أيضا إلى هنا ؟ فقال الرب : هو ذا قد اختبأ بين الأمتعة . فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق . فقال صموئيل لجميع الشعب : أرايتم الذى اختاره الرب لكم ؟ إنه ليس مثله فى جميع الشعب . فهتف كل الشعب وقالوا : ليحيى الملك . فكلّم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه فى السفر ووضعه أمام الرب ... » .

والله إنه لشيء محير . بنو إسرائيل يرفضون إلههم ويطلبون ملكا ، فيستجيب لهم الإله المرفوض ويختار لهم ذلك الملك ويعاون على اختياره نبي الله صموئيل ! هل يعقل أن نبيا يطيع قومه فى معصية وياليتها معصية عادية ، إنها رفض حكم الله والتماس ملك أرضى يقضى بينهم . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يتلهفون على ملك يعيدهم إلى أرض فلسطين فأساءوا الأدب مع ربهم ، ما دام ذلك الرب لا يحملهم إلى الأرض التى يطمعون فيها .

وفى الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الأول بداية التفريق بين بنى إسرائيل ورجال يهوذا وإن كان ذلك التفريق سابقا لأوانه ، فلم يشتد ساعد اليهود وهم بنو يهوذا إلا بعد أن صار الملك لداود ولابنه سليمان من بعده ، فإنه

لما أوشكت الحرب تنشب بين أهل عمان وبنى إسرائيل .. « فوقع رعب الرب على الشعب ، فخرجوا كرجل واحد وعدهم (شاول) في بازق فكان بنو إسرائيل ثلاثمائة ألف ورجال يهوذا ثلاثين ألفا » .

وانتصر صموئيل وشاول على أعداء بنى إسرائيل ، ونصب شاول ملكا على إسرائيل وصار مسيح الرب « وأخذ شاول الملك على بنى إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواله مؤاب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين ، وحيث توجه غلب » .

وقال الذين كتبوا التوراة إن رب الجنود أمر شاول أن يحارب العماليق وأن يقتل رجالهم ونساءهم ، فخرج شاول في مائتي ألف رجل وعشرة آلاف رجل من يهوذا ، فقتل كل الرجال واستحى كل ما هو جيد من الغنم والبقر والخراف ، وقتل كل ما هو هزيل وحقير .

وقد بلغ الذين كتبوا التوراة منتهى السفاهة لما كتبوا : « وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا : ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورأى ولم يُقم كلامى ، فاغتاظ صموئيل وممرخ إلى الرب الليل كله » . علام الغيوب يندم على أنه اختار شاول ملكا ، عالم الغيب والشهادة لم يكن يعرف سريرة الرجل الذى اختاره لملك إسرائيل . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى تحببوا تحبباً أعمى عندما كتبوا سفر صموئيل الأول ، جعلوا الرب مع علمه أن بنى إسرائيل يرفضون حكمه ويتمسكون حكم ملك يختار ذلك الملك ويأمر نبيه أن يمسه ثم يعود ويندم على اختياره لذلك الملك .

صورة مضطربة لا تستقيم لمنطق ، ونقائص تنسب إلى رب العزة سبحانه وتعالى عما يصفون . أفليس لهم قلوب يبصرون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ويذهب صموئيل بأمر الرب إلى بيت لحم وهو يرتجف من شاول ، ويزعم (غزوة توبك) .

أنه ذاهب ليدبح للرب بينا كان منطلقا لمسح غلاما من أبناء يسي . وعرض يسي أبناءه على صموئيل فرفضهم جميعا ، وسأل عما إذا كانوا قد كملوا فقال يسي : « بقي بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم . فقال صموئيل ليسى : أرسل وأت به ، لأننا لا نجلس حتى يأتى إلى هنا . فأرسل وأتى به ، وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر ، فقال الرب : قم امسحه لأن هذا هو . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا ، ثم قام صموئيل وذهب إلى الرامة .

وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب !
(هذا كلام الذين كتبوا التوراة بأيديهم) .

فقال عبيد شاول له : هو ذا روح ردىء من قبل الله ييغتك . فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردىء من قبل الله أنه يضرب بيده فتطيب .
(أهذا وحى أم كلام كهان أم كدية زار ؟) .

فقال شاول لعبيده : انظروا إلى رجلا يحسن الضرب وأتوا به إلّى . فأجاب واحد من الغلمان وقال : هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البتلحمى يحسن الضرب ، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . فأرسل شاول رسلا إلى يسي يقول : أرسل إلى داود ابنك الذى مع الغنم . فأخذ يسي حمارا حاملا خبزا وزق خمر وجدى معزى وأرسلهما بيد داود ابنه إلى شاول -- فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جدا وكان له حامل سلاح . فأرسل شاول إلى يسي يقول : ليقف داود أمامى لأنه وجد نعمة فى عينى . وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء » .

أهذه وظيفة رجل الرب معه ؟! وهل إذا أراد الله بشاول سوءا يستطيع عود

داود أن يرده عنه ؟ إن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بأساطير بابل وبالأرواح الشريرة التي كانت تطرد بالبخور وبالأغاني والأناشيد . ومن أين عرف عبيد شاول أن روحا شريرة من قبل الرب قد حلت به ؟

ووقف جيش شاول على جبل ووقف جيش الفلسطينيين على جبل والوادي بينهم ، « فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت طوله ست أذرع وشبر ، وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابساً درعا حرسفيا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس ، وجر موقاً نحاس على رجليه ، ومزراق نحاس بين كتفيه ، وقناة رمحه كنول النساجين ، وسنان رمحه ستمائة شاقل حديد ، وحامل الترس كان يمشى قدامه . فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم : لماذا تخرجون لتضطفوا للحرب ؟ أما أنا الفلسطيني وأنتم عبيد لشاول . اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلى فإن قدر أن يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيدا . وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيدا . وتخدمونا .

ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جدا .

وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحا ومساء أربعين يوما ، فقال يسي لداود ابنه : خذ لإخوتك (وكانوا ثلاثة في جيش شاول) إيفة من هذا الفريك وهذه العشر خبزات واركض إلى المحلة إلى إخوتك . وهذه العشر القطعات من الخبز قدمها لرئيس الألف وافتقد سلامة إخوتك وخذ منهم عربونا . وكان شاول وهم وجميع رجال إسرائيل في وادي البطم يحاربون الفلسطينيين .

فبكر داود صباحا وترك الغنم مع حارس وحمل وذهب كما أمر يسي وأتى إلى المتراس والجيش بخارج إلى الاصطفاف وهتفوا للحرب . واصطف

إسرائيل والفلسطينيون صفا مقابل صف . فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . وفيما هو يتكلم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا فقال رجال إسرائيل : أرايتم هذا الرجل الصاعد ليعير إسرائيل هو صاعد ، فيكون أن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيل . ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرا في إسرائيل .

ويضرب داود جليات بالمقلع : « ومد داود يده إلى الجراب وأخذ منه حجرا ورماه بالمقلع وضرب الفلسطيني في جبهته فسقط على وجهه ، فأسرع داود إليه فقتله » .

وإن قارئ هذه القصة ليقف حائرا يتساءل : ألم يأخذ شاول داود ليضرب له بالعود ؟ فكيف عاد إلى رعى غنم أبيه ؟ وهل كان داود غلاما أو رجلا لما قتل جليات ؟ فشاول يقول له : لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام ، بينما يقول غلام شاول لما كلمه عن داود : وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . إن قارئ التوراة كثيرا ما تتابه حيرة ويتساءل : هل يكتب التوراة أكثر من كاتب ؟ إن كل الدلائل تدل على أن أكثر من واحد قد اشتركوا في كتابتها وإلا لما وجدت المتناقضات التي تفيض بها التوراة .

إن القرآن الكريم قد روى هذه القصة ، فشاول هو طالوت وجليات هو جالوت ، وإن عبارات القرآن تنبض بالحياة وتشع إيماننا : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم

والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا
 أننى يكون له المُلْك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال
 إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء
 والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سَكينة من
 ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم
 إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن
 شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا
 منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم
 بالجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة
 كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ
 علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزم موهم بإذن الله
 وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله
 الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ^(١) .
 قتل داود جليات ، ومع أن داود كان يضرب العود لشاول فإن الذين كتبوا
 التوراة ينسبون ذلك فيقولون عند عودة داود برأس جليات : « فقال له
 شاول : ابن من أنت يا غلام ؟ فقال : داود بن عبدك يسى البتلمحى » .
 عجيب أمر شاول أو عجيب أمر الذين كتبوا التوراة . أنسى شاول الخبز وزق
 الخمر والجدى كل هذه الأشياء التى حملها داود معه هدية للملك يوم جاءه
 ليضرب العود ليطرد الروح الشريرة التى كانت تحل به من قبل الرب ؟! ألم
 يحبه جدا وكان له حامل سلاح ؟ فكيف نسيه وكيف يسأل عنه !
 وكعادة كتاب التوراة جعلوا الغدر شيمة الأنبياء ، فقد خرجت النساء من
 جميع مدن إسرائيل يرقصن احتفالاً بالنصر وارتفعت أصواتهن بالغناء . فكان

مديحهن لداود يفوق مديحهن لشاول ، فحقد شاول على داود : « وقال شاول لداود : هو ذا ابنتي الكبيرة مَيرب أعطيك إياها امرأة . إنما كن لي ذا بأس وحارب حروب الرب ، فإن شاول قال لا تكن يدي عليه . بل لتكن عليه يد الفلسطينيين ، فقال داود لشاول : من أنا وما هي حياتي وعشيرتي أُنِي في إسرائيل حتى أكون صهر الملك ؟ » .

و لم يتزوج داود ميرب وأحب ميكال ابنة شاول داود : « فأخبروا شاول فحسن الأمر في عينيه ، وقال شاول : أعطيه إياها فتكون له شركا وتكون يد الفلسطينيين عليه . وقال شاول لداود ثانية تصاهرني اليوم » . وكان مهر داود مائة غلقة من الفلسطينيين أعداء الملك « وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين » . فخرج داود ورجاله لقتال الفلسطينيين فقتل منهم مائتي رجل ، وأتى داود بغلفهم وتزوج ميكال .

يقول كتاب التوراة في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول ، إن أحد غلمان الملك قال له وهو يحدثه عن داود : « قد رأيت ابناً ليسى البتلحمى يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه » . ثم يعودون ليقولوا في الإصحاح الثامن عشر : « وكان شاول يخاف داود لأن الرب كان معه » . ولما قتل داود مائتين من الفلسطينيين قالوا : « فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود .. وعاد شاول يخاف داود بعد وصار شاول عدوا لداود كل الأيام » . لقد علم شاول ثلاث مرات أن الرب مع داود فكيف خطر له على قلب أن الرب يتخلى عن رجله ويتركه لأعدائه الغلف يقتلونه تنفيذا لرغبة ملك حقود ! شتان بين شاول في التوراة وطالوت في القرآن المجيد . فشاول التوراة اصطفاه الرب وهو كاره لذلك الاصطفاء ثم ندم على أن جعله ملكا على إسرائيل ، أما طالوت في القرآن فقد اصطفاه الله على

علم والله يعطى ملكه من يشاء وقد زاده بسطة في العلم والجسم ، وآية علمه أنه لما هم بقتال الأعداء عرف أين يتوجه ومن يدعو فوقف هو ورجاله المؤمنون يدعون ربهم : « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » (١) .

كانت أفئدة الذين كتبوا التوراة في المنفى قد ملكت حقدا على كل شيء ، فانعكس ذلك الحقد على كل ما كتبه فإذا بتصرفات الملوك الذين اصطفاهم الله بل والأنبياء الذين بعثوا لهداية البشر تنبض بالحقد بل بالخسة في كثير من الأحيان .

« وكلم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود ، وأما يوناثان بن شاول فسر بداود جدا ، فأخبر يوناثان داود قائلا : شاول أبى ملتمس قتلك ، والآن فاحفظ على نفسك إلى الصباح وأقم في خفية واختبئ ، وأنا أخرج وأقف بجانب أبى في الحقل الذى أنت فيه وأكلم أبى عنك وأرى ماذا يصير وأخبرك ، وتكلم يوناثان عن داود حسنا مع شاول أبيه وقال له : لا يخطئ الملك إلى عبده داود لأنه لم يخطئ إليك ، ولأن أعماله حسنة لك جدا فإنه وضع نفسه بيده وقتل الفلسطينيين فصنع الرب خلاصا عظيما لجميع إسرائيل . أنت رأيت وفرحت فلماذا تخطئ إلى دم برىء بقتل داود بلا سبب ؟ فسمع شاول لصوت يوناثان وحلف شاول : حتى هو الرب لا يقتل . فدعا يوناثان داود وأخبره يوناثان بجميع هذا الكلام ، ثم جاء يوناثان بداود إلى شاول فكان أمامه كأمس وما قبله .

وعادت الحرب تحدث فخرج داود وحارب الفلسطينيين وضربهم ضربة عظيمة فهربوا من أمامه . وكان الروح الرديء من قبل الرب على شاول وهو

جالس في بيته ورمحه بيده . وكان داود يضرب بالعود فالتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى إلى الحائط ، ففر من أمام شاول فضرب بالرمح إلى الحائط . فهرب داود ونجا تلك الليلة . فأرسل شاول رسلا إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح . فأخبرت داود ميكال امرأته قائلة : إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غدا . فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا ونجا .

« فهرب داود ونجا وجاء إلى صموئيل في الرامة وأخبره بكل ما عمل به شاول ، وذهب هو وصموئيل وأقاما في نايوت . فأخبر شاول وقيل له : هو ذا داود في نايوت في الرامة . فأرسل شاول رسلا لأخذ داود ، ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبئون وصموئيل واقفا رئيسا عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبئوا هم أيضا ، وأخبروا شاول فأرسل رسلا آخرين فتنبئوا هم أيضا ، ثم عاد شاول فأرسل رسلا ثلاثة فتنبئوا هم أيضا ، فذهب هو أيضا إلى الرامة وجاء إلى البشر العظيمة التي عند سيمخو وسأل وقال : أين صموئيل وداود ؟ فقيل ها هما في نايوت في الرامة . فذهب إلى هناك إلى نايوت في الرامة فكان عليه أيضا روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت في الرامة . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل ، لذلك يقولون : إن شاول أيضا بين الأنبياء . »

أكانت النبوة عدوى حتى إن كل من يقترب من صموئيل يتنبأ وتحل عليه روح الله ؟ أم كانت النبوة في نظر الذين كتبوا التوراة الانقطاع للعبادة ؟ وإن كان شاول من الأنبياء أتليق الأفعال التي نسبوا إليه بنبي ؟ وإذا كانت روح الله عليه فلماذا ندم الرب لأنه اصطفاه ملكا لبنى إسرائيل ؟ إنها أقاويل كهان اهتزت في أذهانهم صفات الله تعالى لما اختلطت بصفات آلهة البابليين وقدماء

المصريين وما وصل إليهم من صفات آلهة اليونان والرومان ، فقد كانوا في بابل في تلك العهود الساسانية التي تسربت فيها الآداب اليونانية والرومانية إلى العراق وإيران .

وعلى الرغم من أن شاول قد تنبأ — على زعم الذين كتبوا التوراة — فإن قلبه لم يبرأ من عداوة داود . إنه يريد قتله ، فيرسل يونانان إلى داود أن يهرب من وجه أبيه فيفر داود إلى أخيمالك الكاهن ، ثم إلى أخيش ملك جت . فلما يحس بالخطر يتظاهر بالجنون أمام الملك ، ثم يلجأ إلى مغارة « فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه هناك واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا ، وكان معه نحو أربعمائة رجل .. » .

شاول — على رأى الذين كتبوا التوراة — كان نبيا ، وكان داود نبيا ، فهل يمكن أن نتصور أن نبيين أرسلهما الله يتنازعان السلطة الأرضية ؟ وهل ذلك النزاع الذى شب بين النبيين يمكن أن يكون قدوة للبشر ؟ إن شاول زوج داود ابنته ولم تكن نيته خالصة فلم يزوجه إياها لأنه داود النبى . وما أراد بذلك الزواج وجه الله أو حتى وجه يهوه ، بل أراد بذلك الزواج أن يكون داود في قبضة يده يسحقه متى شاء . إنها أخلاق أنبياء بنى إسرائيل كما تصورها الذين كتبوا التوراة في المنفى .

وراح شاول يتتبع داود : « ... وكان هناك كهف فدخل شاول لكى يغطى رجله ، وداود ورجاله كانوا جلوسا في مغابن الكهف ، فقال رجال داود له : هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب : هاأنذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن فى عينيك ، فقام داود وقطع طرف جبة شاول سرا ، وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه على قطعه طرف جبة شاول . فقال لرجاله : حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب فأمد يدي إليه لأنه

مسيح الرب هو . فوبخ داود رجاله بالكلام ولم يدعمهم يقومون على شاول .
وأما شاول فقام من الكهف وذهب في طريقه ، ثم قام داود بعد ذلك وخرج
من الكهف ونادى شاول قائلاً : يا سيدى الملك . ولما التفت شاول إلى ورائه
خر داود على وجهه إلى الأرض وسجد . وقال داود لشاول : لما إذا تسمع كلام
الناس ... ؟ » . داود النبى يخر ساجدا لبشر بينما دحية الكلبي لما أرسله رسول
الله ﷺ — إلى هرقل بكتاب وأشاروا عليه أن يسجد لقيصر أبى وقال :
لا أسجد إلا لله . إن داود لم يخر ساجدا لشاول ولا ريب ولكنها خيالات الذين
كتبوا التوراة فى المنفى الذين كانوا يخرّون سجّدا لقورش ودارا وأخشوئروش
وكل أكاسرة الفرس الذين أحسنوا إليهم بعد أن علمهم « زرادشت » احترام
أهل الكتاب .

وقال شاول لداود : أنت أبر منى . لأن داود أتاحت له فرصة القضاء على
شاول ولكنه لم يفعل ، ولم يكن هم شاول إلا الدنيا فقد التمس من داود أن
لا ينقطع نسله من بعده ولا يبيد اسمه من بيت أبيه . ومات شاول وقام داود
ونزل إلى برية فاران .

وتزوج داود أيبجايل ، امرأة رجل أراد أن يؤدبه داود ولكن أيبجايل
خرجت تستعطف داود فقبل شفاعتها ، وبعد أن مات زوجها أرسل إليها رسله
يعرض عليها الزواج فتهللت بالفرح وخرجت إليه . ثم اتخذ داود امرأة أخرى
زوجة ولم يحرك تعدد أزواج داود أقلام المستشرقين الحاقدين على الإسلام
ونبى الإسلام ، فما كتب أحد منهم حرفا واحدا ينتقد أنبياء التوراة الذين
أسرفوا فى عدد الزيجات وإن سودوا الصفحات لانتقاد نبى الإسلام الذى جاء
ليحدد الزواج الذى كان بلا حدود ، فما كانوا يقصدون وجه الحقيقة
وما كانوا محايدين كما يحاولون أن يوهموها الناس على الدوام ، بل كان الغرض
يملاً عقولهم والحقد يفيض فى أفئدتهم والافتراء يتدفق من أسنة أقلامهم ، فهم

ألد الخصام .

وجعل الذين كتبوا التوراة في المنفى نبينهم شاول يستعين بالجان ويحضر صموئيل الذى مات : « ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل شاول من الرب فلم يجبه لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعبيده : فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسأله . فقال له عبده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك . فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فلماذا تصنع شركا لنفسى تقيتها ؟ فحلف لها شاول بالرب قائلا : حى هو الرب إنه لا يلحقك إثم فى هذا الأمر . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى لى صموئيل . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول ؟ فقال لها الملك : لا تخافى فماذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . فقال لها : ما هى صورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجمية . فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد . فقال صموئيل لشاول : لماذا أفلقتنى بإصعادك إياى ؟ فقال شاول : لقد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقتى ولم يعد ينجينى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع . فقال صموئيل : ولماذا تسألنى والرب قد فارقتك وصار عدوك ؟ وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى وقد شق الرب المملكة من يديك وأعطاها لقريبك داود . لأنك لم تسمع لصوت الرب ولم تفعل حُمو غضبه فى عماليق ، لذلك قد فعل الرب بك هذا الأمر اليوم ... » .

ألا يذكر الاستعانة بالجن لإقامة الميت من قبره بحكايات ألف ليلة

وليلة؟! وألا يحيرك أمر شاول؟ إن الله اصطفاها ملكا لبني إسرائيل ثم ندم على ذلك، ثم عاد وجعله نبيا ثم فارقه وعاداه! أيمكن أن يختار الرب نبيا ثم يعزله؟! إن قصة شاول كما رواها الذين كتبوا التوراة بأيديهم إن دلت على شيء فإنما تدل على أن إله إسرائيل لا يعلم الغيب وأنه يتخبط في اختيار أنبيائه وأنه يصطنى بعضهم دون علم، فإذا نطقوا بهوى نفوسهم طردهم من رحمته وناصبهم العداة.

إنهم تصوروا إله إسرائيل كملك أرضى من الملوك الذين عاشوا بالقرب منهم يقدمون إليهم بنات اليهود الجميلات، إنه يختار ثم يتضح له سوء اختياره فيندم ثم يصب جام غضبه على من وقع عليه الاختيار.

لماذا حقد الذين كتبوا التوراة على شاول؟ لأنه قد هزم من الفلسطينيين. إنهم يجعلون كل من انتصر منهم على الفلسطينيين نبيا، أما الذين هزموا فيسلب منهم كل مجد وكل اصطفاء ويطردون من رحمة إله إسرائيل.

تأثر الذين كتبوا التوراة في بابل بمعتقدات البابليين ومعتقدات المصريين وأخذوا أساطيرهم ودسوها في توراتهم. ويقول برستد في كتابه فجر الضمير: « هذا ولدنا الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الدينى الذى أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (فى بابل) كان متأثرا بتعاليم « زروستر » (زرادشت)، وأنه يجب لذلك أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التى تعرضت لها الخلقيات العبرانية، التعاليم التى جاء بها هذا النبى « الميذى الفارسى » العظيم « زروستر » (زرادشت).

وكان قد نما قبل ظهور الملكية العبرانية فى أواخر القرن الحادى عشر مجموعة كبيرة من الأمم المتحضرة على طول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط. تقع بين بلاد الحثيين شمالا وتقوم مصر جنوبا. والأرجح أن أهم هذه الشعوب من وجهة تاريخ المدينة هم الفينيقيون.

وقد كانت بعض العناصر الهامة في المدينتين البابلية والمصرية القديمة عاملا جوهريا في تكييف الحياة والثقافة في مدن الساحل الفينيقي الزاهرة التي كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية ، ومن ثم كان من السهل أن تدخل هذه الخيوط الأجنبية في نسيج ثوب الحياة العبرانية ، وعلى أية حال فنحن لا نعلم شيئا تقريبا عن نوع التطور الخلقى عند الفينيقيين .

وأما في بلاد فلسطين التي احتلها العبرانيون فيما بعد فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين ، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدينة الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين . كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد في فلسطين الكنعانية . وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين .

يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يسيطرون على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م .

ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا في فتحهم إلى نهر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق . م ، بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون .

والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدينة الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية .

وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التي أنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية بمرورها في تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . والواقع الذي لا شك فيه أن اللغة التي وجدها العبرانيون الفاتحون ، وهى اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم ، وهى التى انحدرت إلينا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة . ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى .

« كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أديب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الجنود المرتزقة . ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا مدة قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى طيبة (الأقصر) « مرنباح » (منفتاح) بن رعمسيس الثانى قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة . فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » .

وقد كان ذلك الحادث فى « عهد القضاة » وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام القومى ، فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة

التي قضوها في الرعى وتلمس الكلاً على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبررة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل بعض التقاليد القريبة من الوحشية التي تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإله القبيلة » .

واستمرت الحرب مشتعلة الأوار بين الفلسطينيين والعبرانيين فقتل الفلسطينيون شاول وبنيه ، وأسر العمالقة زوجتى داود ، وساقوا النساء والأطفال معهم ولم يقتلوا الرجال كما يفعل اليهود لما ينتصرون على أعدائهم ، فجاء داود وخلص الأسرى من الفلسطينيين . « وكان بعد موت شاول ورجوع داود من مضاربة العمالقة أن داود أقام في صقلع يومين وفي اليوم الثالث إذا برجل أتى من المحلة من عند شاول وثيابه ممزقة وعلى رأسه تراب ، فلما جاء إلى داود خر إلى الأرض وسجد . فقال له داود : من أين أتيت ؟ فقال له : من محلة إسرائيل نجوت . فقال له داود : كيف كان الأمر ؟ فقال : إن الشعب قد هرب من القتال وسقط أيضا كثيرون من الشعب وماتوا ومات شاول ويوناثان ابنه أيضا . فقال داود للغلام الذى أخبره : كيف عرفت أنه قد مات شاول ويوناثان ابنه ؟ فقال الغلام الذى أخبره : اتفق أنى كنت فى جبل جلبوع وإذا شاول يتوكأ على رمحه وإذا بالمركبات والفرسان يشدون وراءه ، فالتفت إلى ورائه فرأى ودعانى فقلت : هاأندا . فقال لى : من أنت ؟ فقلت له : عماليقى أنا . فقال لى : قف على واقتلنى لأنه قد اعترانى الدوار لأن كل نفسى بعد قى . فوقفت عليه وقتلته لأنى علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه ، وأخذت الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه وأتيت بهما إلى سيدى ههنا » .

هذه رواية الإصحاح الأول من سفر صموئيل الثانى عن موت شاول ، وهى تتناقض مع ما جاء فى الإصحاح الحادى والثلاثين « ... واشتدت

الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جدا من الرماة ، فقال شاول لحامل سلاحه : استل سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني . فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدا ، فأخذ شاول السيف وسقط عليه ، ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول سقط هو أيضا على سيفه ومات معه . فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معا . ولما رأى رجال إسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا . تركوا المذنب وهربوا فأقى الفلسطينيون وسكنوا بها .

الرواية الأولى تقول إن غلاما قتل شاول وجاء بالخبر إلى داود ، والرواية الثانية تقول إن شاول قد انتحر خشية أن يمثل به . وهذا التضارب يؤكد أن التوراة التي كتبت في المنفى قد كتبها أكثر من واحد فتضاربت أقوالهم وإن نهلوا جميعا من الأدب البابلي والأدب المصري القديم وسلبوا لغة الكنعانيين وأساطير الشعوب .

وأمر داود بضرب عنق العمالقي لأنه قتل مسيح الرب .
ورثا داود بهذه الميراثا شاول ويوناثان ابنه ، وقال إن يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هو ذا مكتوب في سفر ياشر :

الظبي يا إسرائيل مقتول على شواخك ، كيف سقط الجبارة ؟ لا تخبروا في جت . لا تبشروا في أسواق أشقلون لئلا تفرح بنات الفلسطينين ، لئلا تسمت بنات الغلف .

ويعود الذين كتبوا التوراة يذكرون سفر ياشر وإن لم يظهر ذلك السفر بين أسفار التوراة : « وكان بعد ذلك أن داود سأل الرب قائلا : أأصعد إلى إحدى مدائن يهوذا ؟ فقال له الرب : اصعد . فقال داود : إلى أين أأصعد ؟ فقال إلى حبرون . فصعد داود إلى هناك وامراتاه أخينوعم البرزعيةلية وأبيجائيل امرأة

نابال الكرملى . وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا فى مدن
حبرون . وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا .
كان داود من نسل يهوذا وكان أول ملك فى بيت يهوذا ، ولما كانت جنة
اليهود أرضية فالملك عندهم أفضل من النبوة ، فراح اليهود يؤكدون صفة
الملك لداود أكثر من تأكيدهم لنبوته . وقد بدأ بتولية داود انقسام دولة بنى
إسرائيل إلى دولتين ، دولة إسرائيل ودولة اليهودية .

أصبح داود ملكا على اليهودية ، « وأما أبير بن نير رئيس جيش شاول
فأخذ ايشبوشث بن شاول وعبر به إلى مخنايم وجعله ملكا على جلعاد وعلى
الأشوريين وعلى بزريعيل وعلى أفرايم وعلى بنيامين وعلى كل إسرائيل » .
ونشب قتال بين عبيد أبير وعبيد داود هُزم فيه أبير ورجال إسرائيل شر
هزيمة ، « وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود وكان داود يذهب
يتقوى وبيت شاول يذهب يضعف . وولد لداود بنون فى حبرون وكان بكره
أمنون من أختينوعيم البزرعية ، وثانيه كبلآب من أبيجايل امرأة نابال
الكرملى ، والثالث أبشالوم بن معكة بنت تلماي ملك حبشور ، والرابع أدونيا
ابن حجبث ، والخامس شفطيا ابن أبطال ، والسادس بترعام من عجلة امرأة
داود . هؤلاء ولدوا لداود فى حبرون » .

و لم يغضب المستشرقون الذين دأبوا على مهاجمة نبي الإسلام — صلوات
الله وسلامه عليه — لأنه تزوج أكثر من واحدة ، فزواج داود لست زوجات
حتى الآن فى حبرون لا يثير تساؤلا ولا دهشة ، أما زواج محمد عليه الصلاة
والسلام من أمهات المسلمين صلة للرحم وضنا بهن على المهانة فأمر يستحق
أن يشرع المستشرقون والحاقدون أسنة أقلامهم لطعنه وتجريحه وافتراءاتهم
للنيل من نبي الرحمة ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ذرات من الرماد فى منبع
الطهر .

(غزوة تبوك)

وإن تعجب فاعجب لزعمهم أن داود أئى أن يتم صلح بينه وبين أبير قبل أن يأتيه أبير بميكال بنت شاول وهو يعلم أنها زوجة رجل آخر : « فأرسل أبير من فوره رسلا إلى داود قائلا : لمن هى الأرض ، يقولون أقطع عهدك معى وهو ذا يدى معك لرد جميع إسرائيل إليك . فقال حسنا . أنا أقطع معك عهدا إلا أئى أطلب منك أمرا واحدا وهو ألا ترى وجهى ما لم تأت أولا بميكال بنت شاول حين تأتى لترى وجهى . وأرسل داود رسلا إلى ايشبوش بن شاول يقول : أعطنى امرأتى ميكال التى خطبتها لنفسى بمائة غلفة من الفلسطينيين . فأرسل ايشبوش وأخذها من عند رجلها من فلطييل بن لايش . وكان رجلها يسير معها ويكى وراءها إلى بحوريم . فقال له أبير : اذهب ، ارجع . فرجع » .

تزوج رسول الله ﷺ — زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد لحكمة ظاهرة ، للقضاء على عادة جاهلية ظالمة ، لتأكيد معنى سام هو أن الناس سواسية لا فرق بين حر وعبد وشريف ووضيع ، وأن الناس جميعا لآدم لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . فقام الحاقدون على الإسلام منذ ذلك الوقت ولم يقعدوا منددين بذلك الزواج ، أما ما زعمه الذين كتبوا التوراة من أن داود قد انتزع زوجة من أحضان زوجها فلم يحرك منهم ساكنا . وقد تعمدوا أن تخونهم الذاكرة لما هاجموا زواج محمد — ﷺ — من بنت عمته زينب بنت جحش ، فلو أنهم تذكروا هذه الحادثة التى جاءت فى كتابهم المقدس لجفت أقلامهم ولتفصد منهم عرق الخجل لو كانوا يخجلون !

« وكان كلام أبير إلى شيوخ إسرائيل قائلا : قد كنتم منذ أمس وما قبله تطلبون داود ليكون ملكا عليكم ، فالآن افعلوا ، لأن الرب كلم داود قائلا : إنى بيد داود عبدى أخلص شعبى إسرائيل من يد الفلسطينيين ومن أيدي جميع أعدائهم » .

إسرائيل شعب الله ، هكذا يزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أما الشعوب الأخرى فأهم كلاب البشرية ، والرب رب إسرائيل لا هو رب الناس ولا هو إله الناس ولا هو ملك يوم الدين ، فالذين كتبوا التوراة لا يؤمنون باليوم الآخر وهم يعبدون إله إسرائيل ليطلب أياهم في الأرض وينصرهم على أعدائهم ويسوق إليهم ثروة الشعوب ليملكوا خزائهم بالذهب والفضة .

وقتل أبير غدرا وهو يدعو لداود ، فماذا فعل نبي الله الذي بعثه الله ليعلم الناس مكارم الأخلاق ؟ زعم الذين كتبوا التوراة في بابل أن داود شق الثياب وأمر الناس أن يشقوا ثيابهم بل وأن يلطموا : « فقال داود ليوآب وللجميع الشعب الذى معه : مزقوا ثيابكم وتنطقوا بالمسوح والطموا أمام أبير . وكان داود الملك يمشى وراء النعش . ودفنوا أبير في حبرون ورفع الملك صوته وبكى على قبر أبير وبكى جميع الشعب » .

وأصبح داود ملكا على إسرائيل كلها ودخل أورشليم ، وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم إله إسرائيل قائد جيوشهم ورأس خططهم : « وسمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على إسرائيل فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود ، ولما سمع داود نزل إلى الحصن . وجاء الفلسطينيون وانتشروا في وادى الرفائين . وسأل داود من الرب قائلا : أأصعد إلى الفلسطينيين . أتدفعهم ليدى ؟ . فقال الرب لداود : أأصعد لأنى دفعا أرفع الفلسطينيين ليدك . فجاء داود إلى بعل فراعيم وضر بهم داود هناك . وقال : قد اقتحم الرب أعدائى أمامى كاقترحام المياه ، لذلك دعى اسم ذلك الموضع بعل فراعيم وتركوا هناك أصنامهم فنزعها داود ورجاله .

ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا أيضا وانتشروا في وادى الرفائين ، فسأل داود من الرب فقال : لا تصعد بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار البكا . وعندما تسمع صوت خطوات في رعوس البكا حينئذ احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين . ففعل

داود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين من جيع إلى مدخل جازر .
 إن قارئ التوراة يلمس أن الرب قد خلق الفلسطينيين لعداوته وليبطش بهم
 إكراما لشعبه إسرائيل ، سواء أحسن بنو إسرائيل إلى الله أو تنكبوا الطريق ،
 وسواء أكان الفلسطينيون على الهدى أو في ضلال ميين . إنه إله متحيز إلى
 إسرائيل ، أو بمعنى أصح إنه إله في خدمة إسرائيل . وهذا تصور مريض للذين
 كتبوا التوراة في المنفى فقد بلغ بهم الغرور أن سخرؤا الرب لخدمة مآربهم ،
 وبلغ بهم السفه وسوء الأدب مع الرب أن جعلوا داود يفتاظ من بعض
 تصرفات الرب بل ويشك في نواياه نحوه . ففي الإصحاح السادس من
 صموئيل الثاني خرج داود وجميع الشعب ليحملوا تابوت الرب من بيت
 أبناداب » ... وكان عزة وأخيو ابنا أبناداب يسوقان العجلة الجديدة فأخذوها
 من بيت أبناداب الذى فى الأكمة مع تابوت الله . وكان أخيو يسير أمام
 التابوت وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من
 خشب السرو بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج ولما انتهوا
 إلى بيدر ناخون مد عزة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت .
 فحمى غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفلة فمات هناك لدى
 تابوت الله . فاغتاز داود لأن الرب اقتحم عزة اقتحاما وسمى ذلك الموضع
 فارص عزة إلى ذلك اليوم ، وخاف داود من الرب فى ذلك اليوم وقال : كيف
 يأتى إلى تابوت الرب ؟ ولم يشأ داود أن ينقل تابوت الرب إليه فى مدينة داود ،
 فمال به داود إلى بيت عويد أدوم الجنى . وبقي تابوت الرب فى بيت عويد
 أدوم الجنى ثلاثة أشهر وبارك الرب عويد أدوم وكل بيته » .

أكان داود فى شك من بركة تابوت الله ؟ أم أن داود كان يخشى غضب الله
 عليه لما اغتاز من الرب هلاك عزة ؟ إنه لم يطمئن إلى بركة تابوت الله إلا بعد
 أن أخبر أن البركة حلت ببيت عويد : « فأخبر الملك داود وقيل له : قد بارك

الرب بيت عويد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله . فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عويد أدوم إلى مدينة داود بفرح . وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات تذبح ثورا معلوفا . وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب . وكان داود متنطقا بأفود من كتان . فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق ، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود أشرفت ميكال بنت شاول من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته في قلبها . فأدخلوا تابوت الرب وأوقفوه في مكانه في وسط الخيمة التي نصبها له داود ، وأصعد داود محرقات أمام الرب وذبائح سلامة ، ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم رب الجنود . وقسم على جميع الشعب على كل جمهور إسرائيل رجالا ونساء ، على كل واحد رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب ، ثم ذهب كل الشعب كل واحد إلى بيته ، ورجع داود ليبارك بيته .

فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف اليوم في أعين إماء عبيده كما يتكشف أحد السفهاء . فقال داود لميكال : إنما أمام الرب الذي اختارني دون أبيك ودون كل بيته ليقممني رئيسا على شعب الرب إسرائيل . فلعبت أمام الرب وإني أتصاغر دون ذلك وأكون وضيعا في عيني نفسي . وأما عند الإماء التي ذكرت فأتمجد ، ولم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها .

جعل الذين كتبوا التوراة ميكال بنت شاول تحقر داود لأنه رقص من الوجد أمام الرب ولم يجعلوها تحقره لأنه انتزعها من أحضان زوجها ليتخذها زوجة ، ولا غرو فانتزاع امرأة من زوجها لم يكن شيئا يثير الغضب في نفوس الذين كانوا يقدمون نساءهم شهوة للأكاسرة ليحلبوا رضاهم على بنى إسرائيل .

واسمع ماذا يقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم عن الرب ، لقد جعلوه يشتهى أن يسكن بيتا عوضا عن الخيمة التي كان يسكنها : « وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه ، أن الملك قال لناثان النبي : انظر ، إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشَّقَق . فقال ناثن للملك : اذهب افعل كل ما يقبل لك لأن الرب معك . وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثن قائلا : اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب : أنت تبنى لي بيتا لسكنائي ، لأنني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن . في كل ما سرت مع جميع بني إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرفعوا شعبي إسرائيل قائلا : لماذا لم تبنوا لي بيتا من الأرز ؟ والآن فهكذا تقول لعبدي داود . هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبي إسرائيل ، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين في الأرض ... » .

لماذا حدث الرب النبي ناثن ولم يحدث داود مباشرة وقد سبق أن استشاره داود في حرب الفلسطينيين فأشار عليه ووعدته بالنصر بل رسم له خطة الهجوم ؟ وهل يعقل أن الرب يذكر داود بما أكرمه به ليقنع داود ببناء بيت له من الأرز ؟ وهل الرب في حاجة إلى مسكن من الأرز أو الذهب ؟ « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » (١) .

وحارب داود أعداءه حتى بلغ دمشق وأقام في أورشليم ، وأرسل يواب وعبيده معه وجميع بني إسرائيل لمحاربة بني عمون « وكان في وقت المساء أن

داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا . فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت ألبعام امرأة أوريا الحثي ؟ فأرسل داود رسلا وأخذها ، فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمئتها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حُبلى . فأرسل داود إلى يوباب يقول : أرسل إلى أوريا الحثي . فأرسل يوباب أوريا إلى داود . فأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوباب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجلك . فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصاة من عند الملك . ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته . فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ! فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود : إن الثابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يوباب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتى ، وحياتك وحياة نفسك لأفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكبه وخرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل .

وفى الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوباب ورسله بيد أوريا ، وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من وراءه فيضرب ويموت . وكان فى محاصرة يوباب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه . فخرج رجال المدينة وحاربوا يوباب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضا . فأرسل يوباب وأخبر داود بجميع أمور الحرب . وأوصى الرسول قائلا : عندما تفرغ من الكلام مع

المملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور ؟ من قتل أبيمالك بن بريوشت ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحي من على السور فمات في ناباص . لماذا دنوتم من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثي أيضا .

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوبآب ، وقال الرسول لداود : قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب . فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثي أيضا . فقال داود للرسول هكذا تقول ليوبآب : لا يسوؤني عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك . شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

ولما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها نذبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا . وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب . »

زعم الذين كان الدنس مداد أعلامهم أن داود عليه السلام قد زنى بامرأة قائد من قواده أثناء أن كان يجاهد في سبيل الله فحملت منه سفاحا ، ولم يكتف بذلك بل أرسله في مقدمة الجيش ليقتل وقد قتل . ونسى هؤلاء المفترون أن الله كلم داود وأوحى إليه ، وأن ما نسبوه إلى الرجل لا يمكن أن يصدر عن رجل صالح لا عن رجل اصطفاه الله ، ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد قبلوا هذا الافتراء ورووا قصة داود كما جاءت في تورا المنفى ، مع أن الإمام علي بن أبي طالب كان يحذ الذي يروى هذه الرواية فيجلده ثمانين جلدة ، أربعين لافتراء الزنى وأربعين لأن الافتراء كان في حق نبي .

وقد أفتى داود فتوى في حق غني له تسع وتسعون نعجة ولرجل فقير نعجة واحدة ، وقد أخذ الغني نعجة الفقير ، فجعلوا تلك الفتوى تخدم قصتهم

المفترة : « فأرسل الرب ناثان إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدا ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعا . تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهياً للرجل الذي جاء إليه فحمي غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان : حي هو الرب : إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ورد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق .

فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل . هكذا قال الرب إله إسرائيل ، أنا مسحك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا . وإن كان ذلك قليلا كنت أريد كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بني عمون . والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب : هاأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وأخذ نساءك أمام عينيك وأعطيتهن لقريبك فيضطجع مع نساءك في عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس ... » .

لندع ما أفتى به داود ، أو بمعنى أصح ما وصفه الذين كتبوا التوراة بأيديهم على لسان داود ، فهي فتوى ملؤها الغضب والثورة ، فهل من يسرق نعجة من جاره يقتل ؟ وفي أى شرع هذا ؟ إن أمر هذه الفتوى هين ولكن الأمر الذي يفزع البشرية جمعاء أن الرب يقابل الفاحشة بالفاحشة ، بل إنه يفوق البشر

في التردى في حمأة الرذيلة . إنه يتهم داود — على زعم الذين كتبوا التوراة — أنه ارتكب خطيئته سرا ولكن الرب ينذر داود بأنه سيأخذ نساء أمام عينيه ويدفعهن إلى قريبه ليزنى بهن على أعين الناس في عين الشمس . أى جهارا نهارا ، ولم يذكر لنا الذين كتبوا التوراة ما إذا كان سيفعله قريب داود في نساء داود بأمر الرب وتدييره سيعتبر زنى أو سيكتب له في الدنيا حسنات ، فيمد الله في عمره ويمد خزائنه بالذهب ؟!

إن القرآن الكريم قد رد للرسل والأنبياء كراماتهم التى دنسها كُتَّاب التوراة في المنفى عن قصد أو متأثرين بالرذيلة التى كانوا يتمرغون فيها ، فدارس التوراة يخيل إليه أحيانا أن الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا متأثرين بالحياة الماجنة التى كانوا يحيونها في بابل ، وأحيانا أنهم كانوا يبدلون الجهود لينفوا النبوة عن داود وسليمان ويؤكدوا لهما الملك ، فالملك كان حلم المشردين في بابل ، أما النبوة فقد كانت منتشرة فيهم على حسب ما يزعمون . وقد مجد القرآن الكريم داود عليه السلام بما هو أهله ، فلا يعقل أن رجلا يصطفيه ربه ويوحى إليه بفعل مثل تلك الأفعال التى افترها كتاب التوراة : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب . وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشرط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن

مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع
الهُوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يَـضِلُّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد
بما نسوا يوم الحساب» (١) .

« ... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً » (٢) .

« ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوى معه والطير وألنا له الحديد . أن
أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير » (٣) .
وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم داود يصوم للرب ليحقق له أمنية فإذا
لم تتحقق يفطر ، فلما مرض الذى ولدته امرأة أوريا لداود نذر الله صوما :
« فسأل داود الله من أجل الصبى وصام داود صوما ودخل وبات مضطجعاً
على الأرض . فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ولم يأكل
معهم خبزاً . وكان في اليوم السابع أن الولد مات . فخاف عبيد داود أن يخبروه
بأن الولد قد مات لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حياً كلمناه فلم يسمع
لصوتنا ، فكيف نقول له قد مات ، ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن
الولد قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ فقالوا مات . فقام داود
عن الأرض واغتسل وأدهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى
بيته وطلب فوضعوا له خبزاً فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذى
فعلت ؟ لما كان الولد حياً صمت وبكيت ، ولما مات الولد قمت وأكلت
خبزاً ... » .

ترى ماذا كان رد داود ؟ أقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ أحمد الله الذى
لا يحمد على مكروه سواه ، إنه قال — على حسب زعم الذين كتبوا التوراة —
« لما كان الولد حياً صمت وبكيت لأنى قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمنى الرب

(٢) الإسرائ ٥٥ .

(١) ص ١٧ — ٢٦ .

(٣) سبأ ١٠ ، ١١ .

ويحيا الولد . والآن قد مات فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أردّه بعد . أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلّى » .

أيمكن أن يتصور عقل أن داود صام وبكى من أجل ابنه الذى كان ثمرة الزنى ؟ إن كل ما جاء عن داود فى التوراة من خيال عقول مريضة لا تفرق بين النبوة والملك وإن كانت تفضل الملك على النبوة ، ولا تميز بين الحلال والحرام ولا تعرف حقيقة الرسالة وعصمة الأنبياء .

إن الزانى يرحم فى شريعة موسى ، وقد قام جدل حول ذلك بين محمد — ﷺ — وبين يهود المدينة انتهى بأن اعترف أحبار اليهود برجم الزانى ، فما بال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ووصموا الأنبياء بكل نقيصة مروا على ما زعموه من زنى داود بتثبيح امرأة أوريا مرور العابثين بكل القيم الأخلاقية ؟ فما استكروا الفعل ولا حتى أشاروا إلى توبته وأنه ظل ييكي ندمًا حتى نبت الزرع من دموعه كما زعم بعض المؤرخين الإسلاميين الذين اغتروا من التوراة دون حرص .

« وعزى داود بتثبيح امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابنا فدعاه سليمان والرب أحبه ... » .

إن الرب أوحى إلى داود فأبى الذين كتبوا التوراة فى بابل إلا أن يجعلوه ملكا ينتزع الزوجات من أزواجهن ، وأحب الرب بيت داود وأحب سليمان فكيف جعل الذين كتبوا التوراة أحياء الله يتصرفون ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا غارقين فى الذل والعار ، وكان أشراف فارس وبابل يتسرون بنسائهم لا يعرفون حلالا من حرام ، فكانوا متأثرين بالبيئة التى وجدوا فيها لما كتبوا قصص الأنبياء ، فما ارتفع نبى من أنبيائهم عن الدنس الذى كانوا فيه يلغون ، وما هام نبى منهم فى عالم الطهر وقرع أبواب ملكوت الله لأن الذين كتبوا التوراة كانوا يخوضون فى الخطايا فهل تنتظر من فاقد الشىء أن يعطيه ؟!

« وجرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها أمنون بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئا . وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن مشمعى أخى داود . وكان يوناداب رجلا حكيما جدا ، فقال له : لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح ؟ أما تخبرني ؟ فقال له أمنون : إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخى . فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختي فتأتى وتطعمنى خبزا وتعمل أمامى الطعام لأرى فأكل من يدها .

واضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك : دع ثامار أختي فتأتى وتصنع أمامى كعكتين فأكل من يدها . فأرسل داود إلى ثامار قائلا : اذهبي إلى بيت أمنون أخيك واعملى له طعاما .

فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت كعكا أمامه وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامه فأبى أن يأكل . وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عنى . فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : إيتى بالطعام إلى المخدع ، فأكل من يديك ، فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجعى معى يا أختى ، فقالت له : لا يا أخى لا تذلى ، لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل . لا تعمل هذه القباحة . أما أنا فأبى أذهب بعارى ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء فى إسرائيل . والآن كلم الملك فإنه لا يميننى منك . فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها . »

أستغفر الله العظيم . إن قلمي ليضطرب فى يدي وأنا أكتب قصة ابن داود . مع أخته بنت داود ، ولكن ما حيلتى وأنا أنقل عن كتاب مقدس يحترمه كل

اليهود وكل المسيحيين . أقول إن زواج الأخ من الأخت كان معروفا عند الفراعين ، وأن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بتلك العادة الفرعونية ؟ إنها كانت مقصورة على الملوك للحفاظ على الدم الملكي النيل ، وما كانت سائدة بين سواد الشعب ، وكان الأخ يتزوج أخته ولا يغتصبها . وإن تعجب فاعجب لقول الذين كتبوا التوراة إن الرجل الذى وسوس لابن داود طريقة استدراج أخته إلى الخطيئة قد وصف بأنه كان رجلا حكيما جدا . أهذه إحدى حكمه يا كتاب التوراة فى المنفى ؟ الحمد لله أننا لم نعرف عنه إلا حكمة واحدة .

وإن قول الأخت لأخيها : « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك » . يثير سؤالا : أكان زواج الأخ من الأخت معترفا به فى البلاط الملكى اليهودى أم أن ذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة فى بابل وكانوا متأثرين بعادات المجوس التى تحيز زواج المحارم ؟ وفى رأى أن قصة ابن داود مع أخته بنت داود من وضع كتاب التوراة الذين كانوا يرون زواج الأخ من الأخت أمرا مشروعا فى أرض السبي .

واغتصب الأخ أخته واستمرت الأخت ذلك الاغتصاب ، « ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جدا حتى أن البغضة التى أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التى أحبها إياها . وقال لها أمنون : قومى انطلقى . فقالت له : لأى سبب ؟ هذا الشر بطردك إياى هو أعظم من الآخر الذى عملته لى ، فلم يشأ أن يسمع لها . بل دعا غلامه الذى كان يخدمه وقال له : اطرده هذه عنى خارجا وأقفل الباب وراءها . وكان عليها ثوب ملون لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جُبات مثل هذه . فأخرجها خادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها . فجعلت ثامار رمادا على رأسها ومزقت الثوب الملون الذى عليها ووضعت يدها على رأسها وكانت تذهب صارخة ، فقال لها أبشالوم أخوها : هل كان

أمنون أخوك معك ؟ فالآن يا أختي اسكتي ... » .

وعلم الملك داود بما فعل ابنه بابلته فلم يحرك ساكنا ، وقتل أبشالوم أخاه أمنون بما فعل بأخته . فناح داود على أمنون الذى يستحق أكثر من الرجم لو كان هناك ما هو أقسى من الرجم ، وهرب أبشالوم من وجه أبيه ، وكأهى عادة كتاب التوراة أغلقوا قلب داود عن رؤية الصواب وجعلوا امرأة ترشده إلى طريق الحق فعفا عن أبشالوم . وأراد أبشالوم أن يكون قاضيا لإسرائيل فوقف على باب الملك داود يفصل فى قضايا بنى إسرائيل بالعدل فأحبه الشعب . ولما انقضت أربعون سنة طلب أبشالوم من أبيه الملك أن يذهب من أورشليم إلى حبرون لينقطع لعبادة الرب فقبل طلبه ، وما كان أبشالوم الذى صورته الذين كتبوا التوراة فى المنفى لينقطع للعبادة فلا بد من أن يرتكب خيانه ، فالحقول المريضة التى كتبت التوراة لا تعرف الاستقامة : « وأرسل أبشالوم جواسيس فى جميع أسباط إسرائيل قائلا إذا سمعتم البوق فقولوا : قد ملك أبشالوم فى حبرون . وانطلق مع أبشالوم مائتا رجل من أورشليم قد دعوا وذهبوا ببساطة ولم يكونوا يعلمون شيئا ... » .

وعلم داود بمؤامرة أبشالوم ففر هو وعبيده وترك عشر نساء سرارى لحفظ القصر ، وحمل الشعب تابوت الرب وتركوا أورشليم ، ولكن داود أمر صادق الكاهن أن يعود بتابوت الرب إلى المدينة « وأما داود فصعد فى مصعد جبل الزيتون . كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشى حافيا وجميع الشعب الذين معه غطى كل واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم يركبون » .

ونشبت الحرب بين داود وابنه أبشالوم ، فانتصر داود وقتل أبشالوم ، وجاء الخبر إلى داود : « فانزعج الملك وصعد إلى عليية الباب وكان يركى ويقول هكذا وهو يتمشى : « يا ابنى أبشالوم ! يا ابنى يا ابنى أبشالوم ! يا ليتنى مت عوضا عنك يا أبشالوم ، ابنى ابنى » .

أيمن أن نصدق أن داود قد جزع مثل ذلك الجزع لموت ابنه الذي شق عصا الطاعة وجعل قلوب إسرائيل شتى ؟ أين هذا الموقف الذي إن دل على شيء فإنما يدل على عدم إيمان بقضاء الله وقدره من موقف محمد — ﷺ — لما مات ابنه إبراهيم ، كان لداود أبناء غير أبشالوم ولم يكن لمحمد — عليه صلوات الله وسلامه — من البنين غير إبراهيم . كان محمد عليه السلام واثقا من أن الأبناء وديعة يستردها صاحبها في أى وقت يشاء ، وكانت العين تدمع ولا ينطق اللسان بما يغضب الرب . أما الذين كتبوا التوراة بأيديهم فقد كانت الدنيا هي الحياة ولا حياة بعدها فكان الموت في أعينهم أبشع ما يمكن أن يصيب إنسانا ، فبالموت الذي لا بعث بعده تنقضى الآلام والآمال ، وعلى حسب فهمهم لهذه الحياة جعلوا داود يجزع جزعا لموت ابنه لا يليق بنبي بله بحكيم لا يوحى إليه يفهم حقيقة الوجود وكنه الحياة .

ومنذ عهد داود بدأ كتاب التوراة يفرقون بين إسرائيل واليهودية ، فقد انقسمت المملكة إلى مملكتين : مملكة إسرائيل وهي تناهض داود ، ومملكة يهوذا وهي تؤيد داود لأن داود كان أول ملك من نسل يهوذا .

وقد اضطربت قصة داود في أيدي الذين كتبوا التوراة اضطرابا محيرا ، فبينما هو ينتزع النساء من أحضان أزواجهن ، وبينما هو يسطو على الأعراض ويبكى ابنه الذي كان ثمرة الزنى ، إذا به يناجى الرب كما يناجيه الصالحون الذين تكاد تنفطر أفئدتهم رهبة من الله : « وكلم داود الرب بكلام هذا الشديد في اليوم الذي أنقذه فيه الرب من أيدي كل أعدائه ومن يد شاول فقال : الرب صخرتي وحصني ومنقذي . إنه صخرتي به أحتمى . ترسى وقرن خلاصى . ملجئى ومناصى . مخلصى من الظلم تخلصنى ، أدعو الرب الحميد فأخلص من أعدائى ، لأن أمواج الموت اكتفتنى . سيول الهلاك أفرغتنى . جبال الهاوية أحاطت بى . شرك الموت أصابتنى . فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلهى

صرخت فسمع من هيكله صوتى وصراخى دخل أذنيه ، فارتجت الأرض وارتعشت . أسس السماوات ارتعدت وارتجت لأنه غضب . صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه . ركب على كروب وطار ورئى على أجنحة الريح ... » .

جسم الذين كتبوا التوراة في بابل الإله ووصفوه لكأنما كانوا يصفون مردوخ أو نانا أو شماش أو أيا من آلهة البابليين ، الدخان يصعد من أنفه والكلام ينفذ إليه من أذنيه ، وينزل من السماء والضباب تحت قدميه ، ويركب متن الريح . وما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وإن أعجب ما في دعاء داود أن الذين افتروا عليه وجعلوه يغتصب بثشب امرأة أوريا راحوا يرددون عبارات رضا الرب عليه وطهارة اليد وحفظ العهد وإطاعة الله . وإنه لتناقض عجيب بين أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، ولا غرو فما برأت توراتهم من التناقض وما عرفت الأخذ عن ينابيع طهر الرسائل وعصمة الأنبياء . وكيف يغترفون من معين طاهر وهم يسبحون في بحور الرجس ويضربون في سبيل الضلال ؟!

قال داود في دعائه : « ... خلصنى لأنه سرى . يكافئنى الرب حسب برى . حسب طهارة يدى يرد على . لأنى حفظت طرق الرب ولم أعص إلهى . لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها . وأكون كاملاً لديه وأتحفظ من إثمى . فبإذن الله على كبرى وطهارتى أمام عينيه . »

إن داود يقول إنه لم يعص إلهه وهو صادق ، ويقول إنه طاهر وهو صادق ، ويقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم إنه اغتصب امرأة أوريا واغتصب امرأة أخرى قبلها ، وأنه سكت على فعلة ابنه الشنعاء يوم اغتصب أخته وهم كاذبون ، فقد كانوا يصورون حياتهم التى يحونها في قصور الملوك في العراق

ويلصقونها ظلماً بأنبياء الله ليوهموا أنفسهم أنهم والأنبياء سواء ، وليخففوا عن اليهود الذين كانوا في المنفى وطأة العار .

نالت توراة المنفى من جميع الأنبياء بلا استثناء وجعلتهم يرتكبون حماقات يرتفع عنها المتقون من عباد الله . وجاء القرآن المجيد ليعيد إلى أنبياء الله كرامتهم وعصمتهم فقد اصطفاهم علام الغيوب لرسالاته ، وما كان القدير العليم ليصطفى من الناس رسلاً يشركون به ويعبدون معه آلهة أخرى أو رسلاً يغرقون في الحرام حتى الآذان . إن الله يقول في محكم كتابه : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (١) . فلم يتبع داود عليه السلام الهوى ولكن الذين كتبوا التوراة بأيديهم ضلوا عن سبيل الله .

وبنى داود مذبحاً للرب وذبح القرابين ليرش الكهنة الدم إرضاء للرب ، وليحرقوا الذبائح لأن الرب تسره رائحة الشواء ، وهذا كله من زعم الذين كتبوا التوراة ، فداود عليه السلام يعلم أن الله لا ينال دماء الذبائح ولا لحومها ولكن يناله التقوى من عباده ، وليس من المعقول أن يكون الملك الأهناسي المجهول الاسم الذي أوصى ابنه « مريكارع » قبل عهد داود عليه السلام بأكثر من ألف عام أشد معرفة بالله من أنبياء بنى إسرائيل إذ يقول له : « إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولا من ثور الرجل الذي يرتكب الظلم » .

وتستمر أساطير الذين كتبوا التوراة في إفساد عقول البشر ، فانظروا كيف يجلبون الدفء لداود عليه السلام لما شاخ « وشاخ الملك داود ، تقدم في الأيام ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ ، فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك

على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنك فيدفاً سيدنا الملك . ففتشوا على فتاة جميلة في جميع نخوم إسرائيل فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك ، وكانت الفتاة جميلة جداً فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها .

هكذا كان استهلال الإصحاح الأول من سفر الملوك ، فالذين كتبوا التوراة يعز عليهم أن يموت داود وقلبه يهوى إلى الرفيق الأعلى ، بل يابون إلا أن يموت في أحضان عذراء ، وحاول أدونيا بن داود أن يكون ملكاً على إسرائيل ويهوذا ، ولكن بشيع تدخل على داود وتسجد له وتستطيع بمعاونة ناثان النبي أن تنصب سليمان ملكاً في عهد أبيه ، ولم تذكر التوراة سبباً معقولاً لتولية سليمان الملك ولم يكن أكبر أبناء داود ، ولكن القرآن الكريم يذكر أن سليمان أوتي من الحكمة ما يؤهله للحكم : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . » (١) .

ونسى الذين كتبوا التوراة الآخرة ويوم الدين ، وتأثروا بالبابليين الذين يقولون إن الموق يذهبون إلى الأرض التي لا رجعة منها ، فلما مات داود لم يقولوا إنه ذهب إلى ربه بل لم يقولوا إنه ذهب ليرقد في حضن أبيه إبراهيم كما يرقد الصالحون من بنى إسرائيل واليهود ، بل قالوا : « ولما قربت أيام وفاة داود أوصى سليمان ابنه قائلاً : أنا ذاهب في طريق الأرض كلها ، فتشدد وكن رجلاً . احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياهم وأحكامهم وشهاداتهم كما هو مكتوب في شريعة موسى لكى تفلح في كل ما تفعل وحيثما توجهت ... » .

إن الناس يدعون ربهم خوفاً وطمعاً بيد أن الذين كتبوا التوراة في بابل يدعون ربهم — على لسان أنبيائهم — طمعاً فحسب ، يطلبون منه أن يطعمهم ويكسوهم وأن يهزم أعداءهم وأن يثبت ملكهم ، فإن فعل عبوده وإن لم يفعل بخلوا بعبادته وأعرضوا عنه .

وقد طلب أدونيا من بتشبع أن تتوسط له لدى سليمان ليزوجه أبيشح الشونمية التي كانت تدعى أباه ، فلم يقبل سليمان الطلب وقتل أخاه . وإن زواج الابن من امرأة أبيه كان معروفاً في الجاهلية وكان يطلق عليه زواج المقت وقد حرمه الإسلام . وبطش سليمان بيوآب قائد جيش أبيه وهو متعلق بقرون المذبح في خيمة الرب .

« وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواشيها ، إلا أن الشعب كانوا يذبحون في المرتفعات (عادة بابلية) لأنه لم يبن بيت لاسم الرب إلى تلك الأيام . وأحب سليمان الرب سائراً في فرائض داود أبيه إلا أنه كان يذبح ويوقد في المرتفعات . وذهب الملك إلى جبعون ليدبح هناك ، لأنها هي المرتفعة العظمى . وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح ، في جبعون تراءى الرب لسليمان في حلم ليلاً ، وقال الله : اسأل ماذا أعطيك ، فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أياً رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابناً يجلس على كرسيه كهذا اليوم ، والآن أيها الرب إلهي أنت ملكت عبدك مكان داود أبي وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول ، وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، فأعط عبدك قلباً فهِمًا لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا ؟ فحسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا

الأمر ، فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياما كثيرة ولا سألت لنفسك غنى ولا سألت أنفس أعدائك بل سألت لنفسك تمييزا لتفهم الحكم ، هو ذا قد فعلت حسب كلامك ، هو ذا أعطيتك قلبا حكيما مميزا حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك ، وقد أعطيتك أيضا ما لم تسأله : غنى وكرامة حتى إنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك ، فإن سلكت في طريقي وحفظت فرائضي ووصاياى كما سلك داود أبوك فأنى أطيل أيامك .

فاستيقظ سليمان وإذا هو حلم . وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرب ذبائح سلامة وعمل وليمة لكل عبيده .
 إن أمر الذين كتبوا التوراة بأيديهم يحير أولى الألباب ، فقد جعلوا الرب يقول لسليمان عن أبيه داود : « فإن سلكت في طريقي وحفظت فرائضي ووصاياى كما سلك داود أبوك فأنى أطيل أيامك » . فهل اغتصاب زوجة قائده الذى زعموه يتفق مع قولهم إن داود سلك طريق الرب كما شهد الله بذلك؟ إنهم افترضوا على داود — عليه السلام — بغير حق وألصقوا به نقائص كانوا يقاسون منها في المنفى ليخرسوا صوت الضمير ، إن كانت لهم ضمائر تؤنبهم على ارتكاب الفواحش وعصيان الله .

ولم يعد الله سليمان بجنات عرضها السماوات والأرض بل اكتفى بأن وعده بإطالة أيامه على الأرض ، وهذا غاية مراد كتبة التوراة من رب العباد .
 وروى كتاب التوراة قصة المرأتين اللتين احتكما إلى سليمان في ولد تدعيه كل منهما لنفسها : « فقال الملك : هذه تقول هذا ابنى الحى وابنى الميت . وتلك تقول : لا بل ابنى الميت وابنى الحى . فقال الملك : ابتنى بسيف . فأتوا بسيف إلى بين يدى الملك . فقال الملك : اشطروا الولد الحى اثنين وأعطوا نصفا للواحدة ونصفا للأخرى . فتكلمت المرأة التى ابنها الحى

إلى الملك ، لأن أحشائها اضطربت على ابنها وقالت : استمع يا سيدى . أعطوها الولد الحى ولا تميته ، وأما تلك فقالت : لا يكون لى ولا لك . اضطروه . فأجاب الملك وقال : أعطوها الولد الحى ولا تميته فإنها أمه ، ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذى حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم » .

كتاب التوراة فى المنفى قالوا إن الله خاطب سليمان فى الحلم وقالوا إن الله آتى سليمان الحكمة . ترى هل سينجو سليمان من حقدهم على الأنبياء جميعاً ومن افتراءاتهم على الأنبياء جميعاً دون تفريق ؟ سنقرأ معا ما كتبوه فى سفر الملوك الأول ، فسليمان عندهم ملك فحسب ، يفعل ما يفعله ملوك الساسانيين : « وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر . كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته . وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كُزَّ سميذ ، وستين كر دقيق ، وعشرين ثيران مسمنة ، وعشرين ثوراً من المراعى ، ومائة خروف ، وما عدا الأيائل والظباء واليحمير والأوز المسمن . لأنه كان متسلطاً على كل عبر النهر من تفسج إلى غزة على كل ملوك عبر النهر ، وكان له صلح مع جميع جوانبه حوله ، وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان ، وكان لسليمان أربعون ألف مزود للخيول مركباته ، واثنان عشر ألف فارس . وهؤلاء الوكلاء كانوا يمتارون للملك سليمان ولكل من تقدم إلى مائدة الملك سليمان كل واحد فى شهره ، لم يكونوا يحتاجون إلى شئ وكانوا يأتون بشعير وتبن للخيول والحياد إلى الموضع الذى يكون فيه كل واحد حسب قضائه .

وأعطى الله سليمان حكمة وفهما كثيراً جداً ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطئ البحر ، وفاق حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل

حكمة مصر وكان أحكم من جميع الناس ، من إيثان الأزرأحي وهيمان وكلكلول ودررع بنى ما حول ، وكان صيته فى جميع الأمم حواله . وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشأته ألفا وخمسا ، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان إلى الزوفا النابت فى الحائط ، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الديب وعن السمك . وكانوا يأتون من جميع الشعوب لىسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته » .

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يأياها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا هو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد الثمل قالت ثملة يأياها الثمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » (١) .

إن الله قال لسليمان فى التوراة : « إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك » . وجاء فى القرآن الكريم : « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » (٢) .

إن ملك سليمان فى توراة المنفى من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر ، وهى رقعة من الأرض ملكها كثير من الملوك قبل سليمان وبعده . بل

إن عمر بن الخطاب كان يحكم رقعة من الأرض أوسع من تلك الرقعة بكثير ، فإذا كانت الأرض هي المقصودة بملك سليمان فعبارة التوراة تصبح لا معنى لها ، أما القرآن فقد أوضح الملك الذى لا ينبغي لأحد بعد سليمان ، إنه تسخير الريح ومعرفة منطلق الطير وتسخير الشياطين ، وهو ملك لا ينبغي لأحد حتى لو ملك العالم .

ويذكر كتاب التوراة في فخر طعام سليمان في اليوم ، أنه لا يقل فخامة عن طعام يختنصر أو أخشويرش وهذا هو بيت القصيد من ذكر ذلك الطعام ، فهم يحملون بملك أكثر من حلمهم بنبوة أو رسالة ، فالملك يوطد سلطانهم في الأرض وهي دنياهم وأخراهم وجنتهم وجحيمهم ومحور آمالهم وآلامهم ، أما النبوة فتقتصر على التنبؤ بما سيكون وإرشادهم إلى طريق الرب ، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك الرب ما دام سلطانهم في الأرض قويا .

كان إله إسرائيل يعيش في خيمة وكان يتحرق شوقا إلى أن يبنى له مسكن من خشب الأرز وأن يكون له قصر كقصور الأغنياء ، وقد بث داود هذه الرغبة ، فلما ملك سليمان بدأ في بناية بيت الرب : « وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكا مكان أبيه ، لأن حيرام كان محبا لداود كل الأيام فأرسل سليمان إلى حيرام يقول : أنت تعلم داود أبى أنه يستطيع أن يبنى بيتا لاسم الرب إلهه بسبب الحروب التى أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه ، والآن قد أراحنى الرب إلهى من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر . وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب إلهى كما كلم الرب داود أبى قائلا : إن ابنك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى . والآن فأمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ويكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب من الصيغونيين .

فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدا وقال : مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنا حكيما على هذا الشعب الكثير . وأرسل حيرام إلى سليمان قائلا : قد سمعت ما أرسلت به إليّ أنا أفعل كل مسرتك فى خشب الأرز وخشب السرو . عبيدى ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرمانا فى البحر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله ، وأن تعمل مرضاقى بإعطائك طعاما لبيتى ، فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته ، وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كُر حنطة طعاما لبيته وعشرين كُر زيت رض . هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فسنة والرب أعطى سليمان حكمة كما كلمه ، وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهدا .

وسخر الملك سليمان من جميع إسرائيل وكانت السخرة ثلاثين ألف رجل . فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر بالنوبة . يكونون شهرا فى لبنان وشهرين فى بيوتهم . وكان أدونيرام على التسخير . وكان لسليمان سبعون ألفا يحملون وثمانون ألفا يقطعون فى الجبل . ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل : ثلاثة آلاف وثلاثة مائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل . وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة ؛ حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة ، ففتحها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجبليون وهبأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت » .

يقول كتاب التوراة إن سليمان سخر ثلاثين ألف رجل لبناء هيكل الرب ، والأقرب إلى المنطق — إن كان شعب إسرائيل شعبا متدينا — أن يتطوع المؤمنون لبناء بيت الله التماسا للثواب . وإن قدماء المصريين قد بنوا الأهرام لتكون مشوى للآلهة الفراعين ، وفى رأى أنهم كانوا يتهللون بالفرح لأشترأهم فى بناء مقابر الآلهة . إن فكرة السخرة فى بناء بيوت الآلهة فكرة

خاططة ، فالناس يتطوعون لهذا العمل طمعا في رضا الرب . ولكن لما كانت فكرة المثوبة قد التوت في أذهان كتاب التوراة بعد أن نسوا ثواب الآخرة ، فإن أى عمل في بناء بيت الرب لا يمكن من وجهة نظرهم إلا أن يكون سخرة ، ما دام الأجر الذى يناله العامل في دنياه هو الأكل والشرب والمأوى ؛ جزاء الإناعم .

ووصف كتاب التوراة أبعاد الهيكل ثم قالوا : « وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً : هذا البيت الذى أنت بانيه إن سلكت في فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فأني أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أبوك ، وأسكن في وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبى إسرائيل » .

ما هو مدلول هذا الكلام ؟ هل اصطفاه ربه أو وضعه تحت الاختبار ؟ وهل يمكن أن يكون وحى الله لغير الأنبياء ؟ إن الذين كتبوا التوراة في المنفى جعلوا الله يحدث الناس حديث بعضهم إلى بعض . إنهم جعلوا داود ملكا يرتكب المعاصى ولا يقام عليه الحد ثم جعلوا الله يحدثه في ود كأنما قد رضى الله عن معاصيه المفترة . أقوال متضاربة لا يمكن أن تستقيم مع مكارم الأخلاق ، بله النبوة وعصمة الأنبياء .

ووصف كتاب التوراة الهيكل وصفا دقيقا ، والذى يوقف النظر في ذلك الوصف أن صحن الهيكل « كان قائما على اثني عشر ثورا : ثلاثة متوجهة إلى الشمال وثلاثة متوجهة إلى الغرب وثلاثة متوجهة إلى الجنوب وثلاثة متوجهة إلى الشرق » . فما صلة اليهود بالثيران ؟ إن الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا متأثرين بالعجول المجنحة التى كانت تزين مدن آشور ، وقد وصفوا الهيكل بعد أن أشعل بختنصر فيه النيران فاختلط عليهم الأمر ، فوصفوا هيكلًا من هياكل الآشوريين أو البابليين وهم يحسبون أنهم يصفون هيكل سليمان . فمن

غير المقبول أن يقيم سليمان بحر هيكله على اثني عشر ثورا إلا إذا كان بنو إسرائيل ظلوا يعبدون العجل حتى بعد أن غادروا أرض الفراعين .

وفي وصف الهيكل نجد كتاب التوراة يذكرون في زهو ما في بيت الرب من ذهب ، فالذهب معبود اليهود الحق في كل عصر . وإن ادَّعوا أن ربهم يهوه أو أى رب آخر يسهر على مصالحهم ثمنا للحوم القرايين التى تحرق له لأن رائحة الشواء تسره أو ثمنا للدماء التى يتعطش لها على الدوام : « وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب فى المذبح من ذهب ، والمائدة التى عليها خبز الوجوه من ذهب ، والمنائر خمساً عن اليمين وخمسة عن اليسار أمام المحراب من ذهب خالص ، والأزهار والسرج والملاقط من ذهب ، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص » .

ويبدأ احتفال نقل تابوت العهد من صهيون مدينة داود إلى الهيكل : « حيث جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رعوس الأسباط رؤساء الآباء من بنى إسرائيل إلى الملك سليمان فى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب فى مدينة داود وهى صهيون . فاجتمع إلى الملك سليمان جميع رجال إسرائيل فى العيد فى شهر أيتانيم ، هو الشهر السابع . وجاء جميع شيوخ إسرائيل وحمل الكهنة التابوت وأصعدوا تابوت الرب وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى فى الخيمة فأصعدها الكهنة واللاويون . والملك سليمان وكل جماعة إسرائيل المجتمعين إليه معه أمام التابوت كانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت فى قدس الأقداس إلى تحت جناحى الكرويين ، لأن الكرويين بسطا أجنحتهما على موضع التابوت ، وظلل الكروبان التابوت وعصيه من فوق ، وجذبوا العصى فترأت رعوس العصى من القدس أمام المحراب ولم تر خارجا ، وهى هناك إلى هذا اليوم . لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان

وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر ، وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب .

حينئذ تكلم سليمان . قال الرب إنه يسكن في الضباب إني قد بنيت لك بيت سكنى مكانا لسكنائك إلى الأبد .. » .

هذا زعم الذين كتبوا التوراة ، فسليمان الذى أوتى الحكمة لا يمكن أن يتصور أن الله يعيش في السحاب وأنه بعد أن بنى الهيكل أصبح للرب مسكن يأوى إليه ، فما قدروا الله حق قدره ، ومن هذا الزعم جاء اعتقاد اليهود أن من يعيش في القدس يعيش مع الله ، وأن الذى يبني بيت خارج بيت المقدس فهو بعيد عن الله . وهنا يثور سؤال : هل يحاسب الله الذين يعيشون في بيت المقدس وحدهم فإن أحسنوا أحسن إليهم وإن أساءوا أساء إليهم أو يحاسب الناس كافة ؟ وإن كان يحاسب الناس جميعا فمن أين له العلم بأعمالهم ما دام يعيش في الهيكل ؟ كان الملك أمل الذين في المنفى فجعلوا إلههم ملكا يعيش في قصر موسى بالذهب ، وقد أطلقوا على ذلك القصر الهيكل !

إن صورة سليمان في التوراة مادية بينا صورته في القرآن روحية وإن منحه الله ملكا لا ينبغي لأحد بعده . لم تطغ أبهة الملك وتسخير الرياح والشياطين له على نقاوة روحه ولم تطفئ نور الله الذى أشرق في قلبه .

ولما كان التضارب هو سمة الذين كتبوا التوراة فإنهم جعلوا سليمان في مناجاته لربه يقرر أن السماوات لا تسع الله فبالحرى البيت الذى بناه ، وإنها مناجاة لا تتسق مع ما سبقها من القول بأن الرب يعيش في السحاب ، وأن سليمان قد بنى الهيكل ليكون مسكنا للرب إلى الأبد ، ولا تتساق مع ما بعدها من أن سليمان بعد أن كلمه الله وبعد أن بنى لله بيتا قد مال إلى نساء

الأُم وزاغ قلبه عن الإيمان وعبد آلهة الأُمم ، ولنقرأ معا دعاء سليمان : « ووقف سليمان أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه إلى السماء وقال : أيها الرب إله إسرائيل ليس إله مثلك في السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم . الذى قد حفظت لعبدك داود أبى ما كلمته به فتكلمت بفمك وأكملت بيدك هكذا اليوم ، والآن أيها الرب إله إسرائيل احفظ لعبدك داود أبى ما كلمته به قائلا لا يعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسي إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرقهم حتى يسيروا أمامى كما سرت أنت أمامى ، والآن يا إله إسرائيل فليتحقق كلامك الذى كلمت به عبدك داود أبى ، لأنه هل يسكن الله حقا على الأرض ؟ هو ذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت . فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهى . واسمع الصراخ والصلاة التى يصلها عبدك أمامك اليوم . لتكون عينك مفتوحتين على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت إن اسمى يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصلها عبدك فى هذا الموضع ، واسمع تضرع عبدك وشعب إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع ، واسمع أنت فى موضع سكنك فى السماء وإذا سمعت فاغفر ، إذا أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حلفا ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت ، فاسمع أنت فى السماء واعمل واقض بين عبيدك إذ تحكم على المذنب فتجعل طريقه على رأسه ، وتبرر البار إذ تعطيه حسب بره . إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التى أعطيتها لآبائهم . »

الذين كتبوا التوراة بأيديهم جعلوا داود ينتزع النساء من أحضان

أزواجهن ثم عادوا يقولون إن الرب قال لداود : لا يعدم لك أمامي رجل يجلس على كرسي إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرقهم حتى يسيروا أمامي كما سرت أنت أمامي . فهل الزعم بان داود اعتدى على بتشبع زوجة أوريا وأنها حبلت منه وهي في عصمة رجل آخر من دلائل السير في طريق الله ، أم أن السير في سبيل الله عند الذين كتبوا التوراة هو انتصار داود على أعدائه وذلك يغفر له كل خطاياہ المزعومة ؟ وهل ينتظر الرب أن يسير سليمان في نفس الطريق ليباركه ويبارك خطاياہ ؟ فما أقل الطهر في كل ما كتبه كتاب توراہ المنفى .

كان شاغلهم الأكبر تأكيد وعد الله في كل صفحة من صفحات التوراة ، فجعلوا سليمان يتהל إلى ربه قائلا : إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطية شعبك وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم . فهل يعقل أن سليمان ناجى ربه ليرجع شعبا إلى أرض لم يخرجوا منها بعد ؟! إنهم خرجوا بعد عصر سليمان الزاهر ، وما خطر الخروج لهم على قلب وهم في أوج مجدهم ، ولكنهم عندما وضعوا التوراة وهم في المنفى كانوا يتحرقون شوقا إلى العودة إلى فلسطين فوضعوا على السنة أنبيائهم ابتهالات تفضح التزوير .

خلق الله الإنسان وهو أعلم بما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، لذلك يدعو الناس الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم وفي كل مكان ، ولكن الذين كتبوا التوراة في المنفى قصرُوا دعاء التوبة على الهيكل : « إذا أغلقت السماء ولم يكن مطر لأنهم أخطأوا إليك ثم صلوا في هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لأنك ضاقتهم ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك إسرائيل فتعلمهم الطريق الصالح الذي يسلكون

فيه ، وأعط مطرا على أرضك التى أعطيتها لشعبك ميراثا . إذا صار فى الأرض جوع إذا صار وباء إذا صار لفتح أو يرقان أو جرذا جردم ، أو إذا حاصره عدوه فى أرض مدنه فى كل ضربة وكل مرض . فكل صلاة وكل تضرع تكون من أى إنسان كان من كل شعبك إسرائيل الذين يعرفون كل واحد ضربة قلبه فيسقط يديه نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر واعمل وأعط كل إنسان حسب كل طريقه كما تعرف قلبه ، لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب بنى البشر لكى يخافوك كل الأيام التى يحيون فيها على وجه الأرض التى أعطيت لآبائنا » .

إصرار من الذين كتبوا التوراة على أن السماء سكن الله وعلى أن الهيكل مكان الدعاء الوحيد الذى يستجيب الله فيه للداعين . ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾ (١) .

ويستمر سليمان فى الابتغال لربه على لسان الذين كتبوا التوراة ، فيقرر أن إسرائيل هم شعب الله وأن على الله أن يغفر لهم خطاياهم ما دام الله قد اصطفاهم لما كلم موسى عليه السلام : « إذا خرج شعبك لمحاربة عدوه فى الطريق الذى ترسلهم فيه وصلوا إلى الرب نحو المدينة التى اخترتها والبيت الذى بنيته لاسمك ، فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم إذا أخطأوا إليك ، لأنه ليس إنسان لا يخطئ ، وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم سايوهم إلى أرض العدو بعيدة أو قريبة ، فإذا ردوا إلى قلوبهم فى الأرض التى يسبون إليها ورجعوا وتضرعوا إليك فى أرض سايهم قائلين قد

أخطأنا وعوّجنا وأذنبنا ، ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم في أرض أعدائهم الذين سبّوهم وصلوا إليك نحو أرضهم التي أعطيت لآبائهم نحو المدينة التي أخطرت والبيت الذي بنيت لاسمك ، فاسمع في السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم ، واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك وجميع ذنوبهم التي أذنبوا بها إليك وأعطهم رحمة أمام الذين سبّوهم فيرجعهم ، لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر من وسط كور الحديد ، لتكون عينك مفتوحة نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل فتصغي إليهم في كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثا من جميع شعوب الأرض كما تكلمت عن يد موسى عبدك عند اخراجك آباءنا من مصر يا سيدي الرب .

أهذه ابتهالات سليمان أم ابتهالات الذين كانوا في المنفى ؟ من أين جاءت لسليمان فكرة سبّ الشعب الإسرائيلي ولم يكن السبّ قد وقع بعد ؟ وهل يحظر السبّ على قلب رجل دانت له الشعوب من حوله ؟ إنها أمانى الذين كتبوا التوراة في المنفى وضعوها على لسان سليمان ، إنها دعواتهم التي كانوا يتمنون أن يستجيب الله لها ، وإنها دعواهم العريضة بأنهم ميراث الله وأنهم شعب الله وأن أرض فلسطين قد منحها الله لهم مكافأة على شروهم وعلى كفرهم وعلى آثامهم التي تندى لها جباه البشرية خجلا ، ولكنه الغرور قاتله الله .

كان سليمان يعلم أن الله رب العالمين وليس رب إسرائيل وحدهم ، وأن الناس كلهم من آدم وأن لا فرق بين بنى إسرائيل وبين الأمم ، ولكن الذين عبدوا أنفسهم غرورا في المنفى راحوا يعبرون عن خفايا نفوسهم على ألسنة أنبياء الله . وقد تناولوا في الافتراء فوضعوا على لسان رب العزة أقوالا لا تتسم بالعدل ولا بالمنطق ولا بمكارم الأخلاق ، سبحانه الله عما يصفون وتعالى علوا

كبيراً .

وانتهت صلاة سليمان وتصرمت أيام الاحتفالات : « وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سر أن يعمل ، أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له فى جبعون وقال له الرب : قد سمعت صلاتك وتضرعت الذى تضرعت به أمامى . قدست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عينى وقلبى هناك كل الأيام ، وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فى أن أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك قائلاً : لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل » .

أين عقول الذين كتبوا التوراة ١٩ يقولون على لسان الرب وهو يخاطب سليمان : وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة . يقولون ذلك دون أن تضطرب الأقلام فى أيديهم بعد أن زعموا أن داود ارتكب معصية الزنا جهاراً نهاراً ، فهل ما زعموه من أنه اغتصب بتشيع يدل على سلامة القلب والاستقامة ؟ إن كانت عقول الذين كتبوا التوراة قد طاشت فأين عقول الذين قرأوا التوراة منذ زمن السبى إلى الآن ؟ هل أغلقوا عقولهم أم قبلوا تلك المزاعم على أنها شيء مقدس لا يناقش ؟ إن الأخلاق الفاضلة هى الأخلاق الفاضلة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، فلماذا يريد المتحمسون لتوراة المنفى أن تكيل الأخلاق الفاضلة بمكيالين وأن تقيسها بمقياسين ، مقياس البيئة فى أيام أنبياء بنى إسرائيل والعادات والتقاليد فى تلك الأزمنة ، ومقياس البيئة فى زماننا وما ورثناه من أخلاق فاضلة على مر العصور ؟

إن مستوى الأخلاق عند الفرعونى حتى قبل عصر أنبياء قدماء المصريين (غزوة نبوك)

كان أرفع من ذلك المستوى الهابط الذى تنضح به توراة المنفى ، فالحقيقة التى لا تحتمل الجدل أن الذين كتبوا التوراة كانوا أذلاء فى بابل وكانوا يلغون فى الخطايا وكانت نساؤهم محظيات للملوك والأغنياء ، فأرادوا أن يعزوا أنفسهم فألصقوا التهم الدنيئة بأنبياء بنى إسرائيل ليصبح الجميع فى الانحلال سواء .
 « إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبنائكم من ورأى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها ، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة فى جميع الشعوب ، وهذا البيت يكون عبرة ، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون : لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ؟ فيقولون : من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر » .

هذا وصف حال الذين حاربهم بختنصر وحملهم من فلسطين إلى العراق بعد عصر سليمان . وقد وضع الذين كتبوا التوراة ذلك الوصف الذى وقع فعلا على لسان إلههم ليوهما بنى إسرائيل أن ذلك كان وعيد ربهم وليوحوا إليهم العودة إلى طريق الرب ، ليعود إليهم هيكلهم الذى أهانه بختنصر ، وإن تلك العبارات إن أكدت شيئا فإنها تؤكد أن الشعب الذى عبد نفسه غرورا قد عبد آلهة البابليين كما عبد آلهة الفراعين من قبل ، وأنه شعب ليس معصوما وأنه سرعان ما ينجد عن طريق الله ، فلماذا لا تحمر وجوههم نخجلا لما يزعمون أنهم شعب الله المختار ؟!

« وسمعت ملكة سبأ بنجر سليمان لمجد الرب فأنت لتتحنه بمسائل . فأنت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة ، وأنت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها ، فأخبرها سليمان بكل

كلامها . لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به . فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه وطعام مائدته ومجلس عبده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد . فقالت للملك : صحيحا كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عينى ، فهو ذا النصف لم أخبر به . زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعته . طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك . ليكن مبارك الرب إلهك الذى سربك وجعلك على كرسي إسرائيل ، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجزى حُكما وبراً . وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطيبا كثيرة جدا وحجارة كريمة ، لم يأت بعد ذلك مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان ، وكذا سفن حيرام التى حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة ، فعمل سليمان خشب الصندل درابزين لبيت الرب وبيت الملك وأعوادا وربابا للمغنين ، لم يأت ولم يُر مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم . وأعطى الملك سليمان للملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان ، فأنصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبدها » .

هذه صورة للقاء بين سليمان وملكة سبأ فى التوراة ، وهو لقاء مady بين ملك وملكة . إنها أخذت بطعام سليمان ومائدته وملابس جنده ولم تر حكمة سليمان أو سلطانه وقد عرف منطق الطير وأعطاها الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده . أما لقاء سليمان وملكة سبأ فى القرآن فإنه لقاء مثير ، يبرز الناحية الروحية ويؤكد سلطان سليمان وحكمته وتسخير الجن وقدرة من عنده علم من الكتاب ، وكلها برهان مبين على أن ملك سليمان لا ينبغي لأحد من بعده

حتى لو حكم الدنيا بأسرها : « وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو لياتينى بسلطان مبین . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكاتبى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوى مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتوى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فمن شكر فأنم يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل

لها ادخل الصرح فلما رآته حسبته لُجّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح مرمّد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (١).

سليمان في القرآن نبي مرسل وفي التوراة ملك أوتي الحكمة وقد حدثه الله وباركه لأنه بنى في القدس هيكل الرب . وقد ناجى سليمان في الهيكل ربه مناجاة صادرة من قلب مؤمن ولكن الذين كتبوا التوراة في المنفى عز عليهم أن يستمر الرجل الذي أوتي الحكمة عبدا مؤمنا لربه حتى آخر أيامه بل جعلوه يكفر بالله ، ولم يشفع له عندهم أنه الذي بنى بيت الرب ، فهم قد عبدوا آلهة الأمم في أرض بابل وأشركوا بالله فحق على الأنبياء جميعا أن يشركوا بالله مثلهم . إنهم كانوا يعكسون شرك أفقدتهم على ما كانوا يكتبون : « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون وموابيات وعمونيات وأشوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل : لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري . فأملت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتورت (عشتار) إلهة الصيدونيين وملكوم ربة العمونيين ، وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نساءه الغريات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن

لا يتبع آلهة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب . فقال الرب لسليمان : من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فأني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك . إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها . على أني لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطا واحدا لابنك لأجل داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها .

حتى سليمان الذي بنى هيكل الرب لم ينبج من حقد الذين كتبوا التوراة في المنفى ، فقد زعموا أنه مال إلى آلهة نسائه اللاتي تزوجهن من غير بنى إسرائيل ، وأنه لقول عجيب . فهل يعقل أن يعبد سليمان عشتار إلهة اللذة والقسوة بعد أن خاطبه الرب مرتين حسب زعمهم ؟ وهل يعقل أنه بعد أن بنى لله بيتا أن يبنى بيوتا للأصنام في المرتفعات كما كان يفعل البابليون ؟ ولماذا لم يحاول سليمان أن يهدي أزواجه إلى عبادة إلهه وهو الذي ناجى ربه مناجاة حارة لا تصدر إلا عن قلب سليم ؟ وكيف يزعمون أن الرب قال لسليمان إنه لا يمزق مملكته جزاء على شركه به في أيامه إكراما لأبيه داود وهم الذين زعموا أن داود قد زنى بامرأة أوريا وامرأة أخرى قبلها ، فهل رب إسرائيل يرضى عن الزنى ويباركه ؟ لقد تضاربت أقوالهم ، قالوا مرة إن الله غضب على ما فعله داود وأنه قد رأى أن ينتقم من داود بأن يسمح للرجال بأن يزنوا في بيت داود في عين الشمس ، وحاشا لله أن يرضى عن أن تشيع الفاحشة بين الناس أو أن يجازى الفاحشة بالفاحشة . وقالوا مرات إن الله قد أخر عذابه إكراما لداود الذي عرف طريق الرب ، فهل اغتصاب نساء الآخرين هو السبيل إلى رضا الله ؟!

إن القرآن الكريم قد أخبر أن ملكة سبا قد أسلمت مع سليمان لله رب

العالمين^(١) ، وهو قول يتساق مع شخصية سليمان الذى أوحى الله إليه أن يبنى له بيتا ، فالمقدمات تتفق مع النتائج ، أما أن يكفر سليمان بعد أن يبنى بيت الله فهو قول لا يسيغه عقل وهو اتهام لله سبحانه وتعالى بالجهل بالغيب . فكيف يصطفى الله رجلا لبنى بيته وهو يعلم أن ذلك الرجل سينحرف عن طريقه إكراما لزوجاته وسراريه الألف ١؟

إن محمدا — ﷺ — تزوج مشركات ويهودية ونصرانية وقد هداهن جميعا إلى الصراط المستقيم ، فكيف يميل قلب سليمان إلى آلهة نسائه بعد أن عرف قلبه النور ؟ وكيف يكفر سليمان بعد أن أوحى الله إليه ما أوحى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر ... »^(٢) . « ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب »^(٣) .

كُتبت التوراة فى المنفى بعد عهد داود وسليمان ، فكان التدوين بعد أن وقعت الأحداث فى إسرائيل وبعد أن حمل يختنصر اليهود إلى العراق ، فأراد الذين كتبوا التوراة أن يكون لكل حدث تاريخى سبب دينى . فإذا كان ملك سليمان قد انتقل من بعده إلى آخرين فلا بد أن يكون سبب ذلك أن سليمان كفر بربه حتى أذهب الملك من بيته إلى أحد عبيده ، فرضا الرب لا يكون فى إسرائيل إلا بالتمكين فى الأرض ، ما دامت جنتهم أرضية .

« وأقام الرب خصما لسليمان هدد الأدمى ، كان من نسل الملك فى أدوم . وحدث لما كان داود فى أدوم عند صعود يوباب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر فى أدوم — لأن يوباب وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة

(١) جاء ذلك فى سورة النمل ٤٤ .

(٣) سورة ص ٣٠ .

(٢) البقرة ١٠٢ .

أشهر حتى أفنوا كل ذكر في أدوم — أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر وكان هدد غلاما صغيرا . وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر فأعطاه بيتا وعين له طعاما وأعطاه أرضا . فوجد هدد نعمة في عيني فرعون جدا وزوجه أخت امرأته أخت نحفنبس الملكة . فولدت له أخت نحفنبس جنوب ابنه ، وفطمته نحفنبس في وسط بيت فرعون . وكان جنوب في بيت فرعون بين بني فرعون . فسمع هدد في مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه وبأن يوأب رئيس الجيش قد مات ، فقال هدد أطلقني فأطلق إلى أرضي . فقال له فرعون : ماذا أعوزك عندي حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك ؟ فقال : لا شيء وإنما أطلقني .

وأقام الله له خصما آخر رزون بن اليداع الذي هرب من عند سيده هدد عزز ملك صوبة . فجمع إليه رجالا فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم ، فانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق ، وكان خصما لإسرائيل كل أيام سليمان مع شر هدد ، فكره إسرائيل وملك على آرام .

ويربعام بن ناباط أفرايمي من صردة عبد لسليمان واسم أمه صروعة ، وهي امرأة أرملة رفع يده على الملك ، وهذا هو سبب رفعه يده على الملك : أن سليمان بنى القلعة وسد شقوق مدينة داود أبيه . وكان الرجل يربعام جبار بأس . فلما رأى سليمان الغلام أنه عامل شغلا أقامه على كل أعمال بيت يوسف ، وكان في ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشلیم أنه لاقاه أخيا الشيلوني النبي في الطريق وهو لابس رداء جديدا وهما وحدهما في الحقل ، فقبض أخيا على الرداء الجديد الذي عليه ومزقه اثنتي عشرة قطعة . وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل ، هاأنذا أفرق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط واحد من أجل

عبدى داود ومن أجل أورشلیم المدينة التى اخترتها من كل أسباط إسرائيل ، لأنهم تركونى وسجدوا لعشتورت إلهة الصيدونيين وليكموش إله الموابيين وللكوم إله بنى عمون ولم يسلکوا فى طرق ليعملوا المستقيم فى عینى وفرائضى وأحكامى كداود أبيه . ولا آخذ كل المملكة من يده بل أصيره رئيسا كل أيام حياته لأجل داود عبدى الذى اخترته الذى حفظ وصاياى وفرائضى . وآخذ المملكة من يد ابنه وأعطيك إياها أى الأسباط العشرة وأعطى ابنه سبطا واحدا ليكون سراج لداود عبدى كل الأيام أمامى فى أورشلیم المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع اسمى فيها . وآخذك تملك حسب كل ما تشتهى نفسك وتكون ملكا على إسرائيل . فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت فى طرقى وفعلت ما هو مستقيم فى عینى وحفظت فرائضى ووصاياى كما فعل داود عبدى ، أكون معك وأبنى لك بيتا آمنا كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل ، وأذل نسل داود من أجل هذا ولكن لا كل الأيام .

هل نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى ما زعموه من أن داود أغضب الرب واغتصب بثشبع زوجة أوریا الحثى وأن الرب قد هدد داود بأن يُزنى فى أهل بيته فى عين الشمس ؟ وهل كان ما زعموه هو سبيل الله الذى لا يفتأ رب إسرائيل يذكره لداود كلما أراد أن يكافئ بيت داود على استقامة داود ، أم أن أكثر من كاتب كتب التوراة دون أن يطلع على ما كتبه غيره ؟

أقوال لا تستقيم مع منطق الأحداث ولو صدرت عن قصاص لا نتقد على تخطيطه وعلى عدم وضوح تصرف شخص روائته وتناقض تصرفاتها .

وزعموا أن سليمان كفر فهل يمكن أن يرتد إلى الوثنية ؟! إن الله — فى زعمهم — حدث سليمان مرتين فهل يعقل أن المرء يكفر بعد وحي الله ؟ وهل يعقل أن الله يحدث عبدا من عباده دون اصطفاء ؟!

إن مزاعم الذين كتبوا التوراة فى المنفى تطعن فى علم رب إسرائيل

بالغيب ، فلو كان يعلم الغيب لما اصطفى أناسا لبناء بيته يرتدون عن دينه
ويكفرون به ، ولما صب غضبه عليهم بعد إذ هداهم .

دونت أحداث هذا العصر في المنفى بعد أن مات سليمان وبعد أن انتزع
يربعام الملك من رجعام بن سليمان وبعد أن وقعت وقائع ذلك الزمان ،
فجعلوا أخياً النبي يتنبأ بكل ما وقع بعد أن صبغوه بأفكارهم الحاقدة وما قر
في أذهانهم من كفر سليمان ، فلو لا ذلك الكفر الذي زعموه ما خرج الملك
من بيته وما نزع رب إسرائيل من يد ذريته ، فالمملك والمملك وحده هو آية رضا
الرب في عرف الذين كتبوا تورا المنفى .

« وطلب سليمان قتل يربعام فقام يربعام وهرب إلى مصر إلى شيشنق ملك
مصر ، وكان في مصر إلى وفاة سليمان . وبقية أمور سليمان وكل ما صنع
وحكمته أما هي مكتوبة في سفر أمور سليمان » .

هل الحكمة تفقد إلى عبادة عشتار وآله الوثنيين بعد أن يشرق في القلب
نور الله ؟ إن كل ما ألصقه كتبة التوراة بسليمان يبعده عن الحكمة ، فمن أوتي
الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً . وإن ما نسب إلى سليمان يجعله يحيد عن طريق
الخير ويفرق في الشر حتى أذنيه ، فهل أخطأ كتبة التوراة لما نسبوا إليه الحكمة
أو أخطأوا لما زعموا أنه كفر ؟ فالحكمة والكفران بعد إشراق أنوار اليقين في
القلب لا يتفقان .

وذكر كتبة التوراة أن حكمة سليمان مكتوبة في سفر أمور سليمان ،
ولا يوجد في التوراة سفر بهذا الاسم . فهل كانت التوراة تضم ذلك السفر
ثم رفع منها ؟ وإذا كان قد رفع فما سبب رفعه ومن ذا الذي يملك عدم إثباته
إن كان ما في التوراة من وحى الله ؟!

وكل ما ذكره كتاب التوراة أن سليمان قد مات بعد أن حكم أربعين
عاماً : « وكانت الأيام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيل

أربعين سنة ، ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه وملك رحبعام ابنه عوضا عنه . أما موت سليمان في القرآن فيختلف كل الاختلاف عن موته في التوراة واضطجعه مع آبائه : « فلما قضينا عليه الموت ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » (١) .

ولترك سليمان عليه السلام في رحاب الله يترقب نزول القرآن الكريم ليرثه من افتراءات كتاب التوراة الذين كانت أفدتهم مفعمة بالحق على الأنبياء جميعا وكان مداد أقلامهم الصديد ، ولا غرو فقد كانوا أسرى في بابل فكانوا يرسفون في العبودية والعذاب المهين ، ولتر ماذا كان مصير يربعام الذي وعد الله أن يعطيه عشرة أسباط من أسباط إسرائيل ؟ وهل نجا من مرض قلوب كتاب التوراة ؟

« وذهب رحبعام إلى شكيم لأنه جاء إلى شكيم جميع إسرائيل ليملكوه ، ولما سمع يربعام بن نباط وهو في مصر — لأنه هرب من وجه سليمان الملك وأقام يربعام في مصر — وأرسلوا فدعوه . أتى يربعام وكل جماعة إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين : إن أباك قسى نيرنا وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا فنخدمك . فقال لهم اذهبوا إلى ثلاثة أيام أيضا ثم ارجعوا إلى . فذهب الشعب . فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حى قائلا كيف تشيرون أن أرد جوابا إلى هذا الشعب ؟ فكلموه قائلين : إن صرت اليوم عبدا لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلاما حسنا يكونون لك عبيدا كل الأيام ، فترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ووقفوا أمامه ، وقال لهم : بماذا تشيرون أنتم فنرد جوابا على هذا الشعب الذين كلموني

قائلين : خفف من النير الذى جعله علينا أبوك ؟ فكلّمه الأحداث الذين نشأوا معه قائلين : هكذا تقول لهذا الشعب الذين كلّموك قائلين إن آباك ثَقُلَ نيرنا وأما أنت فخفف من نيرنا . هكذا تقول لهم : إن خنصرى أغلظ من متنى أئى . والآن أئى حمّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم . أئى أدبكم بالسياط وأنا أؤدّبكم بالعقارب .

فجاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام فى اليوم الثالث كما تكلم الملك قائلا ارجعوا إلّى فى اليوم الثالث . فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه . وكلّمهم حسب مشورة الأحداث قائلا : أئى ثَقُلَ نيركم وأنا أزيدكم على نيركم . أئى أدبكم بالسياط وأنا أؤدّبكم بالعقارب . ولم يسمع الملك للشعب لأن السبب كان من قبل الرب ليقيم كلامه الذى تكلم به الرب عن يد أخيا الشيلونى إلى يربعام بن نباط . فلما رأى كل إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم رد الشعب جوابا على الملك قائلين : أئى قسم لنا فى داود ولا نصيب لنا فى ابن يسى ؟ إلى خيامك يا إسرائيل . الآن انظر إلى بيتك يا داود . وذهب إسرائيل إلى خيامهم . وأما بنو إسرائيل الساكنون فى مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ، ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذى على التسخير فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات . فبادر الملك رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم . فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع إسرائيل ، ولم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين مملكة إسرائيل وعليها يربعام الذى اختاره الله حسب زعم كتبة التوراة ، ومملكة يهوذا ، وكانت مملكة إسرائيل تضمّر العدواة لبيت داود حتى عصر التدوين ، وقد كانت كراهية إسرائيل لبيت داود هى الباعث على الافتراءات التى ألصقتها كتاب التوراة بـداود وسليمان ،

فالدافع إلى تلويث داود وسليمان دافع سياسى ، وإن ذلك الانقسام الذى حدث فى إسرائيل هو آية الاضطراب الذى تموج به تورا المنفى ، فالإسرائيل الذى كان يشترك فى كتابة التوراة فى بابل كان ينفث حقه على بيت داود ، بينا اليهودى يسكب عواطف الحب على كتاباته ، فجاءت شخصية داود مضطربة كل الاضطراب . ففى بعض الإصحاحات نجد داود زانيا يغتصب النساء من أحضان أزواجهن ، وفى إصحاحات أخر نجده رجل الرب الذى يحمده له الله أنه يسير فى طريق الرب والرشاد . وكان سليمان عجيبا غريبا فهو يبنى الهيكل للرب إله إسرائيل ، ثم يرتد بعد أن أوحى إليه ليعبد الأوثان والأصنام ! صفات متضاربة لا يمكن أن تتصف بها نفس مطمئنة اتصلت بالله أو عرفت نور السماوات والأرض .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين وبدأت بينهما الحروب : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ؛ فسبط يهوذا حارب باقى الأسباط ليحكم لابن سليمان فى الأرض : « ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين مائة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة لرحبعام ابن سليمان ، وكان كلام الله إلى شمعيا رجل الله قائلا : كَلِّمْ رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلا : هكذا قال الرب : لا تصعدوا ولا تحاربوا إخوتكم بنى إسرائيل ، ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر . فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب » .

زعم الذين كتبوا التوراة أن الرب أمر اليهود بعدم محاربة إسرائيل لأنه اختار يربعام لحكم إسرائيل فما دام الله يعلم الغيب فلا شك فى أنه اختار الرجل الصالح الذى يعرف طريقه وسيقود إسرائيل إلى الصراط المستقيم . ولكن يربعام لم ينج من لعنة كتبة التوراة ، جعلوه — بعد أن اختاره الله — يعبد

الأصنام ، وإن هذا الأمر ليحير قارئ التوراة فما يدري بحكمة تكفير كل من اختاره الله ليحكم إسرائيل . أريد هؤلاء الأخبار أن يؤكدوا أن رب إسرائيل لا يعلم الغيب ، أم يريدون أن يقولوا إنهم وقد عبدوا الأصنام في المنفى وأنبياء بنى إسرائيل وأصفياء الله سواء بسواء !

» وبنى يربعام شكيم في جبل أفريم وسكن بها ، ثم خرج من هناك وبنى قنوثيل . وقال يربعام في قلبه : الآن ترجع المملكة إلى بيت داود . إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رجبعام ملك يهوذا ويقتلون ويرجعوا إلى رجبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عجلَى ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم . هوذا آهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحدا في بيت إيل وجعل الآخر في دان . وكان هذا الأمر خطية ، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان . وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بنى لاوى ، وعمل يربعام في الشهر الثامن في اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى في يهوذا وأصعد على المذبح . هكذا فعل في بيت إيل بذبحه للعجلين اللذين عملهما ، وأوقف في بيت إيل كهنة المرتفعات التى عملها ، وأصعد على المذبح الذى عمل في بيت إيل في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن الذى ابتدعه من قلبه فعمل عيداً لبنى إسرائيل وصعد على المذبح ليوقد . .

مسكين أنت يا يربعام ، فرق الرب ملك سليمان وأعطاك عشرة أسباط وترك لابن سليمان سبط يهوذا وسبط بنيامين . وقد أخبرك نبي الله بإرادة الرب ثم تخشى بعد ذلك أن يعود الملك إلى بيت داود فتكفر بالرب وتبعد الأصنام . هكذا أراد لك الذين كتبوا التوراة في المنفى فقلوبهم تخفق بالحقد على كل الناس ، لم ينجم من مرض أفئدتهم نبي أوحى إليه أو ملك اختاره الرب

وطعنوا إيمان كل الناس لأن إيمانهم تزعزع في قصور ملوك بابل وإيران ، واضطربت في أيديهم الموازين فبخسوا كل أعمال الصالحين . وعجزوا عن أن يذوقوا حلاوة الإيمان ما دامت سرائرهم قد فاضت بالمرارة والحقد على أنبياء إسرائيل ورب إسرائيل الذين لم يمنعوا كارثة السبي .

لم تكن وحدك الذى تنكب طريق الله فى التوراة ، لقد حاد عنه من سبقوك من أنبياء وملوك اختارهم الله لبنى إسرائيل وسيحيد عنه أنبياء وملوك بعدك ، فالسلوك ليس سلوك الأنبياء والملوك ولكنه مرض قلوب الذين كتبوا التوراة فى أرض السبي .

ولنر الآن ما هو مآل رجل الرب الذى جاء ليعنف يربعام على شركه وحرقت المحرقات لغير الله : « وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت إيل ويربعام واقف لدى المذبح لكى يوقد . فنادى نحو المذبح بكلام الرب وقال : يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب : هو ذا سيولد فى بيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتحرق عليك عظام الناس . وأعطى فى ذلك اليوم علامة قائلا : هذه هى العلامة التى تكلم بها الرب ، هو ذا المذبح ينشق ويذرى الرماد الذى عليه . فلما سمع الملك كلام رجل الله الذى نادى نحو المذبح فى بيت إيل مد يربعام يده عن المذبح قائلا : أمسكوه . فبيست يده التى مدها نحوه ولم يستطع أن يردها إليه . وانشق المذبح وذرى الرماد من على المذبح حسب العلامة التى أعطاهها رجل الله بكلام الرب . فأجاب الملك وقال لرجل الله : تضرع إلى وجه الرب إلهك وصل من أجلى فترجع يدي إلى . فتضرع رجل الله إلى وجه الرب فرجعت يد الملك إليه وكانت كما فى الأول . ثم قال الملك لرجل الله : ادخل معى إلى البيت وتقوت فأعطيك أجرة . فقال رجل الله للملك : لو أعطيتنى نصف بيتك لا أدخل معك ولا أكل خبز ولا أشرب ماء فى هذا الموضع ، لأنى هكذا

أوصيت بكلام الرب قائلا : لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء ولا ترجع في الطريق الذي ذهبت فيه . فذهب في طريق آخر ولم يرجع في الطريق الذي جاء فيه إلى بيت إيل .

وكان نبي شيخ ساكناً في بيت إيل ، فأتى بنوه وقصوا عليه كل العمل الذي عمله رجل الله ذلك اليوم في بيت إيل وقصوا على أبيهم الكلام الذي تكلم به إلى الملك ، فقال لهم أبوهم : من أى طريق ذهب ؟ وكان بنوه قد رأوا الطريق الذي سار فيه رجل الله الذي جاء من يهوذا . فقال لبنيه : شدوا لى على الحمار . فشدوا له على الحمار فركب عليه وسار وراء رجل الله فوجده جالسا تحت البلوطة فقال له : أنت رجل الله الذي جاء من يهوذا ؟ فقال : أنا هو . فقال له : سر معى إلى البيت وكل خبزاً . فقال : لا أقدر أن أرجع معك ولا أدخل معك ولا أكل خبزاً ولا أشرب معك ماء في هذا الموضع ، لأنه قيل لى بكلام الرب : لا تأكل خبزاً ولا تشرب هناك ماء ولا ترجع سائراً في الطريق الذي ذهبت فيه . فقال له : أنا أيضاً نبي مثلك وقد كلمنى ملاك الرب قائلا : ارجع به معك إلى بيتك فياكل خبزاً ويشرب ماء . كذب عليه فرجع معه وأكل خبزاً في بيته وشرب ماء .

أسلوب في التفكير لا يتغير ، نبي يكذب على رجل الله ويمكر به حتى يقع في الخطيئة . لماذا كذب النبي ؟ وما حكمة كذبه إن كان للكذب حكمة ؟ وإذا كان النبي يكذب فمن ذا الذى لا يكذب ؟ وما هى الحكمة الأخلاقية التى يريد كتاب التوراة فى المنفى أن يسوقوها للمؤمنين بتوراتهم ؟ ولماذا مكر النبي برجل الله ، وما هو ثواب هذا العمل الدنيء ؟ رجل الله نفذ وصية الله — على فرض أن ذلك قد حدث — فلماذا يخرج النبي الشيخ فى أثره ليخدعه ويرغم له أنه أوحى إليه وأن الله يأمره بأن يدخل معه ويأكل ويشرب فى الموضع الذى نهى عن الأكل والشرب فيه ؟

حكايات تنضح بنجث نفوس الذين كتبوها ، وحاشا لله أن يرسل أنبياء يكذبون على الناس ويكذبون على الله ويمكرون بالناس ليوقعوهم في الخطايا عامدين . ومادية طاغية نسبوها إلى الرب ، فأى إله هذا الذى لا يهتم إلا بالأكل والشرب وينهى عن الأكل والشرب في مكان ما ولا ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؟ إله تشوى له لحوم الذبائح ويناله الدماء ولا يهتم بتقوى عباده !

تفكير أفسده ذل الأسر وعادات البابليين الذين عاش كتاب التوراة في وسطهم وتأثروا بدياناتهم . مادية طغت على الروح بعد أن نسى كتاب التوراة اليوم الآخر وآمنوا بأن ثواب أعمالهم في إطالة أعمارهم على الأرض ورغد العيش ، وأسلوب واحد في التفكير لا هم له إلا تعقب الصالحين لتمرغهم في نفس الوحل الذى كانوا فيه يتمرغون .

كذب نبي الله على رجل الله ولم ينقطع الوحي عنه جزاء وفاقا على ذلك الكذب بل استمر الرب يوحى إليه ، كأنما كان الرب راضيا عن ذلك الكذب ، ومن الغريب أن الرب أنزل غضبه على رجل الله المخدوع ولم ينزل غضبه على الكاذب الخادع : « وبينما هما جالسان على المائدة كان كلام الرب إلى النبي الذى أرجعه . فصاح إلى رجل الله الذى جاء من يهوذا قائلا : هكذا قال الرب : من أجل أنك خالفت قول الرب ولم تحفظ الوصية التى أوصاك بها الرب إلهك ، فرجعت وأكلت خبزا وشربت ماء في الموضع الذى قال لا تأكل فيه خبزا ولا تشرب ماء ولا تدخل جثتك قبر آبائك . ثم بعد ما أكل خبزا وبعد أن شرب شد له على الحمار — أى للنبي الذى أرجعه — وانطلق . فصادفه أسد في الطريق وقتله وكانت جثته مطروحة في الطريق والحمار واقف بجانب والأسد واقف بجانب الجثة ، وإذا بقوم يعبرون فرأوا الجثة مطروحة في الطريق والأسد واقف بجانب الجثة ، فأتوا وأخبروا في المدينة التى كان النبي (غزوة تبوك)

الشيخ ساكنها . ولما سمع النبي الذي أرجعه عن الطريق قال : هو رجل الله الذي خالف قول الرب ، فدفعه الرب للأسد فاقتصره وقتله حسب كلام الرب الذي كلمه به ، وكلم بنيه قائلا : شدوا الى على الحمار ، فشدوا ، فذهب ووجد جثة مطروحة في الطريق والحمار والأسد واقفين بجانب الجثة ولم يأكل الأسد الجثة ولا افترس الحمار . فرفع النبي جثة رجل الله ووضعها على الحمار ، ورجع بها ودخل النبي الشيخ المدينة ليندبه ويدفنه ، فوضع جثته في قبره وناحوا عليه قائلين : آه يا أخى . وبعد دفنه إياه كلم بنيه قائلا : عند وفاتي ادفنوني في القبر الذى دفن فيه رجل الله بجانب عظامه ضعوا عظامي ، لأنه تماما سيتم الكلام الذى نادى به بكلام الرب نحو المذبح الذى في بيت إيل ونحو جميع بيوت المرتفعات التى في مدن السامرة ، بعد هذا الأمر لم يرجع يريعام عن طريق الرديّة بل عاد فعمل من أطراف الشعب كهنة مرتفعات من شاء ملأ يده فصار من كهنة المرتفعات ، وكان من هذا الأمر خطية لبست يريعام وكان لإبادته وخرابه عن وجه الأرض .

كان السيد المسيح يقول : احذروا الأنبياء الكذبة . وما أكثر الأنبياء الكذبة في توراة المنفى ! وكان بنو إسرائيل ومن بعدهم اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وإن قارئ التوراة لا يجد فيهم صفة واحدة تؤهلهم لذلك الاختيار ، فما أن يصطفى رب إسرائيل نبيا حتى يرتد ذلك النبي عن طريق الله ويعبد آلهة المرتفعات ، وما من نبي مرت أيامه بسلام وهو متفرح في الله وبالله . إنهم جميعا تنكبوا الصراط المستقيم — أو بمعنى أصح هكذا صورتهم عقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم — فإذا كانت هذه التوراة التى بين أيدينا هى قياس مقدار تقوى أنبياء إسرائيل وشعب إسرائيل واليهودية ، فما أقل نصيب هذا الشعب من طهارة النفوس — وإن اهتموا بطهارة الملابس والأبدان وقشور الطهارة وماديتها ، وما أقل استحقاق هذا الشعب لما زعم من أنه شعب الله ولكنه

الغرور الذى دفعهم إلى أن يعبدوا أنفسهم وأن يحسبوا أنهم وحدهم الناس : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير »^(١). « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون »^(٢) .

ولنستمر فى قراءة سفر الملوك الأول : « فى ذلك الزمن مرض أيبا بن يربعام ، فقال يربعام لامرأته : قومي غيرى شكلك حتى لا يعلموا أنك امرأة يربعام واذهبى إلى شيلوه ، هو ذا هناك أخيّا النبى الذى قال عني إني أملك على هذا الشعب ، وخذى بيدك عشرة أرغفة وكعكا وجرة عسل وسيرى إليه وهو يخبرك ماذا يكون للغلام » . إنه نبى يهودى لا يتنبأ إلا إذا أخذ أجر تنبؤه ، وما أيسره من أجر يقدمه ملك : عشرة أرغفة وكعك وجرة عسل . « ففعلت امرأة يربعام هكذا وقامت وذهبت إلى شيلوه ودخلت بيت أخيّا ، وكان أخيّا لا يقدر أن يبصر لأنه قد غامت عيناه بسبب شيخوخته . وقال الرب لأخيّا : هو ذا امرأة يربعام آتية لتسأل منك شيئا من جهة ابنها لأنه مريض فقل لها كذا وكذا ، فإنها عند دخولها تتنكر . فلما سمع أخيّا جس رجلها وهى داخله فى الباب قال : ادخلى يا امرأة يربعام ، لماذا تتنكرين وأنا مرسل إليك بقول قاس ؟ اذهبي قولى ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل ، من أجل أنى قد رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيسا على شعبى إسرائيل وشققت المملكة من بيت

(١) المائدة ١٨ .

(٢) المائدة ٧٧ — ٨٠ .

داود وأعطيتك إياها ولم تكن كعبدى داود الذى حفظ وصاىاى والذى سار ورأى بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط فى عينى ، وقد ساء عملك أكثر من جميع الذين كانوا قبلك فسرت وعملت لنفسك آلهة أخرى ومسبوكات لتغيظنى وقد طرحتنى وراء ظهرك ، لذلك هاأنذا جالب شرا على بيت يربعام وأقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزا ومطلقا فى إسرائيل ، وأنزع آخر بيت يربعام كما ينزع البعر حتى ينفى ، من مات ليربعام فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء لأن الرب تكلم . وأنت فقومى وانطلقى إلى بيتك وعند دخول رجلك المدينة يموت الولد ، ويندبه جميع إسرائيل ويدفنونه ... » .

لا تؤاخذوهم عندما يذكرون استقامة داود فقد نسوا الإفك الذى نسبوه إليه أولعلمهم لا يرون فى اغتصاب بتشبع امرأة أوريا الحثى عملا يغضب رب إسرائيل ونسأؤهم تغتصب كل ليلة فى بلاط الملوك وقصور الأشراف ويوت من يملكون الذهب المعبود .

كفر يربعام الذى اختاره رب إسرائيل ليكون ملكا على شعبه إسرائيل ، ولم يكن أحسن حالا من سليمان الذى زعموا أنه كفر — وما كفر سليمان — فقيم كان تمزيق المملكة وتنصيب يربعام على إسرائيل — على عشرة أسباط من بنى إسرائيل — ما دام الكفر هو غاية الجميع ؟! كفر يربعام ملك إسرائيل فماذا كان حال رحبعام بن سليمان ملك اليهودية ؟ : « أما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا ، وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك ، وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل ، واسم أمه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آبأؤهم بخطاياهم التى أخطأوا بها ، وبنواهم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل مرتفع وتحت كل شجرة

خضرء ، وكان أيضا مأبونون فى الأرض . فعلوا كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل .
 كفر يربعام وأشرك بالله فكفرت إسرائيل ، وكفر رجبعام فكفرت اليهودية . وصارت إسرائيل بمملكتيها أمة كافرة تعبد الأصنام ، وانتشر فيها الفساد وكثر فيها المأبونون وصاروا كقوم لوط ، وبعد كل ذلك يزعمون أن الله فضلهم على العالمين وأنه اصطفاهم دون الناس : « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »^(١) .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أفسدوا عقول كثير من الذين آمنوا بتوراتهم ، وإن المؤرخين لا يؤمنون إلا بما هو مكتوب أو محفور قد أخذوا هذه التوراة وحللوها على أنها دليل تطور العبرانيين من الشرك إلى الوجدانية ، ولم يخطر لهم أن الوجدانية كانت دين إبراهيم خليل الرحمن قبل العبرانيين ثم انتقلت إلى بنى إسرائيل واليهود ، فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ارتدوا إلى الوثنية فى عصر تدوين توراة المنفى وإن حسبوا أنهم يعيشون فى عصر انتفاضة دينية .

ومن الذين استقروا وتوراة المنفى عند دراسته للتطور الخلقى عند الشعوب جيمس هنرى برستد فى كتابه « فجر الضمير » ، وفى الفصل السابع عشر من كتابه يتحدث عن مصادر إرثنا الخلقى ، فبعد أن يسهب فى فضل مصر القديمة فى ظهور المبادئ الخلقية ويتحدث عن أثر المدنية البابلية ويخرج بنتيجة أن الفلسطينيين لم يأخذوا عن البابليين شيئا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية ، وأن العبرانيين قد اتصلوا خلال أسرهم فى الشرق — وهم فى مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الدينى — اتصالا وثيقا بالمدنية الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة (زروستر) زرادشت .

(١) آل عمران ٨٧ .

إن برستد يسير على نظرية علماء المقارنة بين الأديان القائلة بأن الإنسان يرتقى في الديانات كما يرتقى في الصناعات ، فيبدأ بالشرك ثم يرتقى إلى الوحدانية ، وهذه النظرية تخالف النظرية الدينية الإسلامية التي تقول إن الإنسان كان على علم ما دام الله قد خلق آدم وعلمه الأسماء كلها ، ثم يطول على الناس العهد فتفسو قلوبهم فتغمر الأساطير الوحدانية فيشرك الناس برهم فيبعث الله رسولا يرد الناس إلى الإسلام دين الوحدانية فلما يطول على الناس الأمد تفسو قلوبهم فيرتدون إلى الوثنية فيبعث الله رسولا ليعيدهم إلى جادة الصواب ، أى أن الوحدانية هي الأساس ثم الشرك فالوحدانية ثم الشرك فالوحدانية وهذه النظرية يؤيدها الواقع التاريخي لتطور البشرية .

ويروى برستد أن العبرانيين كانوا أيام يعقوب شعبا متبربرا ، وأن موسى المصرى هو أول زعيم قوى خلص العبرانيين من نير ظلم الفراعين وأنه ليس بنبي مرسل ، وقد يكون معذورا ما دام يعتمد على توراة المنفى فى استقاء معلوماته ؛ أما القرآن الكريم فلا يتفق مع الآراء التى خلص إليها برستد ، فالقرآن يقرر أن يعقوب كان يؤمن بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ، وأن موسى كان نبيا مرسلا يدعو إلى الله وحده ، وأن توراة المنفى إنما هى ردة وأن اليهود كتبوها بأيديهم بعد أن حرق بختنصر توراة الله وأبادها . يقول برستد : « ... وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد ، فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد » .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدينة الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين ، كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد فى فلسطين الكنعانية ، وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر

البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين ، يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يسيطرون سيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م . ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا في فتحهم إلى نهر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق . م . بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون . والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية ، وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التي أنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية بمرورها في تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . الواقع الذي لا شك فيه أن اللغة التي وجدها العبرانيون والفاثون هي اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم وهي التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب اللغة العبرانية التي كتبت بها التوراة ، ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلفي لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلي .

وبتلخيصنا لموقف فلسطين من نواحيه المختلفة ، نرى أن تلك البلاد من الوجهة الجغرافية تقع على جسر طبيعي ضيق بين البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء الغربية من جهة أخرى ، وهو جسر يقع بين قارتين طالما اتخذ طريقا عاما لربط إفريقيا بآسيا منذ عهد ما قبل التاريخ .

أما من الوجهة السياسية فإن فلسطين كانت قديما كما هي الآن كرة

قدم دولية .

أما من الناحية الثقافية فإنها كما أوضحنا الآن كانت داخلية ضمن الإقليم التجارى الذى طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه ، كما كانت فى الوقت نفسه تقع مباشرة فى ظل صرح المدنية المصرية العظيمة . فالقوم الذين استقروا فى أرض فلسطين لم يجدوا أنفسهم فى وسط حضارة قديمة تكونت بالإقليم نفسه ومصبوغة إلى حد كبير بالصبغة المصرية القديمة فحسب ، بل كانوا يطلّون أيضا على مدنيات أعرض منها بكثير على كلا الجانبين فى آسيا وأفريقية ، فمن هذه البيئة الدولية البعيدة الأثر بالشرق الأدنى الذى كان يضم فلسطين بين جوانحه نشأت تلك الأفكار الخلقية التى غدّت العالم الغربى فى النهاية بالآراء الخلقية السائدة فيه الآن ؛ إذ وصلت إلينا عن طريق بقايا الأدب العبرانى وهو الذى كانت محتوياته الخلقية كما أسلفنا بعيدة كل البعد عن أن تكون من أصل عبرانى محض .

ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقى العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو فى الركن الجنوبي الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن هذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق . م . ، ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير . وعلى أثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الجزأين اللذين قاما على تراثها ظلّا يكافحان البقاء ، فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبا ، وأما الجزء الآخر فإنه بعد أن مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها فى حياة قلقة شبه مستقلة تداولته فيها أيدي ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق . م . بزمان قليل ، بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القومية المستقلة — أو حياة جزء منهم — التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م .

— قد مكثت حوالى أربعة قرون وربع قرن وختمت في باكورة القرن السادس قبل الميلاد . أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القومية قد وقع بأكمله تقريبا في النصف الأول من الألف السنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحى ، وفي تلك الفترة كان تقدم الثقافة في مصر وفي بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من أخبار التاريخ القديم .

وإنه لمن المستحيل علينا طبعاً أن نضمّن هذا الكتاب الحدود الحجم التاريخ الدينى والخلقى للعبرانيين القدماى حتى ولو بطريق التلخيص . على أن مهمتنا في هذا الكتاب تضطرنّا إلى الكشف عن العوامل الأجنبية الهامة التى عملت في التطور الخلقى عندهم . ولكى نتمكن من القيام بذلك يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا بعض الحقائق البارزة في التاريخ العبرانى . إذا كنا نريد حقا معرفة العناصر الأجنبية في التطور الخلقى العبرانى .

كان ظهور العبرانيين لأول مرة في ميدان التاريخ في خطابات « تل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م . بقليل ، أى في عهد يسبق بكثير أى أدب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا وجود جماعات من العبرانيين . الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك في سلك الجنود المرتزقة ، ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا منذ قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه في « طيبة » (الأقصر) « مرنبتاح » بن « رعسيس الثانى » قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة ، فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » . وقد كان هذا الحادث في عهد القضاة وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام

القومى ؛ فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة التى قضوها فى الرعى وتلمس الكلاً على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل ببعض التقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإله القبيلة . وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذى كان فى ظنهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير الماء ، على غرار جنى الليل المعتم الذى صارعه يعقوب (عليه السلام) عند غدير « جابوك » حتى أجبره على الفرار فزعا قبل انبثاق الفجر .

ومثل هذا الجنى المحلى كان يطلق عليه فى الصحراء الواقعة جنوبى « يهوده » اسم « إيل » ، وهذا اللفظ ليس اسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التى كانت تطلق على أى إله محلى . وقد انحدر إلينا فى اسم « إسرائيل » وهو الاسم الذى أطلقه على « يعقوب » الكائن الذى صارعه . وقد بقى لنا كذلك فى طائفة من الأسماء مثل « ميخائيل » ومعناه الذى يشبه الإله . « وفى الأنحاء الشمالية من كنعان » كانت الآلهة المحلية عند الكنعانيين تسمى « بعولا » أو « أربابا » .

يقول برستد إن يعقوب صارع جنى الليل عند غدير « جابوك » وأن ذلك الجنى يطلق عليه اسم « إيل » ، وبرستد معذور فهو لم يستطع أن يتصور أن إنسانا يصارع إلها فى كتاب مقدس ، وإن كانت الأساطير البابلية تفيض بمثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر ، فالإيل هو الله وكان الصراع بين الله وبين يعقوب فى توراة المنفى المتأثرة بأساطير البابليين وكان النصر ليعقوب .

كان برستد يقرأ التوراة التى بين يديه دون أن يخطر له على قلب أنها كتبت على أنقاض توراة الله التى اندثرت يوم غزا بختنصر إسرائيل ، وكان مستريحا إلى النتائج التى خلص إليها لأنها تتفق مع مبادئ علماء المقارنة بين الأديان وإن

:اختلفت مع السنن الدينية التى قامت عليها كل الأديان ، وهى المعرفة فطول العهد فالردة إلى الوثنية فأرسال رسول ينفض عن الحقيقة ركام الأساطير ، حتى إذا ما أشرقت الحقيقة وطال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادت الأساطير لتطمر الحقيقة فردة إلى الوثنية فأرسال رسول من لدن رب العالمين لتبدأ الدورة الدينية ، حتى كان الإسلام وكان وعد الله بحفظ الذكر الحكيم . ولنعد إلى ما كتبه برستد فى كتابه فجر الضمير : « ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد استعبدوا بعد لجوئهم إلى مصر فى زمن قحط حدث عندهم ، وقد قام من بينهم عبرانى امتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البارعة ، ونصب نفسه عليهم وخلصهم من العبودية ، وبذلك صار يعد أول قائد عبرانى عظيم وصل إلينا اسمه .

ومن المهم أن نلاحظ أن موسى — وهو اسم ذلك القائد — كان اسما مصرياً ، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة « مُس » ومعناها « طفل » وهى مختصرة من اسم مركب كامل كالأسماء « أمن مس » ومعناها « آمون طفل » أو « بتاح مس » ومعناها « بتاح طفل » وهذه الأسماء المركبة نفسها هى الأخرى مختصرات للتركيب الكامل « آمون أعطى طفلاً » أو « بتاح أعطى طفلاً » . وقد لقي اختصار الاسم إلى كلمة « طفل » قبولا منذ زمن مبكر ، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل .

على أن الاسم « مس » (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة . ولا شك فى أن والد « موسى » كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل « آمون » أو « بتاح » ، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجيا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى « موسى » .

هذا هو رأى برستد فى تسمية موسى (عليه السلام) ، وهناك آراء أخرى تخالف هذا الرأى ، فقد قيل إن مو معناها ماء وشا معناها شجر ، ولما كان

الطفل قد وجد في الماء بين الشجر فقد أطلق عليه موسى ، وعلى أى حال فقد صار موسى في الإسلام رسولا من ذوى العزم . ويقول برستد : « على أن ما أظهره « موسى » من الحذق في القيادة مع الشجاعة والمهارة في تخليص شعبه من العبودية الأجنبية ، وكذلك حادثة التخليص نفسها التي صاحبها بعض الكوارث الطبيعية التي قضت على الجيش المصرى المقتفى لآثار « موسى » ومن تبعه — كل ذلك لقي مكانة لا تمحى في المعتقدات العبرانية ، وجعل للعبرانيين إرثا أصليا من الفخار كان هو أقدم الأسباب التي ألقت بينهم وجعلت منهم أمة واحدة » .

توراة المنفى لا توحى بأكثر مما استخلصه برستد منها ، فموسى فيها لا يزيد على قائد عبرانى خلص قومه من ذل العبودية ، فقد عجزت تلك التوراة على أن تصور حياة موسى الروحية . ولولا القرآن الكريم الذى وضع رسالة موسى وصلته الطيبة برب الكون لما كان موسى أكثر من زعيم من بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن برستد يستعمل كلمة « عبرانى » عوضا عن كلمة بنى إسرائيل واليهود ، فهو لا يريد أن يدخل في تحديد الفرق بين بنى إسرائيل واليهود ، وإن لفظة « عبرانى » لا تدل دلالة أكيدة علمية صحيحة على بنى إسرائيل واليهود ، فقد استعملت لكل من عبر النهر من العراق إلى الشام قبل عبور إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام من بنى إسرائيل ولا يهوديا فهو أبو إسماعيل وإسحاق ، أبو العرب وبنى إسرائيل جميعا ، وما اليهود إلا سبط من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

ويقول برستد : « وفي خلال مرحلة مبكرة من مراحل تلك الأحداث تخلف « موسى » في الصحراء جنوبى فلسطين عند قبيلة من القبائل البدوية التي تعرف بأهل « مدين » ، وكان مكثه هناك كثيرا وبخاصة مع أحد خدامهم المقدسين الذى يدعى شعيب Jethro حتى إنه عرف عنه شيئا عن

إلههم الخلى « يهوه »^(١) .

وهذا الإقليم الممتد من « سيناء » شمالا ، وبخاصة على طول الأخدود العظيم الذى نتج فيه « البحر الميت » ووادى نهر الأردن ، تتوافر فيه البيئات الجيولوجية الدالة على وقوع ثوران بركانى حديث نوعا . ولا شك فى أن الرواية العبرانية التى ذكرت فى سفر التكوين (١٩ : ٢٣ — ٢٨) عن تخريب « سدوم » و « عمورة » ، وهما مدينتان كانتا فى تلك البقعة بالنار والكبريت « من السماء » ، ليست إلا إشارة مبهمة عن حدوث انفجار بركانى لم تنس ذكره القبائل المحلية فى العهد العبرانى المبكر .

وقد صحب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم ، لا شك فى أنها ذات صبغة بركانية ، فالمظهر الغريب الذى ظهر به « يهوه » فى صورة « عمود نار » أو « عمود من دخان » ، ثم تجليه فوق « طور سيناء » نهارا محدثا « للرع والبرق والسحاب الكثيف » هى بالبداية ظواهر بركانية ، وعلى ذلك كان من المعترف به منذ زمن أن « يهوه » ليس إلا إلها محليا للبراكين وكان مقره المختار « طور سيناء » ، ولكن العبرانيين تخللوا بتأثير من « موسى » عن آلهتهم « الوهيم »^(٢) القدامى واتخذوا « يهوه » لهم إلها واحدا .

(١) وقد أدى ازدياد تقديس هذا الاسم عند اليهود إلى أنهم لفظوا بكلمة عبرانية تدل على « رب » بدل كلمة « يهوه » وهذا الاستعمال أدى فى النهاية إلى فقدان النطق القديم لكلمة « يهوه » وصارت حروفها الأربعة ساكنة « ي ه و ه » تلفظ بإضافة الحركات التى تستعمل مع كلمة « رب » فى العبرية ، وبذلك أصبحت كلمة « يهوه » تلفظ جهوفه « يهوفاه » وهو صورة لهذا الاسم ليس له أصل قديم قط .

(فجر التاريخ : بريستد — ترجمة سليم حسن)

(٢) ألوهيم : جمع كلمة إيل .

على أنه لا بد من باعث آخر دعا إلى ذلك الانقلاب العظيم أقوى من تأثير « موسى » قائدهم الكبير . فمن الواضح أن التخلص من النير المصرى كان مصحوبا ببعض الظواهر الرهيبة التى عزيت إلى بطش « يهوه » الشديد . وإن رأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى « سيناء » حينما ضاق الخناق على العبرانيين فى خروجهم يجد من الأسباب ما يبرره ، إذ يمكن أن نفرض أن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار وموجة المد التى نتجت عن ذلك ، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون أثر القوم الفارين .

ومهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بأن العبرانيين عندما دخلوا منطقة « يهوه » الواقعة بالقرب من جبل سيناء نجاهم هو ببعض المظاهر العظيمة لقوته وعطفه قد احتل مكانة ثابتة فى المعتقدات العبرانية الماثورة ، وحينما أقيم محراب ذلك الإله بعد مضى زمان طويل على ذلك فى « بيت المقدس » صوروه عباده من الإسرائيليين بأنه آت من « سيناء » فى قوة وأبهة ليتخذ مثواه فوق جبل « صهيون » .

يفترض برستد افتراضات ليواكب بين مذهبه المادى فى تحليل التاريخ الدينى وأحداث التوراة ، ولم يبد أى شك فى توراة المنفى ولم يناقش موضوع تدوين التوراة بعد موت موسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة ، ولم يكشف عن أثر الأساطير البابلية والفرعونية فى عقلية الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، وعيب الذين يستنطقون الكتب المقدسة التى كتبت بعد موت أصحاب الرسائل بمئات السنين أنهم يفترضون أن تلك الكتب لا يأتياها الباطل من بين يديها فيصمون أحيانا رسل الله بالشرك ، ولا يرفعون أصابع الاتهام فى وجه الذين دونوا تلك الكتب بعد أن زاغت قلوبهم عن الإيمان الصحيح .

جعلوا موسى عليه السلام يستعين بثعبان من نحاس ليشفى الناس ، وجعلوا السيد المسيح الذى جاء ليسخر من عقيدة القرايين أكبر قربان فى تاريخ البشرية ، فالذين عبثوا بالكتب المقدسة كانوا متأثرين بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه وبعقائد ذلك المجتمع . وكل دراسة عن الكتب المقدسة بعيدة عن دراسة الزمن الذى دونت فيه ومعتقدات الناس فى ذلك الزمن والأساطير التى كانت ذائعة وقت التدوين فهى دراسة مبتورة تشوه الحقيقة ولا تخدم التاريخ . ولا يعرف القرآن الكريم يهوه ولا الإيل بل يقرر فى وضوح أن للكون ربا واحدا هو رب آدم ورب نوح ورب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء جميعا والمرسلين ، ورب الناس رب العالمين ، له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فهو الذى نبى بنى إسرائيل من آل فرعون ، فإن كانت الزلازل والبراكين قد ثارت وأغرقت فرعون وجنوده فقد أتى ذلك بأمر الله ، وإلا كيف نعلل هذه الدقة فى التوقيت ؟ ولماذا ننسب الخوارق إلى الصدفة إذا كنا نؤمن بأن لهذا الكون ربا يدبر أمره وأن له الأمر جميعا ؟!

إن برستد لا يرى فى شرك بنى إسرائيل بالله ردة عن التوحيد الذى عرفه آباؤهم ، لأنه لو اعترف بذلك لهدم نظرية علماء المقابلة بين الأديان القائلة بترقى الإنسان فى الدين . ويثور سؤال : هل كان إبراهيم موحدا أو كان من المشركين ؟ والجواب : كان إبراهيم خليل الرحمن يعبد الله وحده ، وقد اعترفت تورا المنفى بهذه الحقيقة ، وعلى ذلك سبق التوحيد الشرك ، فإن كان بنو إسرائيل قد أشركوا بالله بعد أن عرفوا الواحد القهار ، فهذه ردة لا تتفق مع نظرية علماء المقابلة بين الأديان وإن اتفقت كل الاتفاق مع النظرية القرآنية القائلة بالتوحيد فالشرك فى إرسال رسول يعيد الناس إلى التوحيد ، وقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل بعد أن عبدوا العجل أسوة بقدماء

المصريين ليعيدهم أولاً إلى التوحيد ثم يخلصهم من ذل آل فرعون المهين .
ويقول برستد : « أما آلهة العبرانيين القدامى (إيل) التى لم يكن لها لون
ولا أسماء أعلام يستدل بها على كل منها وليس لها شخصية ولا أصل تاريخى ،
فإنهم استمروا طويلاً منافسين ضعفاء لإلههم « يهوه » بعد أن استوطن
الإسرائيليون فلسطين . وأما الآلهة التى كانت أشد بأساً فى مناهضة « يهوه »
فهم « البعول » الكنعانيون ، وبالرغم من أن العبرانيين كانوا قد اتخذوا
« يهوه » إلههم القومى فإنه كان يوجد الكثير من بينهم من تمسك باعتقاده فى
الآلهة الأخرى مثل البعول ، وكثيراً ما كانوا يتخذونها معبودات لهم من دون
إلههم . على أن وجود نفس اسم « يهوه » كأنه علم مثل « أبولسو »
أو « المريخ » لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثله ، ونجد فى التعليم
الأول الذى وضعه « يهوه » نفسه لبنى إسرائيل أنه كان يعلم بوجود الآلهة
الأخرى ولذلك قال : « لن تكون لكم آلهة أخرى قبل » .

وزعم برستيد بأن « الإيل » كانت آلهة العبرانيين القدامى فهو زعم
مردود إن كان يقصد بالعبرانيين بنى إسرائيل واليهود وحدهم ، « فالإيل »
كان رب إبراهيم وقد نسب إليه ابنه إسماعيل قبل أن يعرف يعقوب باسم
إسرائيل ، والإيل عند إبراهيم هو الله وحده رب الناس إله الناس ، ولا أعتقد
أنه كانت هناك منافسة بين « الإيل » و « يهوه » ولا يمكن تصور مثل هذه
المنافسة إلا إذا أمكن أن نتصور أن هناك منافسة بين الله والرحمن . والله الأسماء
الحسنى فادعوه بها . لقد عبد بنو إسرائيل البعول آلهة الكنعانيين والقرآن المجيد
يؤيد هذه الحقيقة : « أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين »^(١) .

إن المتصوفين عند ذكر الله يقولون : هو ، فهل يعقل أن نقول أن هناك
منافسة بين الله وبين هو ، وأن الله وهو إلهان متنافسان فى دين الإسلام ؟ وإذا

نادى المسلمون ربهم بقوله يا الله ونادى المتصوفون ربهم بقوله يا هو ، فهل يقال إن المسلمين يعبدون ربا غير رب المتصوفين ؟ إن ما فعله موسى — إن كان قد أطلق على ربه اسم « يهوه » — لا يختلف في كثير عما فعله المتصوفون المسلمون ، وإن « الإيل » و « يهوه » و « الرب » في كل لغات العالم ما دامت تشير إلى خالق السماوات والأرض وما بينهما فهي من أسماء الله ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

ويسير برستد على هدى نظرية علماء المقارنة بين الأديان فيقول : « وقد كان سير الإسرائيليين في الانتقال من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إله واحد لجميع العالم بطيئا تدريجيا حتى لقد استغرق عدة قرون . كما نجد كذلك أن تصور العبرانيين فيما يختص بأخلاق إلههم قد مر في عدة أطوار منذ الوقت الذي كانوا فيه مبتهجين بقوة إلههم الطبيعي التي كانت تمطم الكنعانيين وتذبحهم ، إلى أن وصلوا إلى تصور الإله أبا رحيمًا عادلا . وإن الذي يجعل في استطاعتنا الآن أن نتعرف بعض الخطوات في ذلك التطور الذي به تحطى الإسرائيليون في تفكيرهم إله الطبيعة ، هو كتابات الأنبياء العبرانيين بوجه خاص ، حيث يتبين لنا أن ذلك الإله مع استمراره في حمل إله البركان القديم « يهوه » فإن الشعب العبراني أخذ ينظر إليه تدريجيا بمثابة قوة فعالة في المجتمع البشري .

ولا بد أن نشأة المصرية القديمة التي يرجع إليها الفضل في جعل موسى قائدا عظيما قد ساهمت في إدراكه لتلك الصور الواجبة (ليهوه) في حياة قومه ، فإننا نرى مثلا أن نشأة « موسى » في مصر وتسميته باسم مصرى جعلاه يحض مواطنيه على الأخذ بشعيرة الختان وهي عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة في أيامه بين سكان وادي النيل ، ويرجع عهدا إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره ، وتنسب المعتقدات العبرانية (غزوة توبك)

دائما أصل تلك الشعيرة إلى « موسى » (عليه السلام) . هذا وإن اتخذ موسى لعادة مصرية مقدسة واعتبارها علامة لبني إسرائيل مع أنها شعيرة ألّفها يداها في مصر منذ نعومة أظفاره ، يعد في الوقت نفسه برهانا قاطعا على أنه كان يستقى تعاليم مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة . على أن « موسى » لم يكن عبدا لمحاكاة التقليد المصرى القديم ، ويظهر لنا ذلك عندما نراه اتخذ عن أهل « مدين » يهوه إلهاله . ولما كان أهل « مدين » قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة في الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لآلهتهم ، فإنه ترك « يهوه » دون أن يصنع له صورة أو تمثالا ما ، كما كان الحال عند أهل « مدين » من قبل . وللأسف فإن برستد يغالط في حقائق وردت في التوراة — وإن كانت هي نبراس دراسته — ليبرهن على نظريته القائلة بأن موسى عليه السلام أخذ تعاليمه عن قدماء المصريين ، فهو يزعم أن الختان شعيرة اتخذها موسى عليه السلام عند قدماء المصريين لتكون علامة بين بني إسرائيل ، بينما تقول التوراة إن الختان شعيرة إبراهيم خليل الرحمن وأنه أمر بختان الذكور في اليوم السابع من مولدهم ، وقد ختن إسماعيل وهو ابن ثلاث عشر سنة ، وختن إسحاق في السابع من مولده ، وقد سبق أن قلت إن الختان كان معروفا عند البابليين وإنها عادة كانت منتشرة بين قوم إبراهيم ، وأن خليل الرحمن لا بد أنه اختن قبل أن يهاجر إلى ربه ، وأن دعوى أن الختان علامة بين الرب وبين بني إسرائيل إن هي إلا من ثمة عقول الذين كتبوا التوراة في المنفى ليكون لبني إسرائيل فضل على العالمين .

وزعم أن أهل مدين لم يصنعوا لإلههم تمثالا لأنهم قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة في الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم ، وأن موسى لم يصنع تمثالا لإلهه اقتداء بأهل مدين ، ودارس التوراة يكتشف هذا الزيف ، فرب إسرائيل قد نهى عن صنع التماثيل حتى لا يرتد عباده إلى الوثنية وعبادة الأصنام

والأوثان ، فعدم صنع موسى تمثالا لربه يعود إلى أن صناعة التماثيل كانت محرمة عليه ، ولم تمنع عدم المهارة الفنية الأقوام السذج من اتخاذ صخرة رمزا للإله ، وإن ما فعله بنو إسرائيل بعد موسى من صنع تماثيل لإلههم إن هو إلا ردة ، فالمطلق لا يمكن تجسيده وإذا جسد لم يعد مطلقا ، فصنع التماثيل للإله ليس تقدما دينيا بل هو نكسة في المفهوم الديني الذي يقرر أن كل ما خطر على بالك فالله على خلاف ذلك .

لم يصنع موسى تمثالا لربه فقد كان يقدر الله حق قدره ، ولكن برستد وجد فيما كتبه كُتَّاب التوراة عن موسى شيئا من الوثنية فلم يحاول أن ينقئ عن موسى عليه السلام تلك المزاعم بل سارع يفسر ذلك بأن موسى لم ينس التماثيل الدينية المصرية : « على أننا نجد أن « موسى » كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية ، فقد كان هو نفسه يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك في أنها كانت في صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » ، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة في مصر . وقد بقيت صورة ذلك الإله المصرى القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمان طويل ، واستمروا في إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد « موسى » ، ولم يبعد من البيت المقدس إلا في حكم « حزقيائل » في أواخر القرن الثامن ق . م . (سفر الملوك الثاني ١٨ : ٤) .

على أنه قد احتفظ العبرانيون إلى العهد المسيحي بقول مأثور عندهم يقرر أن « موسى » كان متفقها « في كل حكمة المصريين » (الإصحاح السابع الآية ٢٢) ، وهو قول لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الشك في صحته ، على أنه لم يكن في مقدورنا إلا في السنين الأخيرة أن نفهم المصادر التي وصلت إلينا عن حياة المصريين القدماء فهما كافيا ندرك به أن « حكمة المصريين » كانت

قبل كل شيء عبارة عن التأمّلات والتدبريات الاجتماعية ، ولا شك أن « موسى » كان ملماً بأقوال أولئك الأنبياء الاجتماعيين الذين كانت أقدم كتاباتهم — كما ذكرنا فيما سبق — متداولة بين المصريين منذ ١٥٠٠ سنة عندما ابتدأ موسى في تعليم قومه . ومن البديهي أن رجلاً مثله نشأ محاطاً بمثل ذلك النوع من الأدب كان لزاماً عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود به قومه .

إن برستد يقرر أشياء يحاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فهو يقول إن موسى كان يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك في أنها كانت في صورة ثعبان ، فمن أين جاء بهذا التأكيد ؟ إنه كان يحمل عصا ليهش بها على غنمه ، عصا مثل كل عصي الرعاة ، فمن ذا الذي حول العصا إلى صورة ثعبان ؟ وإن كان بين أصحاب موسى فنان قادر على تحويل العصا إلى هيئة ثعبان فهل كان موسى عليه السلام يسمح له بذلك وهو الذي قال لبني إسرائيل في وصاياهم : « محظور عليك أن تصنع لنفسك تمثالا منحوتا أو (صورة) أى شكل في السماء أو في الأرض أو الماء » .

إنه يحاول أن يربط بين العصا وبين تحويلها إلى ثعبان بقدرة الله تتلقف ثعابين السحرة ، فجعل العصا على صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » . « وما تلك يمينك يا موسى . قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » ^(١) .

وزعم برستد أن موسى عليه السلام كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وقد يكون معذورا في هذا الزعم فهذا ما تقرره تورااة المنفى ، ولكن كان عليه أن يناقش هذه الدعوى الظالمة وبين يديه نفس تورااة

المنفى التى تعترف بأن موسى عليه السلام حظر على بنى إسرائيل صنع التماثيل ، فكيف ينهى عن شيء ثم يفعله ؟!

إن فكرة الثعبان النحاسى التى جاءت فى التوراة استهوت برستد لأنها أتاحت له فرصة الربط بين ذلك الثعبان والثعابين المقدسة المصرية ، فلم يحاول أن يميظ اللثام عن زيف الفكرة بل تلقفها ليدلل بها على نظريته بأن موسى عليه السلام كان متأثراً فى كل تعاليمه بالديانة المصرية القديمة .

عبد بنو إسرائيل العجل وموسى عليه السلام بينهم ، فهل نستدل من ذلك أن موسى عليه السلام قد عبد العجل ؟ كان بنو إسرائيل متأثرين بالديانة المصرية القديمة وقد بعث الله إليهم موسى عليه السلام ليعيدهم إلى عبادة الله وحده ، ولولا دعوته إلى عبادة رب الناس إله الناس لما كان هناك من سبب لنشوب العداوة بينه وبين فرعون ما دام كان يدعو إلى ديانة الفراعين .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بديانة المصريين القدماء وقد زعموا أن موسى عليه السلام قد اتخذ ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وهو زعم لا يمكن لعقل سليم أن يتصوره إذا ما عرف أن موسى عليه السلام كان ينهى عن صنع التماثيل ، وأن ذلك جاء فى توراة المنفى التى عادت تقرر اتخاذ موسى لتمثال ثعبان . وإنه لزعم لا يقبله عقل إذا عرف أن موسى الذى يدعو إلى عبادة الله وحده يتخذ ثعبانا دون أن يدري أن ذلك شرك بربه . وأن حزقيال يكتشف بعده بمئات السنين أن ذلك الثعبان ليس من الدين فى شيء فيرفعه من بيت المقدس .

موسى عليه السلام ينهى عن صنع التماثيل ثم يحول عصاه إلى صورة ثعبان ، وليس ذلك فقط بل يصنع تمثالا من النحاس البراق ليشفى به الناس . مزاعم متهافنة لا تتفق مع المنطق وإن كانت تتواكب مع أفكار الكهان الذين حوروا توراة الله إلى سجل يخس قدر الأنبياء ويلطخهم بعار الشرك وعار الجنس

ويحض الناس على التمسك بتوافه المظاهر المادية ويشرهم برضا الرب ما داموا محافظين على حقوق الكهنة من لحوم وهدايا وأنفال .

ولندع برستد مؤقتا ونعود إلى التوراة نستأنف معها رحلتنا لنرى أن دولة إسرائيل انقسمت إلى دولتين وأصبح لكل منهما ملك . ففي السنة الثانية عشرة للملك يربعام ملك أيام على يهوذا ، « وفي السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك آسا على يهوذا ، ملك إحدى وأربعين سنة في أورشليم واسم أمه معكة ابنة أبشالوم ، وعمل آسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه ، وأزال المأبونين من الأرض ونزع جميع الأصنام التي عمل أبائوه ، حتى إن معكة أمه خلعتها من أن تكون ملكة لأنها عملت تمثالا لسارية ، وقطع آسا تماثلا وأحرقه في وادي قدرون ، وأما المرتفعات فلم تنزع إلا أن قلب آسا كان كاملا مع الرب كل أيامه . وأدخل أقداس أبيه وأقداسه إلى بيت الرب من الفضة والذهب والآنية . وكانت حرب بين آسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما . وصعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكيلا يدع أحدا يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا ، وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعتها ليد عبده : وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حريون ملك آرام الساكن في دمشق قائلا : إن ابني وبينك وبين أبي وأبيك عهدا ، هوذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عني . فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن إسرائيل وضرب عيون ودان وآيل بيت معكة وكل كثرت مع كل أرض نفتالي . ولما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وأقام في نرصة . فاستدعى الملك آسا كل يهوذا . لم يكن برىء . فحملوا كل حجارة الرامة وأخشابها التي بناها بعشا وبنى بها الملك آسا جميع بنيامين والمصفاة ، وبقية كل أمور آسا وكل جبروته وكل ما فعل والمدن التي

بناها أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك يهوذا . غير أنه في زمان شيخوخته مرض في رجليه ، ثم اضطجع آسا مع آبائه ودفن مع آبائه في مدينة داود أبيه وملك يهو شافاط ابنه عوضا عنه .

كانت قلوبهم شتى حتى قبل أن تنقسم دولتهم إلى دولتين ، أما وقد صارت إسرائيل دولة واليهودية دولة أخرى فقد تجاوزت العداوة القلوب إلى إعلان الحرب واستغاثة ملك اليهودية بملك دمشق . ولم يتعال ملك يهوذا على ملك دمشق ولم يقل إنه من الأمم من كلاب البشرية ، بل انحنى له في ود وقدم إليه الهدايا ليحقق مآربه الدنيوية . واستمرت الحروب بين إسرائيل واليهودية ، وما من ملك من ملوكهم سار في طريق الرب ، أصابتهم جميعا لعنة كُتَّاب التوراة التي صبوها بلا حساب على أنبياء الله وكل الملوك بلا تفريق . وقد جعلوا الله يقول عن بعشا : « من أجل أني قد رفعتك من التراب وجعلتك رئيسا على شعبي إسرائيل ، فسرت في طريق يربعام وجعلت شعبي إسرائيل يخطئون ويغيظونني بخطاياهم ، ها أنذا أنزع نسل بعشا ونسل بيته وأجعل بيتك لبيت يربعام بن نباط ، فمن مات لبعشا في المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له في الحقل تأكله طيور السماء ، وبقية أمور بعشا وما عمل وجبروته أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك إسرائيل ؟ واضطجع بعشا مع آبائه ودفن في نرصة ، وملك أيلة ابنه عوضا عنه .

لم يستطع الذين كتبوا التوراة أن يفهموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء : فإذا انتقل الملك من بيت إلى بيت فذلك في زعمهم دليل غضب الله على أهل بيت الملك الذي زال . ولا بد أن الملك قد أغضب الرب حتى نزع منه الملك ، وليس لزوال الملك تفسير آخر عندهم . فالملك هو غاية المراد من الرب ، ما داموا لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولاجنة إلا جنتهم الأرضية ، والسلطان هو الأمل المنشود والغاية التي ما بعدها غاية حتى لو جلب الشقاء ، فزوال

ذلك النعيم الأراضى يحمل فى طياته غضبا ربانيا ، والغضب الربانى لا يكون إلا بعصيان الرب وتنكب طريقه . وكان هذا الفهم هو المسيطر على عقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، وكان جزاء كل من انتزع الملك منه أن « من مات لذلك الملك فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء » . والقرآن الكريم يعارض هذه النظرية الخاطئة : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » (١) .

ويستمر الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى تسجيل تاريخ إسرائيل واليهودية ، ويلاحظ أن ما من ملك إلا وكان معه نبي . والنبوة عند بنى إسرائيل تختلف فى معناها عن النبوة فى الإسلام ؛ فالنبي فى التوراة هو الملهم الذى يخبر بشىء من أمور الغيب المستقلة ، وقيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، أما النبوة فى الإسلام فهى مقترنة بوحى الله ، والنبي من أوحى الله إليه وحيا ، فإن أمره بتبليغه كان رسولا : فكل رسول نبي وما كل نبي رسول . وقد انقطعت النبوة والرسالة معا بعد محمد ﷺ .

وجاء فى تفسير « نبي . أنبياء . نبوة » من قاموس الكتاب المقدس المطبوع فى المطبعة الأمريكية فى بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه :

« النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمى هارون نبيا لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته (خروج ٧ : ١) . أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشرعية الموسوية وينبئون بمجىء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم فى أيام صموئيل أقام مدرسة فى الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بنى

الأنبياء ، فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب . وتأسست أيضا مدارس أخرى للأنبياء في بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أو سيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرثون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الأنبياء وبنى الأنبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الأتقياء .

ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنباء بما سيأتي ، إنما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته ويعدهم بتربية فوق العادة لمواجهة الخطيرة . على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعماموس مثلا ، فإنه كان راعيا وجاني حمير . أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ ، وأحيانا كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلية بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترب في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة ... » .

فالنبوة عند بنى إسرائيل كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الإقناع بها بالتخيلات الشعرية والإلهامات الكلامية والمؤثرات الغنائية والموسيقية والمعلومات المكتسبة ، وكان أنبياءهم متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الأتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين . فلا عجب إن فاضت تورا المنفى بمعاصيهم فهم ليسوا معصومين من المعاصي والردائل ، فالله لم يرسلهم إلى البشر لهدايتهم بل استمدوا نبوتهم من الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات

البهمة والإخبار عن الأمور المستقبلية ، وما أكثر ما كانت نبوءتهم تخطىء . وقد كانوا لا يفترقون في كثير أو قليل عن العرافين والمنجمين بله الروحانيين المكاشفين .

ولنعد إلى التوراة لنرى كيف ارتد بنو إسرائيل بعد أن عرفوا التوحيد ، وكيف ذبحوا أبناءهم قربانا لآلهتهم بعد أن قضى إبراهيم الخليل على هذه العادة ، وكيف عادوا لعبادة آلهة الشعوب بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

« وأخاب بن عمري ملك على إسرائيل في السنة الثامنة والثلاثين لآسا ملك يهوذا ، وملك أخاب بن عمري على إسرائيل في السامرة اثنتين وعشرين سنة . وعمل أخاب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله ، وكأنه كان أمرا زهيدا سلوكه في خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ إيزابل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له . وأقام مذبحا للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة . وعمل أخاب سوارى وزاد أخاب في العمل لا غاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله ، في أيامه بنى حينيل اليتشيلي أريحا ، بأيرام بكره وضع أساسها . ويسجوب صغيره نصب أبوابها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد يشوع بن نون » .

هل كان ذبح الابن البكر عند وضع أساس أريحا بأمر من رب إسرائيل ؟ وهل أوحى الله إلى يشوع بن نون أن يذبح باني أريحا بكره عند وضع أساسها ؟ يا رب ! ما كل هذا الظلام الذي يخيم على توراة المنفى ؟ إن أنفاسي تضيق وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، وأعوذ بجلال وجهك يا نور السماوات والأرض أن تكون كل هذه الظلمات من وحيك . إن الذين كتبوا التوراة في المنفى عميت قلوبهم التي في صدورهم عن نورك ، فغمسوا أقلامهم في

ظلمات أفقدتهم فجاءت توراتهم تنبض بحقدهم وقسوتهم وفساد القصور التي كانوا فيها يتمرغون .

» وقال إيليا اليتيمى من مستوطنى جلعاد لآخاب : حى هو الرب إله إسرائيل الذى وقفت أمامه : إنه لا يكون ظل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى .

وكان كلام الرب له قائلا : انطلق من هذا واتجه نحو المشرق واختبئ عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر ، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق واعمل حسب كلام الرب . فذهب وأقام عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحا وبخبز ولحم مساء وكان يشرب من النهر . وكان بعد مدة من الزمان أن النهر ييس لأنه لم يكن مطر فى الأرض .

وكان له كلام الرب قائلا : قم اذهب إلى صرفة التى لصيدون وأقم هناك ، هو ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة تعولك ، فقام وذهب إلى صرفة ، وجاء إلى باب المدينة وإذا بامرأة أرملة هناك تقشّ عيدانا فناداها وقال : هاتى لى قليل ماء فى إناء فأشرب ، وفيما هى ذاهبة لتأتى به ناداها وقال : هاتى لى كسرة خبز فى يدك . فقالت : حى هو الرب إلهك . إنه ليست عندى كعكة ولكن ملء كف من الدقيق فى الكوّار وقليل من الزيت فى الكوز ، وهأنذا أقشّ عودين لآتى وأعمله لى ولابنى لنأكله ثم نموت . فقال لها إيليا : لا تخافى ادخلى واعملى كقولك ، ولكن اعملى لى منها كعكة صغيرة أولا وإخرجى بها لى ، ثم اعملى لك ولابنك أخيرا ، لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل : إن كوّار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطرا على وجه الأرض . فذهبت وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وهو وبيتها أياما . كوّار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذى تكلم به عن

يد إيليا .

وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جدا حتى لم تبق فيه نسمة . فقالت لإيليا مالى ولك يا رجل الله ؟ هل جئت إلى لتذكيرى إنمى وإماتة ابنى ؟ فقال لها : أعطينى ابنك . وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التى كان مقيما بها وأضعجه على سريريه ، وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهى أأيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها . فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال : يا رب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش . فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه ، وقال إيليا : انظرى ابنك حى ، فقالت المرأة لإيليا : هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق . »

فى أى شريعة يصرح لرجل أن يبيت مع امرأة غريبة فى بيت واحد ، سواء أكان يبيت فى العالية أم فى حنجرتها ؟ إن الذين كتبوا التوراة زعموا أن الله أوحى إلى إيليا أن ينطلق إلى بيت الأرملة الخاطئة ليعيش عندها ، فأيليا ليس من خريجي معهد الأنبياء فحسب بل قد أوحى إليه ، فهل يعقل أن نبيا سخر الله له الغربان لتطعمه خبزا ولحما فى الصباح وفى المساء يتهم ربه بالإساءة دائما فيقول له فى قحة : أأيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ إنه قول يكشف رأى رجل الله فى ربه وهو قول تقشعر منه أبدان الذين يتقون الله حق تقاته ، سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون .

» وبعد أيام كثيرة كان كلام الرب إلى إيليا فى السنة الثالثة قائلا : اذهب وتراء لأخآب فأعطى مطرا على وجه الأرض . فذهب إيليا ليرتأى لأخآب وكان الجوع شديدا فى السامرة ، فدعا أخآب عوبديا الذى على البيت . وكان

عوبديا يخشى الرب جدا : وكان حينما قطعت إيزابل أنبياء الرب أن عوبديا
أخذ مائة نبى وخبأهم خمسين خمسين رجلا فى مغارة وعالمهم بخبز وماء . وقال
أخآب لعوبديا : اذهب فى الأرض إلى جميع عيون الماء وإلى جميع الأودية لعلنا
نجد عشباً فنحى الخيل والبغال ولا نعدم البهائم كلها . فقسما بينهما الأرض
ليعبرا بها ، فذهب أخآب فى طريق واحد وحده وذهب عوبديا فى طريق آخر
وحده . وفيما كان عوبديا فى الطريق إذا بإيليا قد لقيه . فعرفه وخر على وجهه
وقال : أنت هو سيدى إيليا ؟ فقال له : أنا هو . اذهب وقل لسيدك : هو
ذا إيليا . فقال : ما هى خطيئتى حتى إنك تدفع عبدك ليد أخآب ليميتنى ! حى
هو الرب إلهك ، إنه لا توجد أمة ولا مملكة لم يرسل سيدى إليها ليفتش
عليك ، وكانوا يقولون إنه لا يوجد ، وكان يستحلف المملكة والأمة إنهم لم
يجدوك . والآن أنت تقول اذهب قل لسيدك هو ذا إيليا ، ويكون إذا انطلقت
من عندك أن روح الرب يحملك إلى حيث لا أعلم . فإذا أتيت وأخبرت أخآب
ولم يجدك فإنه يقتلنى . وأنا عبدك أخشى الرب منذ صباى . ألم يُخبر سيدى
بما فعلت حين قتلت إيزابل أنبياء الرب إذ خبأت من أنبياء الرب مائة رجل
خمسين خمسين رجلا فى مغارة ، وعالمهم بخبز وماء ، وأنت الآن تقول اذهب
قل لسيدك هو ذا إيليا ، فيقتلنى . فقال إيليا حى هو رب الجنود الذى أنا واقف
أمامه إلى اليوم أترأى له ، فذهب عوبديا للقاء أخآب وأخبره ، فذهب أخآب
للقاء إيليا .

قال — ﷺ : « علماء أمتى كأنبيا بنى إسرائيل » . وصدق رسول الله
— عليه صلوات الله وسلامه . فعلماء المسلمين يجتهدون فى تفسير القرآن المجيد
ويقرض أغلبهم الشعر ، وأنبياء بنى إسرائيل الذين يتخرجون فى معهد الأنبياء
فى الرامة أو بيت إيل يجتهدون فى تفسير التوراة التى نزلت على موسى نورا
وهدى لبنى إسرائيل قبل أن يحرقها بختنصر ، وقبل أن تكتب توراة المنفى على

أنقاض أساطير الشعوب وديانات الأمم وأقوال الحكماء الأقدمين ، وكانوا يتعلمون الشعر والموسيقى ولا أحسب الموسيقى إلا نوعا من التجويد الذى يتعلمه علماء المسلمين .

كان أنبياء بنى إسرائيل المشتغلون بالتفسير فى مكانة علماء المسلمين ، وقد انحطت مكانة أنبياء بنى إسرائيل الذين عكفوا على تفسير توراة المنفى عن مكانة علماء المسلمين ، فهؤلاء يفسرون مزاعم أناس كتبوا توراتهم بمداد الحقد والدنس والكراهية ، وهؤلاء يفسرون كتابا أحكمت آياته من لدن عزيز خبير .

« ولما رأى أخآب إيليا قال له أخآب : أنت هو مكدر إسرائيل ؟ فقال : لم أكدر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع إلى كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المائة الذين يأكلون على مائدة إيزابل . فأرسل أخآب إلى جميع بنى إسرائيل ، وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل ، فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال : حتى متى تعرجون بين الفريقين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة ، ثم قال إيليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربع مائة وخمسون رجلا ، فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا نارا ، وأنا أقرب الثور الآخر وأجعل على الحطب ولكن لا أضع نارا . ثم تدعون باسم آهتكم وأنا أدعو باسم الرب ، والإله الذى يجب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل : اختاروا لأنفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لأنكم أنتم الأكثر ، وادعوا باسم آهتكم ولكن لا تضعوا نارا . فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين :

يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب ، وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل . وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال : ادعوا بصوت عال لأنه إله . لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فينتبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ، ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مُصْغٍ ، قال إيليا لجميع الشعب تقدموا لى . فتقدم جميع الشعب إليه . فرم مذبح الرب المتهدم ، ثم أخذ إيليا اثنى عشر حجرا بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب إليه قائلا : إسرائيل يكون اسمك . وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البُر ، ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعها على الحطب وقال : املاؤا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ، ثم قال ثنوا . فثنوا ، وقال ثلثوا ، فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلاّت القناة أيضا ماء . وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبى تقدم وقال : أيها الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليُعلم اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبنى يا رب . استجبنى ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله وأنت أنت حولت قلوبهم رجوعا . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا : أمسكوا أنبياء البعل ولا يُفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر فشون وذبحهم هناك .

تطلق هذه الإصحاحات لفظة « نبى » على الذين يخدمون البعل كما تطلقها على الذين يخدمون الله ، فلا فرق بينها وبين الكاهن . وقد قيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة : المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، وعلى ذلك فليس هناك فرق بين أنبياء البعلين وأنبياء بنى إسرائيل

ما دام الجميع يتكلمون بصوت جهورى فى أمور الدين ، ولعل ذلك هو السبب فى أن السيد المسيح قد فرق بين الأنبياء والأنبياء الكذبة ، أما الإسلام فإنه لا يعرف من أنواع الأنبياء إلا الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وحيا . أما الذين يدعون النبوة دون وحى الله فهم فى عرف الإسلام دجالون لا تلقى إليهم الأسماع .

جاء جميع الرسل والأنبياء لتعليم الناس ما به يصلح حالهم ويستعدون لما لهم بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملا ، بحسن الثواب ، وإنذار من كفر وأفسد عملا ، بالعذاب . وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان ، وما تصلح به الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال ، فتسعد لسعادة الدنيا بقدرها وسعادة الآخرة من بعدها . ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا ذكر لدار الآخرة وما أعد فيها للمتقين ، ولا ذكر للنار التى أعدت للكافرين .

إن إيليا قد ذبح أنبياء البعل الكاذبين ولم يشرهم بعذاب أليم ؟ وقد يكون القتل جزاء للكافرين فما هو جزاء الشهداء والصالحين ؟ وما هى العقوبة التى تنزل بالظالمين إذا انتهت أيامهم على الأرض دون عقاب ؟ « ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون »^(١) .

أتى إيليا بمعجزة على الملأ ، فلما رأى الشعب نار الرب تأكل القربان — كما زعم كتاب التوراة — خر الناس ساجدين وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . عادوا إلى الصراط المستقيم ولكن هذه الهداية لم ترض كتاب التوراة فهم لا يرضون عن النهايات السعيدة بل لا بد من أن تنتهى حياة البشر بمأساة ، وأن ينتهى دور الأنبياء بالإخفاق ، وأن ينتصر الكفر على الإيمان ليكون ذلك سببا

(١) المؤمنون ٦٢ .

في سقوط بيت من بيوت الملك وانتقاله إلى بيت آخر .
 » وقال إيليا لأخآب اصعد كل واشرب لأنه حس دوى مطر . فصعد
 أخآب ليأكل ويشرب ، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وخر إلى الأرض
 وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه : اذهب تطلع نحو البحر . فصعد وتطلع
 وقال : ليس شيء . فقال : ارجع . سبع مرات . وفي المرة السابعة قال : هو ذا
 غيمة صغيرة قدر كف إنسان صاعدة من البحر . فقال : اصعد قل لأخآب
 اشدد وانزل لكلا يمنعك المطر . وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من
 الغيم والريخ وكان مطر عظيم . فركب أخآب ومضى إلى يزرعيل ، وكانت يد
 الرب على إيليا فشده حقويه وركض أمام أخآب حتى نجي إلى يزرعيل .
 وأخبر أخآب إيزابل بكل ما عمل إيليا وكيف أنه قتل جميع الأنبياء
 بالسيف . فأرسلت إيزابل رسولا إلى إيليا تقول : هكذا تفعل الآلهة وهكذا
 تريد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت غدا . فلما رأى
 ذلك قام ومضى لأجل نفسه ، وأتى إلى بئر سبع التي ليهوذا وترك غلامه
 هناك ، ثم سار في البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس تحت رثمة وطلب الموت
 لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب ، خذ نفسي لأنني لست خيرا من آبائي ،
 واضطجع ونام تحت الرثمة وإذا بملاك قد مسه وقال : قم وكل . فتطلع وإذا
 كعكة رصف وكوز ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع فاضطجع . ثم عاد
 ملاك الرب ثانية فمسه وقال : قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك . فقام وأكل
 وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل الله
 حوريب ، ودخل هناك المغارة وبات فيها .

وكان كلام الرب إليه يقول له : مالك ههنا يا إيليا ؟ فقال : قد غرت غيرة
 للرب إله الجنود لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا ميثاقك وقتلوا
 أنبياءك بالسيف ، فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها . فقال :
 (غزوة تبوك)

اخرج وقف على الجبل أمام الرب . وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح ، وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة ، وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار وبعد النار صوت منخفض خفيف . فلما سمع إيليا لف وجهه برادته ووقف في باب المغارة ، وإذا بصوت إليه يقول : مالك ههنا يا إيليا ؟ فقال : غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا ميثاقك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي ، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها . فقال له الرب : اذهب راجعا في طريقك إلى بركة دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكا على آرام ، وامسح ياهو بن نمشي ملكا على إسرائيل ، وامسح إليشع بن شافاط من آيل محولة نبيا عوضا عنك . فالذى ينجو من سيف حزائيل يقتله ياهو ، والذى ينجو من سيف ياهو يقتله إليشع ، وقد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تبحث للبعل وكل فم لم يقبله .

فذهب من هناك ووجد إليشع بن شافاط يحرق وإثنا عشر فدان بقر قدماه وهو مع الثاني عشر . فمر إيليا به وطرح رداءه عليه . فترك البقر وركض وراء إيليا وقال : دعني أقبل أوى وأمى وأسير وراءك . فقال له : اذهب راجعا لأنى ماذا فعلت لك . فرجع من وراءه وأخذ فدان بقر وذبحهما وعلق اللحم بأدوات البقر وأعطى الشعب فأكلوا . ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه » .

لم يشفع لإيليا أن النار قد أكلت قربانه وأن الشعب قال وهو يخسر ساجدا : الله إله إسرائيل . الله إله إسرائيل . فإيزابل قد أصرت على قتله ففر من وجهها إلى الله وهو يدعو ربه أن ينهى حياته يأسا وقنوطا ، وما كان لنبي يصطفيه الله أن يضيق بنعمة أنعمها الله عليه فالنبوة أعظم تكريم يكرم به الله عبده ، وما من نبي إلا وقد حمل أعباء النبوة وهو راض عما يحتمل من أذى في سبيل ربه ، فهو

يعيش مع الله وبالله متفرح بالنظر إلى وجهه ، وإن آلام الأرض كلها لتذوب أمام وحى يوحى ، وظلمات القنوط لا بد أن تتبدد أمام شروق نور الله في قلبه ، فقول إيليا لربه : قد كفى الآن يا رب خذ نفسى لأننى لست خيرا من آبائى لا يتسق مع النبوة ، فهو فرار من حمل النبوة لا يليق بنبى اصطفاه ربه ، فذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فقد كانوا يتمنون الموت لما كان اليأس من العودة إلى فلسطين يدب فى أفئدتهم ، فوضعوا ما هم فيه من حالة نفسية وأعاروا أنبياءهم ما هم فيه من قلق ويأس وقنوط .

إن يأس إيليا وقنوطه لا يتساق مع ما هو مفروض فى الأنبياء من امتثال أوامر الله : « ولقد كُذِّبَ رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (١) . ويعود كتبة التوراة لتأكيد الصورة الخاطئة التى كونوها فى أذهانهم عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا ، فيصفونه بالعبور وبالمرور ، ويجعلون له مكانا ظلل الغمام والريح والزلزلة والنار : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب » (١) .

ولنعد إلى الإصحاح العشرين من سفر الملوك الأول لنرى أن الذلّة والمسكنة قد ضربت على بنى إسرائيل حتى وهم سادة فى فلسطين قبل أن يأخذهم بختنصر سبائا إلى أرض العراق : « وجمع بنهدد ملك آرام كل جيشه واثنين وثلاثين ملكا معه وخيلا ومركبات ، وصعد وحاصر السامرة وحاربها وأرسل رسلا إلى أخاب ملك إسرائيل إلى المدينة وقال له : هكذا يقول بنهدد :

(٢) هود ١١٠ .

(١) الأنعام ٣٤ ، ٣٥ .

لى فضتك وذهبك ولى نساؤك وبنوك الحسان . فأجاب ملك إسرائيل وقال :
حسب قولك يا سيدى الملك أنا وجميع مالى لك » .

إن أخآب ملك إسرائيل يقبل تهديد ملك دمشق ولكن الشيوخ
يرفضون ، وتلدور معركة بين بنى إسرائيل وبنهدد ويهزم رجال إسرائيل بنهدد
والملوك الذين كانوا معه ، وإنه بعيد عن التصور أنه كان هناك اثنان وثلاثون
ملكاً غير بنهدد فى منطقة الشام إلا إذا كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد
أطلقوا على شيوخ القبائل لقب ملوك كما أطلقوا لفظة نبي على الدارسين فى
مدارس أبناء الأنبياء فى الرامة وبيت إيل .

وانتهت الحرب بين أخآب وبين بنهدد بعقد معاهدة بينهما اتفق فيها على أن
يرد أخآب المدن التى أخذها أبوه إلى بنهدد ، ولم ينج أخآب الذى هزم بنهدد
والملوك من لعنة كتاب التوراة فقد جعلوا أخآب يغتصب كرم جاره بتدبير
امرأته إيزابل ، فيغضب الرب على أخآب وإيزابل ويقول : « هاأنذا أجلب
عليك شرا وأبىد نسلك وأقطع لأخآب كل بائل بجائط ، ومحجوز ومطلق فى
إسرائيل ، وأجعل بيتك كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا لأجل
الإغاضة التى أغضتني ولجعلك إسرائيل يخطيء . وتكلم الرب عن إيزابل أيضا
قائلا : إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل ، من مات لأخآب فى
المدينة تأكله الكلاب ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء . ولم يكن
كأخآب الذى باع نفسه لعمل الشر فى عينى الرب الذى أغوته إيزابل امرأته .
ورجس جدا بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الآموريون الذين
طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل ، ولما سمع أخآب هذا الكلام شق ثيابه
وجعل مسحاً على جسده ، وصام واضطجع بالمسح ، ومشى بسكوت .
فكان كلام الرب إلى إيليا التشيى قائلا : هل رأيت كيف اتضع أخآب
أمامى ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه

أجلب الشر على بيته » .

وجعلوا إله إسرائيل إلها سوداوى المزاج يتربص بعباده ، لا يرحم ولا يقبل التوبة بل يؤجل انتقامه ويقرر أن ينتقم من الابن قبل أن يفعل الابن خيرا أو شرا ، لكأنما كان إله إسرائيل عدوا لعباده ينصب لهم الشرك ليسقطوا فى الخطيئة ثم يسومهم سوء العذاب على ما اقترفوا من خطأ ، ولا جرم فهو قد ندم على أنه قد خلق البشر وبات يتربص بهم حتى لا ينافسوه فى ملكه ! وتنشب حرب بين أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا من ناحية ، وبين ملك آرام . ويقتل أخآب ويصبح أخزيا بن أخآب ملكا على إسرائيل دون أن يدري أن إله إسرائيل يتربص به وأنه سيجلب عليه الشر وعلى بيته جزاء على ما اقترف أبوه من معاصى قبل أن يتوب ، فالتوبة عند إله إسرائيل لا تغسل الذنوب ، وهو يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الرابع ، وهذا هو عدله إن كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد عرفوا العدل الإلهى .

لا توبة فى التوراة وكيف يتوب إله ندم على أنه خلق البشر وأصبح يخشى منافستهم إياه ؟ لقد أغلق الذين كتبوا التوراة كل أبواب المغفرة فى وجوه الناس ، وما فائدة التوبة والمغفرة إذا كان الثواب أو العقاب يناله المرء فى هذه الدنيا الفانية ، وأن عمل المرء ينقطع بموته ؟

لم تعرف التوراة — أو بمعنى أصح — الذين كتبوا التوراة بأيديهم التوبة والمغفرة ورحمة الله ، بينما آيات القرآن المجيد تفتح أمام الناس أبواب التوبة على مصاريعها وتحدث عن رحمة الله ومغفرته حديثا فياضا يجعل حياة البشرية تتألق بالآمال : « علم الله أنكم كنتم تحتانون أنفسكم فتأب عليكم وعفا عنكم »^(١) . « أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه

(١) البقرة ١٨٧ .

غفور رحيم» (١) «ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم» (٢) ،
« وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » (٣) . « إلا من تاب
وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » (٤) . « والذين
عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور
رحيم » (٥) . « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (٦) .

وينتهي سفر الملوك الأول بالعبارات التقليدية التي ينتهي بها كل سفر وهي
عبارات تؤكد دائماً كفران مسعى ملوك إسرائيل : « أخزيا بن أخآب ملك
على إسرائيل في السامرة في السنة السابعة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا ملك
على إسرائيل سنتين ، وعمل الشر في عيني الرب وسار في طريق أبيه وطريق أمه
وطريق يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطيء ، وعبد البعل وسجد له
وأغاظ الرب إله إسرائيل حسب كل ما فعل أبوه » .

ويبدأ سفر الملوك الثاني بانتقام إله إسرائيل من أخزيا بن أخآب وينزل به
أقصى عقوبة يمكن أن تنزل في إسرائيل ، وهي انتزاع الملك من بيته . « وعصى
مؤآب على إسرائيل بعد وفاة أخآب » .

وسقط أخزيا من الكوة التي في عليته التي في السامرة فمرض وأرسل رسلاً
وقال لهم : اذهبوا اسألوا بعل زبوب إله عفرون إن كنت أبرأ من هذا المرض .
فقال ملوك الرب لإيليا اليتيمى : قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم :
أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله تذهبون لتسألوا بعل زبوب إله عفرون ؟
فلذلك هكذا قال الرب : إن السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتاً
تموت ، فانطلق لإيليا ورجع الرسل إليه فقال لهم : لماذا رجعت ؟ فقالوا له : صعد

١٠. (١) الأنعام ٥٤ .

(٢) التوبة ١١٨ .

(٣) طه ٨٢ .

(٤) الفرقان ٧٠ .

(٥) الأعراف ١٥٣ .

(٦) الحجرات ١١ .

رجل للقائنا وقال لنا اذهبوا راجعين إلى الملك الذى أرسلكم وقولوا له : هكذا قال الرب : أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إله أرسلت لتسأل بعل زبوب إله عفرون ؟ لذلك السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فقال لهم : ما هى هيئة الرجل الذى صعد للقائكم وكلمكم بهذا الكلام ؟ فقالوا له : إنه رجل أشعر متمنطق بمنطقة من جلد على حقويه ، فقال : هو إيليا اليتشبي ، فأرسل إليه رئيس خمسين مع الخمسين الذين له فصعد إليه وإذا هو جالس على رأس الجبل ، فقال له يا رجل الله الملك يقول : انزل فأجاب إيليا وقال لرئيس الخمسين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد وأرسل إليه رئيس خمسين آخر والخمسين الذين له ، فأجاب وقال له : يا رجل الله هكذا يقول الملك أسرع وانزل . فأجاب إيليا وقال لهم : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء فتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد فأرسل رئيس خمسين ثالثا والخمسين الذين له ، فصعد رئيس الخمسين الثالث وجاء وجثا على ركبتيه أمام إيليا وتضرع إليه وقال له : يا رجل الله لتكرم نفسى وأنفس عبيدك هؤلاء الخمسين فى عينيك هوذا قد نزلت نار من السماء وأكلت رئيس الخمسينين الأولين وخمسينيهما ، والآن فلتكرم نفسى فى عينيك .

فقال ملاك الرب لإيليا : انزل معه ، لا تخف منه . فقام ونزل معه إلى الملك وقال له : هكذا قال الرب : من أجل أنك أرسلت رسلا لتسأل بعل زبوب إله عفرون أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إله لتسأل عن كلامه . لذلك السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فمات حسب كلام الرب الذى تكلم به إيليا . وملك بهورام عوضا عنه للسنة الثانية لبهورام بن يهو شافاط ملك يهوذا لأنه لم يكن له ابن . وبقية أمور أخزيا التى عمل أما هى

مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك إسرائيل .
 إله إسرائيل غضب على أخزيا بن آخاب لأنه أرسل يسأل بعل زبوب إلهه
 عفرون عن مرضه ، وهو الإله الذي انقطع لشعبه واختار أن يقيم بينهم في
 الهيكل دون العالمين ، فلم يكن غضبه للشرك به بل كان غضبه أشبه بغضبة
 التاجر الذي يحزنه أن يذهب أهله إلى تاجر آخر ليشتروا منه بينا حاجاتهم
 عنده . وهل كان غضب إله إسرائيل حقاً لأن أخزيا ولاه ظهره واتجه إلى إلهه
 آخر أم كان يتربص به مذ عصاه آخاب ؟ لم يقل قبل أن يتولى أخزيا الملك
 وقبل أن يرسل الرسل إلى بعل زبوب لنبيه إيليا : هل رأيت كيف اتضع آخاب
 أمامي ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه
 أجلب الشر على بيته ، إنه بيت النية على جلب الشر لبيت آخاب في أيام ابنه
 قبل أن يعبد الابن إلهها غيره ، وهل كان ذلك الوحي الذي أوحاه إله نبيه سرا
 أم أن إيليا قد أذاعه ؟ وإذا كان قد بلغه أم وصل إلى مسامع أخزيا فيأخذ
 حذره ؟!

تاب آخاب واتضع أمام إله إسرائيل ، أفما كانت توبته كفارة عن
 سيئاته ؟ فلماذا يربط إله إسرائيل بين سيئات رجل قد تاب ومصير ابنه ؟ إنه
 إله لا يعرف التوبة ولا الصفح ورحمته تضيق عن المغفرة ، وإن نبيه إيليا لا يقل
 عن إلهه قسوة . إنه يتلذذ لما تسقط نار من السماء وتأكل رؤس الخمسين مع
 الخمسين ، إنه لم يقل كما قال أنبياء الله قبله : اللهم اغفر لقومي فإنهم
 لا يعلمون . بل قال في غرور مرتين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من
 السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك .

لم يقل للناس إن رحمة ربه واسعة ولا ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ،
 بل كان يلوح بالعذاب المهين . ولم يكتف بالتلويح بل كان يسخر ربه لإنزال
 نار من السماء تأكل أعداءه .

إنه قاس حقود لا يمكن أن يكون له وجود إلا في عقول مريضة ، وهل كانت عقول الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى سليمة ؟ كانوا أسرى في قصور ملوك إيران في العراق ، وكان عزرا ونحميا ودانيال أنبياءهم الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى سقاة خمر لأرتخششتا ملك بابل بل كانوا مغنين له ، فماذا ننتظر منهم ؟ كانوا مبهورين بالملوك الساسانيين فتخلوا إلههم كذلك ساساني يفعل بانفعالات إنسانية محمومة لا تعرف الصفح ولا المغفرة ، وتهلل بالفرح إذا ما نزلت نقيمتها بأعدائها ، ولا ينبغي أن يغرب عن البال أن كتاب التوراة قد صوروا البشر أعداء الرب مذ تطلعوا إلى المعرفة وأصبحوا ينافسون ربهم في علمه ، وأنه قد ندم على خلقهم .

وما دامت آفاقهم كانت محدودة بالحد والبغضاء والعذاب لبنى البشر لما صوروا إلههم ، فماذا ننتظر منهم لما يصورون أنبياءه ؟ فما دام الرب دمويا فأنبياءه دمويون . وما دام الرب قاسيا فأنبياءه قساة . وما دام الرب يفقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الرابع ، فأنبياءه يباركون مثل ذلك الظلم الذى يصرخ منه كل من في قلبه ذرة من عدل .

كانت شطحات أخيلتهم مادية ، لم تكن لهم أرواح شفاقة ترتفع لتقرع أبواب ملكوت السماء . وكيف تهيم العقول في رحاب ملك الله إذا كانت الأفئدة مثقلة باللذات الأرضية ؟ ولنقرأ معا الإصحاح الثانى من سفر الملوك الثانى لنترى كيف صوروا ما تصوره من صعود إيليا في العاصفة إلى السماء : « وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء أن إيليا وأليشع ذهبا من الجبلجال . فقال إيليا لأليشع : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى بيت إيل فقال أليشع : حى هو الرب وحية هى نفسك إني لا أتركك . ونزلا إلى بيت إيل . فخرج بنو الأنبياء الذين في بيت إيل إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إني أعلم فاصمتوا . ثم قال له

إيليا : يا أليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى أريحا . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك ، إنى لا أتركك . وأتيا إلى أريحا ، فتقدم بنو الأنبياء الذين فى أريحا إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إنى أعلم فاصمتوا . ثم قال له إيليا : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى الأردن . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك . وانطلقا كلاهما . فذهب خمسون رجلا من بنى الأنبياء ووقفوا قبالتهما من بعيد . ووقف كلاهما بجانب الأردن . وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس . ولما عبرا قال إيليا لأليشع : اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أؤخذ منك . فقال أليشع : ليكن نصيب اثنين من روحك علتى ، فقال : صعبت السؤال . فإن رأيتنى أؤخذ منك يكون لك كذلك وإلا فلا يكون . وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء . وكان أليشع يرى وهو يصرخ : يا أبى : يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها . ولم يره بعد . فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين . ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن ، فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال : أين هو الرب إله إيليا ؟ ثم ضرب الماء أيضا فانفلق إلى هنا وهناك فعبر أليشع . ولما رآه بنو الأنبياء الذين فى أريحا قبالتة قالوا : قد استقرت روح إيليا عن أليشع . فجاءوا للقاءه وسجدوا له إلى الأرض . وقالوا له : هو ذا مع عبيدك خمسون رجلا ذوو بأس فدعهم يذهبون ويفتشون على سيدك لئلا يكون قد حملة روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . فقال : لا ترسلوا . فألحوا عليه حتى خجل وقال : أرسلوا . فأرسلوا خمسين رجلا ففتشوا ثلاثة أيام ولم يجدوه . ولما رجعوا إليه وهو ماكث فى أريحا قال لهم : أما قلت لكم لا تذهبوا ؟ وقال رجال المدينة لأليشع : هو ذا موقع المدينة حسن كما يرى سيدى . وأما

المياه فَرَدِيَّةً والأرض مجدبة . فقال : اثنوني بصحن جديد وضعوا فيه ملحاً . فأتوه به . فخرج إلى نبع الماء وطرح فيه الملح وقال : هكذا قال الرب قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضاً موت ولا جذب . فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذى نطق به .

ثم صعد من هناك إلى بيت إيل ، وفيما هو صاعد فى الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع . اصعد يا أقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب . فخرجت دبتان من الوعر وافتستا منهم اثنين وأربعين ولداً . وذهب من هناك إلى جبل الكرمل ومن هناك رجع إلى السامرة . .

بنو الأنبياء فى بيت إيل كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء ، وبنو الأنبياء الذين كانوا يتلقون العلم فى معهد الأنبياء بأريحا كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء . ووقف خمسون رجلاً من بنى الأنبياء على ضفة الأردن ليروا المعجزة كأنما قد أصدر الرب نشرة ربانية وزعت على معاهد الأنبياء ينبئهم فيها بما سيفعله بنبية إيليا فى ذلك اليوم .

فلما رفع إيليا — حسب زعمهم — ماذا كان موقف بنى الأنبياء الذين تلقوا النبأ العظيم من إلههم قبل أن يقع الرفع ؟ شكوا فى إلههم وفى ملاكهم فقالوا : هو ذا مع عبدك خمسون رجلاً ذوو بأس فدعهم يذهبوا ويفتشوا على سيدك لئلا يكون قد حمله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . .

مقدمات لا تتواكب مع النتائج ، إعلان من رب إسرائيل لبنى الأنبياء بأنه سيرفع إيليا إليه فى العاصفة فى ذلك اليوم ، فلما يرفعه إذا بالشك يملأ أفئدتهم فيعمى قلوبهم فيرسلون من يبحث عن نبينهم خشية أن يكون روح الرب قد طرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . كأنما روح الرب كان نسراً خطف

من خطف دون أن يدري حقيقة رسالته . إن قصة السندباد تلح على فكري وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، فهل كان لها أصل بابلي قديم استهوى عقول كتاب التوراة كما استهوت الفكرة عقل مؤلف قصة السندباد ؟.

قد أصبح أليشع نبيا بعد أن استقرت روح إيليا عليه ، وقد سجد له بنو الأنبياء وإن كان السجود لا يجوز في جميع الآديان السماوية لغير الله . فماذا فعل الرجل الذي اصطفاه إله إسرائيل ليكون مبشرا لبنى إسرائيل ونذيرا ؟ كان أول عمل عظيم عمله أن التقى بصبيان وهو في طريقه إلى بيت إيل سخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع .. أصعد يا أقرع . فلم يكظم غيظه ولم يحاول أن يهدى الصبيان الصغار إلى جادة الصواب بل لعنهم باسم رب إسرائيل . وسرعان ما استجاب الرب القاسى لقسوة قلب نبيه فخرجت دبتان وافتستا منهم اثنين وأربعين ولدا .

كتاب التوراة في المنفى يسجلون ذلك في زهو وفخر ، وإلى أتساءل : ما هو حكم القانون الوضعي لو أن غلمانا صغارا ساروا وراء رجل وقالوا : يا أقرع .. يا أقرع . وكان معه كلب وحشى أطلقه عليهم فافترسهم ؟ هل يمجّد القانون ذلك الرجل وهل تصدر الصحف وقد زينت صفحاتها الأولى بصورته وكتبت تحتها عبارات المدح والثناء ؟! إنه لا يعرف قلبه الرحمة ولا الصفح الكريم ، ولا جرم فهو نبى إله يحقد على بنى البشر ويستجيب للعنات أنبيائه ويسارع بإنزال العذاب على الناس حتى ولو كانوا أطفالا لا يعقلون ما يفعلون .

وخرج بهورام بن أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا وملك أدوم لمحاربة موآب وسألوا أليشع أن يسأل ربه عن نتيجة الحرب . فقال أليشع : « والآن فأتوفى بعوآد ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب . فقال : هكذا قال الرب اجعلوا هذا الولدى جبابا جبابا ، لأنه هكذا

قال الرب لا ترون ريحا ولا ترون مطرا ، وهذا الوادى يمتلئ ماء فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم . وذلك يسير فى عيني الرب فيدفع مآب إلى أيديكم . فتشربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمون جميع عيون الماء وتفسدون كل حلقة جيدة بالحجارة .

إله إسرائيل يأمر عباده من إسرائيل ويهوذا أن يكونوا مفسدين فى الأرض ، أن يقطعوا كل شجرة طيبة وأن يطموا عيون الماء وأن يرحموا الحقول الجيدة بالحجارة . وإله إسرائيل لا يوحى إلى أنبيائه بعلمه إلا بعد أن يشنفوا أذنيه بأحلى الآلحان . ولا غرو فأنبىء بنى إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى كانوا مغنين للملك إيران فصوروا إلههم فى صورة الملوك الساسانيين الذين تهزهم أنغام العود فتتحرك أريحيتهم فيجدودون على جالبي السرور إلى أفدتهم بما يطلبون .

ويقول كتاب التوراة إن الإسرائيليين واليهود نفذوا وصية ربهم : « وهدموا المدن وكان كل واحد يلقي حجره فى كل حلقة جيدة حتى ملأوها وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة » .

ويروى كتاب التوراة بعض معجزات أليشع وكيف أنه أحيا غلاما بعد أن مات ، وكيف أنه كثر الطعام ولم تصدر منه كلمة واحدة تدعو الناس إلى الله ، فهو يشفى الأبرص ولا يشفى أمراض النفوس . إنه يهزم جيوش الأعداء وحده ، يقول لربه : « اضرب هؤلاء الأمم بالعمى » ، فيضربهم بالعمى ، ويقول : « يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصرون » ، فيفتح الرب أعينهم فيبصرون . إنها أحلام الذين كانوا أسرى فى بابل ، إنهم كانوا يتمنون أن يقولوا لربهم : « احملنا إلى أرض فلسطين » فيحملهم دون كفاح أو قتال ، ولماذا يقاتلون وهم رب يقاتل عنهم ؟!

وينفذ أليشع أمر ربه بأن ينتقم من ابن أخاب عقابا لخطايا أبيه الذى تاب ،

فينقطع بذلك الملك عن بيت أخآب : « ودعا أليشع النبی واحدا من بنی الأنبياء وقال له : شد حقوك وخذ قنينة الدهن هذه بيدك واذهب إلى راموث جلعاد ، وإذا وصلت إلى هناك فانظر يا هو بن يهو شافاط بن نمشى وادخل وأقمه من وسط إخوته وادخل به إلى مخدع داخل مخدع ، ثم قنينة الدهن وصب على رأسه وقل هكذا قال الرب قد مسحتك ملكا على إسرائيل ، ثم افتح الباب واهرب ولا تنتظر . فانطلق الغلام أى الغلام النبی إلى راموث جلعاد ودخل ، وإذا قواد الجيش جلوس ، فقال : لى كلام معك يا قائد . فقال ياهو : مع من منا كلنا ؟ فقال : معك أيها القائد . فقام ودخل البيت فصب الدهن على رأسه وقال له : هكذا قال الرب إله إسرائيل قد مسحتك ملكا على شعب الرب إسرائيل . فتضرب بيت أخآب سيدك وانتقم لدماء عبيدى الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل . فبيد كل بيت أخآب واستأصل لأخآب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق فى إسرائيل ، واجعل أخآب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا . وتأكل الكلاب إيزابل فى حقل يزرعيل وليس من يدفنها ، ثم فتح الباب وهرب » .

انقلاب عسكرى وقع فى إسرائيل ، وقد اشترك فيه أليشع وأبناء الأنبياء الذين يتلقون النبوة فى معاهد الأنبياء . فلما دون كُتَاب التوراة فى المنفى ذلك الحادث جعلوه وحيا من السماء وثمنا لكفران أخآب وزوجته إيزابل . وقد كانوا يقصدون كل حرف دونوه ، كانوا من أبناء الأنبياء فأرادوا أن يوهوا يهود المنفى أنهم يتلقون وحى السماء وأنهم ينطقون بلسان إله إسرائيل ليتلقى الشعب الذى كان فى المنفى أوامرهم خاشعين ، وليباهم كل من تسول له نفسه معارضتهم خشية بطش إله إسرائيل الذى يسارع بإنزال العقاب استجابة لدعوات أنبيائه اللعائين .

ويصبح يا هو ملكا على إسرائيل ويفنى جميع عبدة البعل ويعيد إسرائيل إلى

عبادة إله إسرائيل . فماذا كان جزاؤه من كُتَّاب التوراة : « وقال الرب لياهو : من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم في عينيَّ وحسب كل ما في قلبي فعلت بيت أخاب ، فأبناؤك إلى الجيل الرابع يجلسون على كرسي إسرائيل ، ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة الرب إله إسرائيل من كل قلبه ، ولم يحد عن خطاياا يريعام الذي جعل إسرائيل يخطئ » .

أتدري سبب أختلاف النتيجة عن المقدمة ؟ إن حزائيل ملك أرام ضرب إسرائيل ، وإن كُتَّاب التوراة في المنفى لا يستطيعون أن يتصوروا ياهو قد هزم فلا بد أنه تكب طريق الرب ، وإن كان قد قتل جميع أنبياء البعل وعبيده ، وإن كان قد أعاد إسرائيل إلى رب إسرائيل .

ويتولى الملك في إسرائيل وفي يهوذا ملوك لا عمل لهم إلا الشر ، « وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راء قائل : إرجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياي فرائضي حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم والتي أرسلتها إليكم عن يد عبيدي الأنبياء ، فلم يسمعو بل صلبوا أفقيتهم كأفقية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم ، ورفضوا فرائضه وعهده الذي قطعه على آبائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم ، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا وراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم ، وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجولين ، وعملوا سوارى وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل ، وعبروا بنهم وبناتهم في النار وعرفوا عرافة وتفاءلوا وباعوا أنفسهم لعمل الشر في عيني الرب لإغاظته . فغضب الرب جدًّا على إسرائيل ونحاهم من أمامه ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده ، ويهوذا أيضا لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا في فرائض إسرائيل التي عملوها . فردل الرب كل نسل إسرائيل وأذلم ودفعهم في يد ناهيين حتى طرحهم من أمامه ، لأنه شق إسرائيل عن بيت داود

فمَلَكُوا يربعام بن نباط فأبعد يربعام إسرائيل من وراء الرب وجعلهم يخطئون خطية عظيمة . وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل . لم يحدوا عنها حتى نحى الرب لإسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء . فسبى إسرائيل من أرضه أشور إلى هذا اليوم .

وأنزل الملوك الآشوريون بنى إسرائيل واليهود ألوان العذاب ، كانوا يسلخونهم أحياء وكانوا يصنعون من جماجمهم أهراما . وانتصر نبوخذنصر ملك بابل على أشور وتمرد يهوياقيم ملك يهوذا على نبوخذنصر ودفع الجزية لفرعون مصر « فصعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار ، وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها . فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤسائه وخصيانه وأخذ ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه ، وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب و خزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب . وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبى وجميع الصناع والأقيان ، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض . وسبى يهوياكين إلى بابل . وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل . جميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل ، وملك ملك بابل مَتْنِيا عمه عوضا عنه وغير اسمه إلى صِدْقِيَا .

كان صديقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك . وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم واسم أمه حميطل بنت ارميا مت لينة ، وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل يهوياقيم ، لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا، حتى طرحهم من أمام وجهه كان أن صديقيا تمرد على ملك بابل . وفي

السنة التاسعة للملكه في الشهر العاشر في عاشر من الشهر جاء نبوخذنصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجا حولها ، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيا ، في تاسع الشهر اشتد الجوع بالمدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض . فتُغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك . وكان الكلدانيون حول المدينة مستدبرين ، فذهبوا في طريق البرية ، فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في بركة أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه ، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى رَبَّة وكَلَّموه بالقضاء عليه وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل .

وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذنصر ملك بابل جاء نبوزرَادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم . وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقتها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرا هَدَمَهَا كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط . وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور ساهم نبوزرَادان رئيس الشرطة .. » .

أحرق نبوزرَادان الهيكل وأحرق التوراة وحمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل ليعيشوا في الأسر وبذلك انتهت إسرائيل ويهوذا وتم سفر الملوك الثاني ، وابتدأت أيام المنفى أيام إعادة كتابة التوراة . ولترجىء الحديث عن هذه الفترة الحاسمة في تاريخ التوراة إلى التذييل القادم .

القاهرة في ٤ / ١ / ١٩٧٠ .

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية
لابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية)
لعلى بن برهان الدين الحبللى
بلوغ الأرب
للألوسى
نهاية الأرب
للنويزى
إيران فى عهد الساسانيين
لكريستينسن — ترجمة د . يحيى
الخشب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار
للغزالى
للتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
الدكتور على عبد الواحد وافى
حقوق الإنسان فى الإسلام
مولائى محمد على
محمد رسول الله
الرسول . حياة محمد
ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد
فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد
مولائى محمد على
ترجمة أحمد جوده السحار
لأبى الأعلى المودودى
الدين القيم

— ٢٥٩ —

المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبي	للدكتورة بنت الشاطئ
عبقريّة محمد	لعباس محمود العقاد
الروض الأنف	للسهيلى
تاريخ الطب	للدكتور زكريا إبراهيم
مشكلة الحرية	لعباس محمود العقاد
فاطمة الزهراء والفاطميون	للوحدى
أسباب النزول	لابن أبى الحديد
شرح نهج البلاغة	للمهرستاني
الملل والنحل	

محمد رسول الله والذين معه

السيرة النبوية في ٢٠ جزءًا

- | | |
|---------------------------|-------------------|
| ١ — إبراهيم أبو الأنبياء | ١١ — الهجرة |
| ٢ — هاجر المصرية أم العرب | ١٢ — غزوة بدر |
| ٣ — بنو إسماعيل | ١٣ — غزوة أحد |
| ٤ — العدنانيون | ١٤ — غزوة الخندق |
| ٥ — قريش | ١٥ — صلح الحديبية |
| ٦ — مولد الرسول | ١٦ — فتح مكة |
| ٧ — اليتيم | ١٧ — غزوة تبوك |
| ٨ — خديجة بنت خويلد | ١٨ — عام الوفود |
| ٩ — دعوة إبراهيم | ١٩ — حجة الوداع |
| ١٠ — عام الحزن | ٢٠ — وفاة الرسول |

ثمن الجزء الواحد عادى جنيهاً

ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنيهاً ونصف

ثمن المجموعة المجلدة تجليداً فاخراً في ٢٠ مجلداً ٩٥ جنيهاً

رقم الإيداع ٣٠٢٢

الترقيم الدولي ٩ — ٢٤١ — ٣١٦ — ٩٧٧

